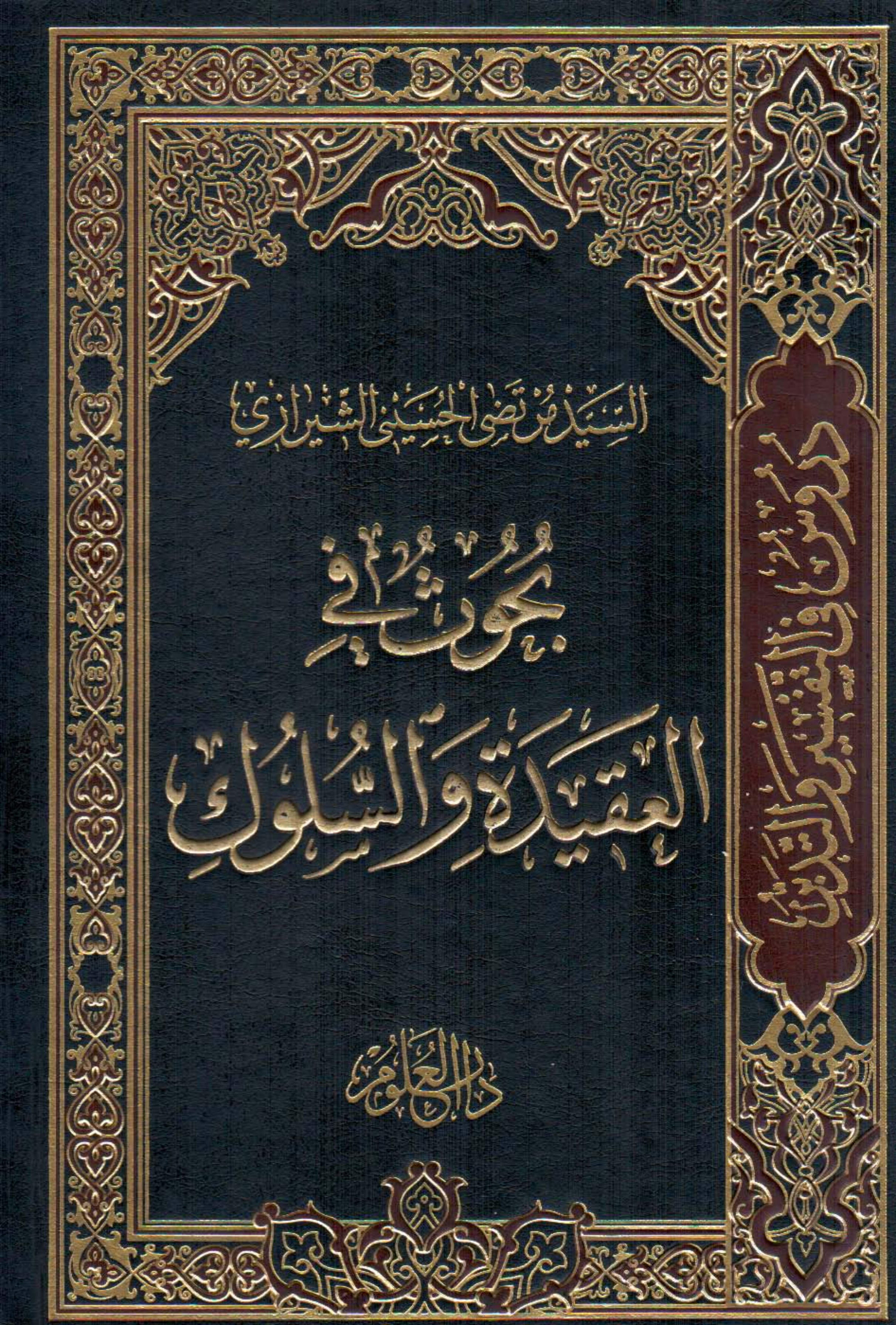

السيد مرتضى الحسيني الشيرازي
بحوث في
العقيدة والسلوك
دار العلوم

بُحُوثٌ في العَقِيدَةِ وَالسُّلُوكِ

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/٢٠١٠م



المكتب : الرويس - بناية عروس الرويس - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919
ص . ب : 140/ 24 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

دروس في التفسير والتدبر

بحوث في العقيدة والسلوك

السيد مرتضى الحسيني الشيرازي





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ



المجلد الأول



كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام وعلى سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة على أعدائهم إلى يوم الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

قال الله العظيم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾.

(القرآن الكريم) هو كتاب حياة وهداية للتي هي اقوم في الدين والدنيا والاخرة.

وهذا الكتاب **(دروس في التفسير والتدبر)**

هو مجموعة من البحوث والدروس الهادفة التي تتوخى الاسترشاد بالقرآن الكريم للتعرف على الحقائق (التكوينية والتشريعية) ولاصلاح المجتمع وصولا الى السعادة الدنيوية والاخروية، وللنهوض بالفرد والأسرة والأمة.

وقد ألقاها (آية الله السيد مرتضى الشيرازي دَامَظِلُّهُ) على جمع من علماء وفضلاء الحوزة العلمية الزينبية، ليالي الخميس طوال العام الدراسي ١٤٢٩_١٤٣٠هـ.

وقد قام بعض الإخوة الكرام بإنزالها إلى الورق، ثم طباعتها، ثم قام بعض الأخوة الأفاضل بإعادة الصياغة للكثير من الجمل أو الكلمات بتحويل الدارج منها إلى الفصحى، وحذف المكررات وشبه ذلك مما هو مقتضى (الإلقاء والخطابة)، لتتلاءم مع مقتضيات (الكتاب المطبوع)، كما قام بعض الإخوة الكرام بتخريج المصادر وتحقيقها، بعد ذلك قام السيد الأستاذ بمراجعة هذه البحوث بأكملها وإعادة صياغتها، وقد أضاف لها الكثير من الإضافات الهامة التي تتراوح بين الكلمة إلى الصفحة مقتصراً على مقدار الضرورة، إذ دار الأمر بين الاستيعاب فيما كان قد أعده دام ظله من نقاط وبحوث للإلقاء ثم لم يُعنِه الوقت، وبين المسارعة لإنجاز هذا المجلد فكانت الخيرة مع المسارعة إلى الخير.

وقد ضمّت هذه الدروس ٢٩ درساً، قسمت على أساس موضوعي، فكان هذا المجلد الأول الذي يضم اربع عشرة محاضرة، وهو يتمحور حول (العقيدة والسلوك) وكان، (المدخل) عبارة عن محاضرة أخرى، وقد اعتبرت (المدخل) لأنها تتحدث عن مفتاح هذه البحوث وهو (الإنصات للقرآن الكريم والاستماع له).

وسيلحقه بإذن الله تعالى المجلد الثاني والذي يتألف من ١٤ محاضرة أخرى حول محور آخر قريباً إن شاء الله.

ونسأله سبحانه أن يوفقنا لإكمال إعداد وطباعة سلسلة الدروس هذه،

وأن يجعله في ميزان حسناتنا، ويوفقنا لما يرضيه، انه لما يشاء فعّال وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٢٦ رمضان الخير ١٤٣٠هـ

مؤسسة التقى الثقافية

m-alshirazi.com



المدخل

استمطار الرحمة الإلهية بالإنصات للقرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين؛ ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]

كيف نستمطر رحمة الله سبحانه وتعالى حتى تهبط علينا وتتنزّل علينا كالمطر؟

الكثير منا؛ بل كلنا، له من المشاكل ما يُؤرِقُهُ، ويُزعِجُهُ ويقضُّ عليه

---

(١) الأعراف: ٢٠٤.

مَضجعَهُ، فهنالك إنسان مبتلى بدَينٍ، وكثير منكم يمكن أن تكونوا الآن مديونين أو هنالك إنسان مبتلى بمشكلة مع زوجته، أو مع أطفاله، أو مُبتلى في صحته، أو مُبتلى بجارٍ له مُزعج، يُؤرقه ويُزعجه، وما أشبه ذلك، أو مُبتلى بابتلاءات أخرى شتَى.. فكيفَ (نَستمطرُ) رحمةَ الله سُبحانه وتعالى لدفع هذه الفِتَنِ والمِحَنِ والمشاكل والابتلاءات؟

إن الآية القرآنية الكريمة تجيب على هذا التساؤل، إذ تقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

إن مما يُؤسَف له أن الكثير مِنَّا، غافلون عن هذه الرحمة الإلهية، فعندما تدخلون إلى المجالس، أو تحضرون في فاتحة، أو غيرها، ويُقرأ القرآن فيها، تجدون الكثير من الناس مشغولاً بالأحاديث الجانبية.. هذا هو سبب من أهم أسباب سلب الرحمة الإلهية عن الإنسان..

والغريب أنه إذا لم يكن مشغولاً بالحديث، فستراه مشغول الذهن أو شارده، فذهنه يُشرّقُ ويُغرّبُ، يُفكرُ هنا وهناك في مسألة فقهية، أو أصولية، أو في أزمة اقتصادية أو قضية سياسية أو في السوق، أو في مشكلة اعترضت طريقه..

إنه يفكر في كل شيء، ولا (ينصت) لحديث الإله القادر المتعال.

إن هذا هو سبب رئيسي لسلب الرحمة الإلهية.. وانتم جرِّبوا لمدة شهر، جربوا الإنصات لتلاوة القرآن، وأقول ذلك معتقدا به ومُجرِّباً له أيضاً، وليس عن اعتقاد فقط.. والآية الشريفة هي أكبر شاهد على ذلك هي الصِّدقُ، بل هي الحقُّ وليستْ صِدقاً فقط..

لشهر كامل دعنا نلتزم بذلك حقاً فمتى قُرأ القرآن، فلنستمع له وننصت، وراقب كيف أن المُشكلة التي نويتها أو التي لم تنوها، فإن الله سبحانه وتعالى يحلها من حيث لا تَحتسب، ومن حيث لا يُحتسب.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾، وكنت أفكر مع نفسي، وأنا أتأمل الآية الشريفة: إنه أنتم إذا حضرتم أو حضرنا في محضر شخص عظيم، وكان يتكلم معنا وعندنا لديه حاجة، فهل إذا رآنا شاردي الذهن، مشغولين بالفكر عنه.. هو يُكلمني وذهني في مكان آخر.. هل يقضي حاجتي؟

كلا.. سوف لا يقضي حاجتي.. ذلك أن هذه الحالة تُعتبر إهانةً لذلك العظيم.. وقد يكون عظيماً معنوياً كمرجع تقليد، أو مادياً كملك.. تخيلوا ذلك: الملك أو مرجع التقليد يحدّثُ الطرف الآخر، وهذا ذهنه في مكان آخر، أو إنه يهمل الاستماع وينشغل بالحديث مع الآخرين في محضر المرجع أو الملك ألا تعد هذه إهانةً له؟

إننا إذا أردنا أن نستمطر رحمة الله سبحانه وتعالى، فمن الطرق لذلك هو الاستماع والإنصات للقرآن الكريم..

الاستماع للقرآن في الصلاة وغيرها

وهنا مسائل خمس:

١. يجب ترك القراءة في الصلاة الجهرية إذا سمع المأموم صوت الإمام ولو همهمته، فرغم إنه يريد قراءة القرآن إلا أنه مادام الإمام يقرأ

القرآن فعليه أن لا يقرأ.

٢. الأحوط الأولى ترك الانشغال حتى بذكر الله في الجهرية إذا سمع صوت الإمام ولو همهمته.

٣. الأحوط الأولى الإنصات لقراءة الإمام (الحمد والسورة مثلاً) وإن كان الأقوى في ٢و٣ جواز الاشتغال بذكر ونحوه.

٤. نعم إذا لم يسمع حتى الهمهمة جازت له القراءة بل استحبت بقصد القربة المطلقة، بل يجوز حتى بقصد الجزئية، وذلك كما ذكره صاحب العروة ولم يخالفه جمع من أعاظم الفقهاء ومنهم السيد الوالد قدس سره والسيد العم دام ظله.

٥. وأما في غير الصلاة فالإنصات وإن كان مستحباً مؤكداً لا واجباً كما هو المشهور إلا أن النتيجة التي رتبها الله تعالى على الاستماع والإنصات وهي ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تدفع الإنسان الحكيم دفعاً أخرى، لكي ينصت حتماً إذ لعل رحمة من هذه الرحمات تشمله فتدفع عنه مصيبة نازلة أو بلية فادحة..

ولعل رحمة تشمله فتدفع عنه ما هو أعظم وهو: معصية كان سيتورط بها فيحفظه الله تعالى عنها ببركة استماعه للقرآن الكريم، بل لعل الله سبحانه برحمة ونظرة منه له وهو يستمع القرآن ويعظمه وينصت له ينقذه من سوء العاقبة والخلود بالنار.

ثم إن تفسير الآية بما لو كان في الصلاة تفسير بالمصداق، كما هو الظاهر إذ المورد لا يخصص الوارد، وإنما رفع اليد عن الوجوب في غير

الصلاة للدليل الخارجي وإلا لو خلينا والآية بمفردها كانت دالة على الوجوب كما هو الأصل في صيغة الأمر لولا القرينة.

الفرق بين {فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ} {وَأَنصِتُواْ}

وهنا لفتة بديعة في كلمة ﴿وَأَنصِتُواْ﴾، ماذا تعني هذه الكلمة؟ يُفسِّرُها المُفسِّرون بـ: الاستماع مع سكوت.. ولكن ما خطر بالبال القاصر: أن هذه الكلمة هي تأكيدٌ، وتأسيسٌ أيضاً..

التأكيد: واضح فيها، ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ فهي تأكيد مرة أخرى، يعني استمعوا مع السكوت..

لكن التأسيس كيف؟ يعني ما معنى استمعوا مع السكوت؟ والاستماع المفروض أنه يكون مع السكوت.. ذلك أنه يوجد أمران: (سَمَاعٌ)، و(اسْتِماعٌ)..

و(الاستماع): يعني أن تُعطي له قلبك أيضاً ووعيك له، فتكون عنده حاضراً بقلبك وبذهنك.

فما هو فرق الإنصات عن الاستماع؟

١.الاستماع أثناء الفواصل والسكتات

يَخطرُ بالبال: أنه ربما يكون هنالك معنيان، وكلاهما قد يكون مقصوداً في الآية القرآنية الشريفة.. إذ يمكن أن يستمع الإنسان للقرآن، لكن في الأثناء أي أثناء قراءة القارئ للقرآن، وفي الفواصل أي عندما ينهي آية ويريد أن يبدأ بآية ثانية ننشغل بكلام ولو قصير جداً جملة أو

سؤال فقط فالذي يدخل إلى المجلس ماذا يرى؟ يرى أننا نستمع القرآن ولكن لسنا ساكتين..

وهنا تجدنا نُطبِّق ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾، لكننا لا نعمل بـ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾.. أين الإنصات؟ إنه في الجو العام والهيئة المجموعية بما فيها فواصل التلاوة.. هذا الاحتمال الأول وهو مُراد أيضاً، إذ ذلك خلاف الاحترام.. الملك يتكلم أو مرجع التقليد، وإذا سكت ثانيتين فنبدأ نتكلم مع بعضنا، هذا خلاف توقيره واحترامه، وهو إهانة أيضاً.. هذا يعني أنه ليس سكوتي واستماعي له وهو متشاغل بالحديث، هو المطلوب فقط، بل في الخُلل، والفُرج، والفواصل أيضاً مطلوب مني ذلك..

إذن الإنصات يعني ذلك أيضاً كما عبَّر عنه المفسرون: (الإنصات مع السكوت)، هذا السكوت أين محله؟ إنه السكوت لدى الفواصل، و(الاستماع) خاص بأثناء الكلام.

٢.الاستماع الشامل أثناء التلاوة

الاحتمال الآخر: هو الإنصات حتى في أثناء الحديث نفسه إذ الإنسان قد (يستمع)، وهو (يسمع) لآخر أو يتكلم، وأنتم يمكن أن تكونوا جرِّبتم ذلك.. فأنا جالس ومشدود بكلي للقرآن أي إنني استمع للقرآن وبدقة ولكن في الأثناء يكلمني أحدهم أو سألني سؤالاً فأقول له لا، أو أقول له نعم وأنا معرض بقلبي عنه ومنشد للقرآن الكريم.. هذا أيضاً خلاف (الإنصات للقرآن) أحياناً نُبتلى بشخص يُحدثنا ولا يُراعي أدب استماع القرآن الكريم، فذهنك أنت مشغول حقاً بالقرآن، ولكنك تُريد

أيضاً أن لا ترد هذا الشخص، فتجيبه بكلمة واحدة لا أو نعم وإن كان بشكل ميكانيكي.

إن هذا العمل ينبغي على الإنسان أيضاً أن لا يرتكبه، أو يقتحمه.. ﴿قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾، في الأثناء، وفي الفواصل أيضاً..

النبي يقرأ ثلث القرآن في مرضه

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

إن علينا أن نتعلم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللجوء إلى القرآن الكريم وقراءته والتدبر فيه والاستماع له والإنصات، في كل الحالات وفي مختلف الأزمنة.. وفي القصة التالية عظة بالغة:

فقد روي في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصيب بوعكة شديدة، فزاره شخص من الأصحاب، وقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في مضمون كلامه: إنك قد أصبت بمرض شديد أو وعكة شديدة، إنك لشديدُ المرض.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يعلمنا نحن: ما منعني ذلك من أن أقرأ ثلاثين سورة من سور القرآن بينها السبع الطوال..[1] ويبدو أنه كان ذلك في فترة قصيرة جداً ولعله كان في يوم واحد.

إن الإنسان وهو في حالة الصَّحة فكيف بحال المرض يصعب عليه عادة أن يقرأ (١١) جزءً تقريباً من القرآن.. ذلك أن السبع الطوال تبدأ بسورة

---

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج٦، ص١٩٢.

البقرة وتنتهي بسورة التوبة على رأي إذ أن (الأنفال والتوبة)، عدهما بعض العلماء سورة واحدة لأن فاصل البسملة غير موجود بينهما، إذ سورة التوبة لا تبدأ بالبسملة، والأنفال هي السورة السابعة، في الترتيب، وحيث لا يوجد فاصل بين السورتين عدّهما البعض سورة واحدة فالسبع الطوال هي: سورة البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأعراف، الأنعام، الأنفال، والتوبة معاً، أي إن (التوبة) هي السورة الثامنة ظاهراً، لكنها بهذا المقياس السابعة.. وهي أحد عشر جزءً من القرآن الكريم تقريباً، والنبي ﷺ قال: لكن ما منعني ذلك من ان اقرأ ثلاثين سورة من سور القرآن بينها السبع الطوال[1].. هذه تحتاج لأربع أو خمس ساعات على الأقل، والإنسان موعوك وشديد المرض، لماذا؟ لأنه ينتظر، ويستمطر رحمة الله سبحانه وتعالى بقراءة القرآن الكريم.. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ثم إن منطوق الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ وربما يستظهر منه فيما إذا كان القارئ غير الإنسان نفسه لكن قد يقال: بشمولها لما إذا قرأ الإنسان نفسه الآيات فعليه الاستماع والإنصات لتلاوته كما إذا سمعه من غيره، للإطلاق[2]، أو تنقيح المناط المسلّم، فتكون ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ مترتبة على الاستماع للقرآن والإنصات له سواء قرأه هو أم قرأه غيره..

---

(١) وهذه الرواية تدل على أن جمع القرآن تم في زمن الرسول الأعظم ﷺ إضافة إلى روايات أخرى وأدلة أخرى ذكرها الإمام الشيرازي في كتاب: متى جمع القرآن؟

(٢) فإن جملة الجزاء: «فاستمعوا له» مترتبة على «قراءة القرآن» و«قرئ القرآن» وهي مطلقة تشمل كلتا الحالتين والانصراف لو كان فبدوي.

لماذا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وليس (سترحمون)؟

وهنا قد يثار تساؤل: وهو لماذا قال الله سبحانه وتعالى لعلكم ترحمون؟ ولعل (للاحتمال والترديد) ولم يقل: وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا فإنكم سترحمون؟ وهذه للحتمية والتأكيد إذ يمكن أن يقال: كان ينبغي أن يكون هكذا لأن الله هو العالم، وأنا الجاهل ولا أدري في المستقبل ما يكون، فأنا أقول (لعل).. ولكن الله عالم بكل شيء، فلماذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؟

والإجابة على ذلك هي: لأن الاستماع إلى القرآن، والإنصات له، مقتضٍ للرحمة، وليس علة تامة لها.. فكل إنسان إذا استمع للقرآن وأنصت له يرحمه ولكن بشرطها وشروطها.. فإذا توفرت كل تلك الشروط، سترحمون حتماً.. لكن إذا لم تتوفر تلك الشروط، لعله يرحم هذا الشخص، أي بلحاظ حال هذا الطرف، وليس بلحاظ الله، وبتعبير آخر: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ هذه تعود للعبد وليس للمولى.

وبعبارة أخرى: لا تحتم على الله الرحمة لو قُرء القرآن فاستمعت له بدقة وإمعان، إذ ما أدرك ما الذي فعلت أو ستفعل بعدها؟ مما سيحبط الأجر ويبعد الرحمة. ومما يوضح ذلك أن (العمل) والالتزام بتعاليم القرآن، من الشروط، فلو استمع الإنسان للقرآن وأوامره ونواهيه وأنصت ثم خالف وعصى فهل سيُرحم؟

يبادل القرآن بديوان يزيد؟

السيد الوالد قدس سره[1] كان ينقل هذه القصة: كان هنالك رجل يبدو من الصالحين، وكان ملتزماً بقراءة القرآن الكريم، تلاوته، تجويده، والتدبر فيه، هذا الإنسان بعد فترة وجدوه قد انقلب تماماً، يكره ـ أعاذنا الله من ذلك ـ قراءة القرآن حتى في شهر رمضان، لا يتحمل حتى أن يرى آية من القرآن الكريم.. رغم إنه كان يعيش في جو ديني وكان في إحدى البلاد المقدسة، سئل لماذا؟

تهرب من الإجابة وقال: على أي تقدير ما عندي رغبة في الجواب.. ومضى يوم، يومان، وثلاثة.. وأصدقائه يلحون عليه بالسؤال.. ويطالبونه بالجواب.

وأخيراً قال: كنتُ حسب ما تعلمون محباً للقرآن الكريم، أطالعه، أرتله، أجوده، ولكن ذات يوم وكنت في (الحج) وأنا أحمل معي نسخة من القرآن الكريم، في الطريق وجدتُ شخصاً يبيع بعض الكتب في بسطة متواضعة وكان في تلك الكتب ديوان يزيد ـ وقد سمعت أن يزيد له ديوان وبه بعض الأشعار وهي من الناحية الظاهرية لها نوع من الجمال، وان كانت كلها ظلاماً في ظلام ـ قال: كنت راغباً جداً في أن أرى ديوان يزيد وما فيه، وما هي أشعاره؟.. فقلت للبائع (صاحب البسطة): بكم تبيعني ديوان يزيد؟

فقال: بهذا القرآن.. حيث رأى القرآن بيدي فرغب فيه قلت له: لا

(١) سماحة آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي قدس سره..

أبداً.. فأصرَّ عليَّ، وقال إذا لم تعطني القرآن، فأنا لا أعطيك الديوان.. فاستسلمت وعاوضت القرآن، بديوان يزيد ويا للأسى ويا للأسف إذ قد غضب الله علي فوراً، ومن تلك اللحظة سُلِبَ مني التوفيق تماماً. وشعرت بانعدام الرغبة لدي في قراءة القرآن الكريم بالمرة، بل أشعر بأن هناك حاجزاً بيني وبين القرآن أعاذنا الله وإياكم من ذلك وأشباهه.

هذه قصتنا...

كنت أفكر مع نفسي في هذه القصة، وأنها ليست قصة ذاك الإنسان المخذول فقط.. بل هي قصة الكثير منّا، فعندما يقرأ قارئ ما القرآن الكريم وأنا أشرّقُ وأغرّبُ، وأسرح بذهني هنا وهناك، فما هو الفرق بيننا وبين ذلك (المخذول) إذن؟ ذاك باع القرآن بديوان يزيد، وأنا أبيع كلام الله سبحانه وتعالى بحديثي العادي مع هذا الصديق حول السوق، أو حول المرض، أو حتى حول مسألة فقهية!

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

والحاصل: إن الإنسان إذا استمع للقرآن الكريم وأنصت له حقيقة فانه سيكون محطة لرحمة الله سبحانه وتعالى، والعكس بالعكس تماماً.

(الولاية) من شروط (الرحمة)

ومن الشروط في هطول أمطار الرحمة الإلهية: ولاية أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام)، إذ يقول رسول الله ﷺ في حديث أم

سلمة، والحديث متواتر من طرق الفريقين: **(علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا علي الحوض)**.[١]

والرواية بهذا المضمون مذكورة وبصور عديدة في كتب الحديث.. فـ**(علي مع القرآن)** ماذا يعني؟ وما مفاد هذا الحديث؟ **(علي مع القرآن والقرآن مع علي)** يعني إذا أبعدتَ علياًعليه السلام عن القرآن فقد ابتعدتَ أنتَ عن القرآن.. وإذا لم تتعرف على القرآن عن طريق علي وأهل بيته الأطهارعليهم السلام فأنت غريب عن القرآن وفهمه.

أوَليس الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله وسلم قد قال: **(أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها)**؟ وأي علوم النبي أعظم من علمه بالقرآن الكريم، فلو أردت (علم القرآن) فعليك بالإتيان من باب مدينة علم الرسول، قال تعالى ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[٢] وكلام النبيصلى الله عليه وآله وسلم دقيق جداً، **(علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض)**.. فمن ابتعد عن علي وسائر الأئمة الأطهارعليهم السلام فقد ابتعد عن القرآن قطعاً لأنهما متلازمان بنص كلام الرسولصلى الله عليه وآله وسلم فلا رحمة إلهية تشمله على الإطلاق، ومن ابتعد عن تفسيرهم للقرآن الكريم وبيانهم لشأن النزول والعام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ، فقد ابتعد عن القرآن الكريم وابتعد بالتالي عن رحمة الله تعالى.

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٢٢، ص٢٢٣. عن آمالي الشيخ الطوسي :ص٢٩٤..
(٢) البقرة: ١٨٩.

(الطريقية) للإنصات للقرآن الكريم

إن التأمل في الآية الشريفة، بعد ضمها لسائر الآيات الكريمة كقوله تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾.

والروايات كـ(رب تال للقرآن والقرآن يلعنه)[1]، وبشهادة العقل والارتكاز، يكشف لنا أن (الاستماع للقرآن الكريم والإنصات له) قد أخذ على نحو (الطريقية) للاعتقاد به فيما من شأنه الاعتقاد والعمل به فيما من شأنه العمل لا (الموضوعية).

فإن الأمر بـ(الاستماع) لنصائح المولى وإرشاداته وأوامره ونواهيه، يعني عرفاً وعقلاً الأمر بالعمل بما استمع له، لا صرف الاستماع بدعوى التبرك به دون عقد قلب واعتقاد ولا عمل وذلك وجهٌ هام لـ(رب تال للقرآن والقرآن يلعنه).

نعم، للاستماع للقرآن (مصلحة سلوكية) وفوائد و(أثر وضعي)، فإنه يبعث السكينة والاطمئنان في القلب، كما أنه يعد الإنسان للعمل، كما أنه يطيل العمر، ويزيد التوفيق، ويزيد في الرزق، وغير ذلك وكل ذلك بنحو الاقتضاء لا العلية كما هو واضح.

وإن الإنسان بالاستماع للقرآن يحرز بعض تلك الفوائد وإن لم يعمل بالمضمون إلا أنه سيخسر أكبر فائدة في ما إذا ترك العمل بمضامين القرآن نهائياً ولم يتب وهي: رضى الله ورضوانه والجنة، وسيكسب أكبر إثم وهو المخالفة عن علم وعمد.

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج٨٩، ص١٨٤، ح١٩.

كما أن الإنسان بالاستماع للقرآن الكريم والإنصات له، يكتشف الكثير الكثير جداً من الحقائق التكوينية والتشريعية، ومن الدروس والعبرة ومن سُبُل السعادة والفلاح والانتصار سواء على صعيد الحياة الشخصية أم العائلية، أم الحياة الاجتماعية العامة، سواء في البعد السياسي أم الاقتصادي أم الحقوقي أم غيره.

فإذا جعل الإنسان ديدنه (الاستماع للقرآن الكريم والإنصات له) والتدبر فيه بشروط التدبر فإنه سيستلهم ما لا يحصى من (الدروس) و(العبر) و(المواعظ) وستنكشف له الكثير من (الآفاق) و(الأبعاد) و(العلوم) الدنيوية والأخروية وهذا ما حاولنا بجهد متواضع أن نتمسك به في هذه السلسة من البحوث والتي أسميناها (دروس في التفسير والتدبر) والله الهادي العاصم وهو المستعان.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لكي نكون من المستمعين والمنصتين للقرآن الكريم ومن الذين يرحمهم الله برحمته في الدنيا والآخرة إنه سميع الدعاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

[١]

الهدف من (الخلقة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا، ونبينا، وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.[١]

(١) (الذاريات:٥٥ _ ٥٨)

الأسئلة الإستراتيجية الثلاثة

هنالك ثلاثة أسئلة مترابطة، متعاقبة، ترتبط بكل واحدٍ منَّا، بل؛ بكل إنسيّ، بل؛ بكل مَنْ كان من الجّانّ أيضاً..

السؤال الأول: لماذا خلقنا الله سبحانه وتعالى؟ ما هو الهدف من الخلقة؟ نحن لماذا أصلاً في هذه الدنيا موجودون؟ ما هي العلَّة الغائية من وجودنا في هذا العالم؟ هذا هو السؤال الأول: ما هو الهدف من الخلقة؟ ما هي الغاية من وجودنا في هذا العالم؟

السؤال الثاني: لماذا يجب أن نسأل لماذا خَلَقنا الله؟، السؤال الأول كان هو (لماذا خَلقنا الله)؟ وهذا السؤال هو: (لماذا يجب أن نَسال لماذا خَلقنا الله)؟

نحن طبعاً موجودون ولوجودنا غاية ننتهي إليها أو نُساق لها، أو نتَّجه إليها باختيارنا، سواء أسألنا، أم لم نسأل، فنحن موجودون، وهناك علَّة غائية لهذا الوجود، ولكن هل نكتشفها، أم نكون كما قال ذلك الشاعر:

جئت لا أعلم من أين لكنّي أتيت

ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت

وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت كيف جئت كيف أبصرت طريقي لست أدري

وبعبارة أخرى: ما هي الفائدة من معرفتنا للهدف والغاية من الخلقة؟

إن الله تعالى خلقنا وأعطانا قدرات، بل امتنَّ بها علينا، وطلب

منا استثمارها بما يُرضيه، ووجهنا للمسير في الأرض، والتفكر في الخلق، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.(١)

وذلك لأن الله سبحانه وتعالى أعطانا أدوات المعرفة، حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.(٢)

ولكن لماذا يتحتَّم علينا أن نتساءل؛ لماذا خلقنا الله؟ ولماذا أعطانا كل هذه القدرات، والآلات، والأدوات، التي تمكننا من اكتشاف دقائق الأمور، ومعرفة أسرار الخلق، من الذرة وما هو أصغر، إلى المجرة وما هو أكبر، فهل كان ذلك بلا هدف، أو بدون غاية وحكمة منها؟ والخالق سبحانه حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي هو أعلم بها من كل أحد من خلقه، خلقنا بهدف، وأعطانا الأدوات لغاية، وأمرنا بالتفكر والبحث عن الإجابة؟

السؤال الثالث: مَنْ هو الذي ينبغي أن نوجِّه له هذا السؤال ونطلب منه الجواب؟ هل نسأل الطبيب، أم نسأل السياسي، أم نسأل الفقيه، أم نسأل الأصولي، أم نسأل الفيلسوف، لماذا خلقنا الله؟ مَنْ هو الذي علينا أن نسأله حتى يُعطينا الإجابة الأتم، والأوفى، والأوفر؟

نحن نبدأ بالجواب عن السؤال الثالث، ثم الثاني، ثم الأول..

---

(١) (الملك: ١٥)

(٢) النحل: ٧٨

١ . مَنْ يملك صلاحية تحديد الهدف من الخلقة؟

إن الذي ينبغي أن نأخذ منه أدق وأشمل إجابة، وأعمق وأفضل إجابة، على سؤال: (لماذا خلقنا الله؟) والذي يمتلك الجواب الشافي الوافي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،على هذا السؤال، هو الله سبحانه وتعالى.. إذ أنه (الخالق)، والخالق مثلُ مَنْ صنع مصنعاً فإن علينا أن نسأله ما هو هدفك من تشييد هذا المصنع؟ لأنه الأعرف بكل تفاصيل وتضاريس هذا المصنع..

أو مهندس بَنَى مدينة، أو عالم ألّف كتاباً أو ما أشبه..

فأفضل مَنْ يجيب على (لماذا صَنَعْتَ هذه الماكينة، أو الآلة؟)، أو (لماذا هَندستَها بهذا النحو؟)، هو الصانع نفسه..

فخيرُ مَنْ يُسأل عن غاية خلقنا، هو الله جلَّ اسمه، وخيرُ مَنْ يُجيب هو الله، وقد أجاب الله سبحانه وتعالى مباشرة عن هذا السؤال..

هذا، مع الفارق الكبير؛ لأن المهندس، أو المصمم لا يعلم إلا الظواهر، ولا يملك إلا العلل المعدَّة، و(العلل الصوَرية) بل بعضها فقط، ولا يملك إيجاد (العلة المادية)، ولا يهيمن على المستقبل، ولا يعرف المفاجآت، ومطبات الغيب في المستقبل.. والله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، ومهيمن على كل الحياة فهو الخالق، (للمادة) و(الصورة)، وسلسلة العلل المُعدَّة وغيرها..

وفارق آخر؛ هو أن المهندس قد يُخطئ، في (التصميم)، أو يشتبه في تحديد (الهدف) الأفضل من هذا الإنتاج؛ أو حتى تحديد الهدف

الذي يُمكن أن يُحققه إنتاجُه، وهذا على العكس من الباري تعالى العالم بكل شيء، وعلمه محيط فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة، سواء كانت في السماوات العلى، أم الأرضين السفلى..

وبكلمة: إن الإنسان يبقى محدوداً مهما تعملق في فكره، فهو محدود بالتفكير، والاتجاه، والزمان، والمكان، والإمكانيات، والأدوات، والخالق سبحانه وتعالى، مُطلق وغير محدود في شيء من ذلك كله، ولا قياس أصلاً بين المُطلق في كل النواحي، والمحدود في كل شيء..

إذن مَنْ ينبغي أن يُسأل، ومَنْ هو الأفضل في السؤال وتلقي الإجابة منه؟

الإجابة: هو الله سبحانه وتعالى..

والسؤال الثاني: لماذا يجب أن نُحقِّقَ لماذا خلقنا الله؟

الكثير ربما يتصوَّر أننا سواء سألنا أم لم نسأل، فالأمر سيَّان، وأكثر الناس ـ للأسف ـ لا يدرون، وربما حتى أن كثيراً من الأفاضل لا يعلمون، الهدف الحقيقي من الخلقة؟ ولماذا خلقنا الله؟ وما هي فوائد معرفة الإجابة؟

وحسب تتبُعي أن هناك أربعة أهداف.. ذكر الله سبحانه وتعالى، ثلاثة منها في القرآن الكريم، والرابع مذكور في بعض الروايات الشريفة.. هي أهداف الخلقة..

٢ . لماذا تجب معرفة (الهدف) من خلقتنا؟

ولكن قبل مباشرة التعرف واكتشاف (أهداف الخلقة)، علينا أن نسأل: (لماذا علينا أن نعرف (أهداف الخلقة) ولماذا خلقنا الله؟ وما هي فوائد معرفة العلة الغائية من وجودنا؟) والإجابة على ذلك:

أولاً: كي ننجح في الحياة..

لأن الذي لا يعرف الهدف من الخِلقة، يُخفقُ في الحياة، ويفشل في الحياة، وبعد الممات، ويكون من الضائعين..

إن الفرق بين الضائع في الصحراء والذي يعرفُ الطريق، أو عنده خريطة تدلُّه على المقصود هو هذا، الضائع في الصحراء لا يعرف أين المَسير، والمسار، وأين المقصد، والغاية.. فإنه وإن علمها بوجه إجمالي، إلا أنه وحيث لم يعرفها تفصيلاً فقد يقصد (نقطة) في الصحراء يكون فيها هلاكه، والضائع يضيع فيفشل، ويخسر حياته، ويخسر قيمته، وقِيَمَهُ أيضاً..

وأما الإنسان الذي يعرف الهدف من الشيء فإنه ينجح عادة..

واللطيف أنه كان هناك تحقيقٌ علميٌ قبل فترة في إحدى البلاد، حيثُ عمدوا إلى مجموعة من الطلاب في المتوسطة، ربما كانوا خمسين طالباً أو أقل،أو أكثر، سألوهم ما هي أهدافكم في الحياة؟ فكان لبعضهم تصور واضح عن هدفه، أو أهدافه وهكذا أجاب أحدهم: أنا أريد أن أصبح طبيباً..

والثاني، قال: سأكون مهندساً..

والثالث، قال: بروفسوراً، وأستاذ جامعة؛ والرابع كذا، وكذا..

ولكن البعض الآخر لم يكن يعرف ماذا يريد، ولم يُحدد لنفسه هدفاً، فقال: سننتظر ونرى..

والمهم أنهم وثَّقوا تلك الأجوبة، وسجلوها، وبعد عشرين سنة رجعوا إلى تلك الملفات، وكلها محفوظة لتحقيقهم العلمي فوجدوا أن الذين كانوا قد حدَّدوا أهدافهم، وهم في المتوسطة، وصلوا إلى تلك الأهداف إلا ما شذَّ وندر منهم..

فالذي كان يعرف ماذا يُريد من الدراسة، والذي عنده وضوح في الرؤية لـ(الهدف).. وما هي الغاية من وجوده في المدرسة؟ وصل إلى هدفه الذي حدده من البداية..

وهذا هو الفرق بين مَنْ له هدف، ومَنْ ليس له هدف، فالذي كان عنده وضوحٌ في الرؤية وَصَلَ إلى مُبتغاه، فصار طبيباً، أو مهندساً، أو بروفسوراً، أو ما أشبه ذلك، والفاشلون مَنْ كانوا؟

كانوا أولئك الذين قالوا: لا ندري.. ونُفكر.. وبعد ذلك نرى الوضع؛ ونُحدد ماذا يكون.!!.

وهكذا أضاع مستقبله فلا صار تاجراً، ولا صار مهندساً، ولا غير ذلك..

فمن حدد لنفسه الهدف من البداية يصل إلى هدفه بالنهاية، ومن لم يحدد هدفه لم ينجح في الحياة، بل أضاع العمر في المتاهات.. اللهم إلا من (استدرك) منهم في مرحلة لاحقة وحدد أهدافه فإنه لعله يصل.

وهذا مثال مبسَّط للنجاح والفشل في الحياة.. فإننا إذا عرفنا الهدف من وجودنا في هذا الكون، وغايتنا في هذه الحياة، ولماذا خلقنا الله سبحانه وتعالى، فسنكون من الناجحين في الدنيا، وفي الآخرة، وإلا سنفشل في هذه الدار وفي تلك الدار أيضاً،لا قدَّر الله..

سر نجاح الشيخ الأنصاري رضي الله عنه

ومن الأمثلة على ذلك: والدة الشيخ الأنصاري رضي الله عنه، والدة الشيخ الأنصاري كان عندها هدف واضح بأن يكون ولدها الشيخ مرتضى الأنصاري العالم، الزاهد، الورع، المتقي من الطراز الرَّفيع، وهكذا صار فعلاً.. فالأم الحامل، أو مَن عندها رضيع وإن لم تضع لابنها هدفاً سيصبح ابنها إنساناً عادياً عادة، إلا لو وضع له شخص آخر هدفاً سامياً، أو كان هو ذا بصيرة ثابتة وطموح كبير، وعندما أُخبرت والدةُ الشيخ؛ بأن ابنك الشيخ مرتضى أصبح المرجع الأعلى للشيعة، وأن له كذا من الدَّرجات في الزهد، والورع، والتقوى..

فقالت: ذلك أمر طبيعي؛ لأنني عندما كنتُ حاملة به لم أقضِ ساعةً إلا وأنا متوضئة، وكنت أواظب على العبادات، والأذكار..وعنيتُ بتربيته وهو في المهد أفضل عناية.. ولعلها قالت: كنتُ أتوقع منه،وله أكثر من ذلك..

إذن عندها هدف واضح؛ هو أن يكون هذا الجنين، ثم الرضيع وليّاً من أولياء الله، ولعلها كانت تهدف أن يكون ولدها المرجع الأعلى للشيعة وهكذا صار فعلاً..

تقول: لم أكن إلا متوضئة.. ولم أنم إلا على وضوء، وكنت ذاكرة لله سبحانه وتعالى دوماً، ثم غَرَسَتْ هذا الهدف السامي في ذاته، فليس شيئاً غريباً أن يكون الذي كان، من العظمة، وعلوِّ الشأن..

فالذي يُحدد الهدف، والذي يكتشف الهدف، والذي يعرفُ الهدف، والغاية من الشيء يصلُ إلى الهدف، والغاية، وينجح في حياته.. والذي لا يعرف هدفه يضيع في هذه الدنيا..

من أصحاب الأهداف الكبيرة

السيد الوالد قدس سره[1] كان قد وَضَعَ هدفاً لنفسه ـ وكان هذا هدفاً من أهدافه ـ أن يُؤلِّف ألف كتاب.. وبالفعل وصل إلى هذا الهدف، وأكثر..[2]

وصاحب الجواهر (رضوان الله تعالى عليه) حدَّدَ لنفسه هدفاً؛ وهو أن يكتبَ أعظم موسوعة فقهية شاملة وجامعة، في التاريخ، وحقَّقَ هذا الهدف..

وفي المقابل تجد: أن شخصاً آخر عادياً كان أو عظيماً وهو لم يحدد مثل هذا الهدف فإنه لا يصل، بل قد لا يُحقق حتى ما يتناسب مع قدراته في حالة استثمارها بشكل عادي..

إذن قد اتضح لنا حتى الآن الإجابة على هذا السؤال: (لماذا يجب علينا أن نسأل أنفسنا أنه لماذا خُلقنا، ولماذا نحن هنا؟)

---

(١) هو سماحة الإمام آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي (قدس الله نفسه وعطر رمسه).

(٢) حيث بلغت إنجازاته العلمية ومؤلفاته حين وفاته إلى (ألف وثلاثمائة وخمسين كتاباً)..

لأنه إذا عرفنا الهدف من الخلقة سوف ننجح، وسوف نصل إلى ذلك الهدف.. وإلا فسنخفق ونفشل في مسيرة الحياة.. إن هذا هو السبب الأول، والوجه الأول لضرورة أن نكتشف السبب، والعلة، والغاية الكامنة، وراء خلقنا في هذه الحياة الدنيا..

ثانياً: أداءً للحق، وشكراً للنعمة..

إن الإنسان الذي يعرف الهدف، يستطيع أن يتحمل المسؤولية وأن يقوم بها.. والذي يعرف الهدف يستطيع أن يؤدي الواجب الملقى على عاتقه.. والذي يعرف الهدف يستطيع أن يشكر النعمة، يستطيع أن يُؤدي ما أُريد منه.. عكس مَنْ لا يعرف الهدف..

ومثاله الواضح لكم: أنكم إذا استقدمتم معلماً.. فإن كان هذا المعلم يعرف غايتكم وهدفكم من استقدامه، ويدري مثلاً أنكم تريدون منه أن يربي أطفالكم ليكونوا فقهاء، لتُعلمونهم الفقه مثلاً.. فالهدف أمامه واضح، وبمقدوره أن يسعى لتحقيقه من لحظة وصوله.. ولكن المعلم إذا جاء وهولا يدري ما هو الهدف من مجيئه؟ فإنه لا يدري بالتبع ما الذي عليه أن يُدرسه، وماذا يُدِّرس؟ هل يدرس الفلسفة، أو الفيزياء، أو الطب؟ ثم لعله لم يكن يدري أن عليه أن يُدرِّس مَنْ؟ هل الطفل الذي عمره عشر سنوات؟ أو الرجل الذي عمره خمسين سنة؟ فهذا المعلم لا يستطيع بطبيعة الحال أن يؤدي الواجب الملقى على عاتقه..

إن معرفتك الهدف؛ تُؤدي إلى مقدرتك على تحمُّل المسؤولية، والقيام بالواجب،قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

﴿وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1]

إن الإنسان الذي لا يعرف (ماهية الأمانة) والهدف من الأمانة، فإنه سيضيعها دون شك، بقصوره، وتقصيره، أو تغافله.. بالتعبير الأدق، وإنما عبّرنا (بتقصيره) لأن (الأمانة) مركوزة في أعماقنا، وقد عجنها الله تعالى بفطرتنا التي فطرنا عليها، وقد تطرقنا لتفصيل بعض ذلك في كتابنا (فقه التعاون على البر والتقوى)[2] فراجع إن أردت التفصيل أكثر..

إذن أداءً لحق تلك النعمة علينا، وشكراً لتلك النعمة، علينا أن نعرف الهدف من الخلقة..

٣. أهداف الخلقة

وأما السؤال الأول: لماذا خلقنا الله؟ فالجواب عليه هو: أن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ـ بحسب تتبعي الناقص ـ أعطانا ثلاثة أجوبة، والنسبة بين هذه الأجوبة وهل هي العموم والخصوص من وجه، أو العموم والخصوص المطلق، أو غير ذلك؟ ربما نذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى..

(١) (الأحزاب:٧٢)

(٢) فقه التعاون على البر والتقوى: ص٣٢٨ مبحث (تحقيق القول في الفطرة)..

(العبادة) هي أول الأهداف..

الآية الأولى: وهي تُحدِّد الهدف الأول، بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١] إن الله سبحانه يصرِّح، بأنه جلَّ اسمه لم يخلقنا وكل ما جنَّ واستتر إلا لأجل (العبادة)، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.. هذا هو الهدف الأول والذي سنبحثه بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى..

(العلم) هو ثاني الأهداف..

الآية الثانية: والهدف الثاني مذكور في آية قرآنية ثانية وخلاصته وإيجازه (العلم).. حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[٢].. هذا هو الهدف الثاني من الخلقة. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، هذا هو أصل الخلقة.. وبعد ذلك يكون التدبير..

فعندنا خَلق أولاً، ومن ثم التدبير.. ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، والهدف للاثنين، أي لأصل الخلقة، ثم للتصرف وللتدبير، هو؛ ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾..

إذن الهدف الثاني من الخلقة: هو (العلم) ولكن أي علم؟ وما هي حدود هذا العلم؟ وهل هو خاص بعلم الشريعة، أو هو عام وشامل

(١) (الذاريات: ٥٦)

(٢) (الطلاق: ١٢)

للعلوم الأخرى كالفيزياء، والكيمياء، والفلك، والجيولوجيا.. وغيرها من أنواع العلوم.. وهذا ما سنبحثه في وقت آخر بإذن الله تعالى..

(الرحمة) هي الهدف الثالث..

ويوجد هدف ثالث مشار إليه في آيات القرآن الحكيم، وهو(الرحمة) وقد ذُكر في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.[1]

وهدف رابع جاء في رواية الإمام الحسين عليه السلام ونتطرق له لاحقاً وفي مكان آخر إنشاء الله..

«مادة» (ليعبدون) و«صيغتها» ، تدلان على الهدف من الخلقة..

ولنبقَ في حَرَمِ الآية الأولى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾..

ولنُركِّز على كلمة ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾.. فالمُتأمل يجد؛ أن في كلمة ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ عندنا (مادة)، وعندنا (هيئة).. وكما أن المادة تفيد المقصود، كذلك الهيئة فإنها تفيد (المقصود) أيضاً.. أي أن المادة تُحدد (الهدف) والهيئة كذلك، وهذا هو اللطيف في الآية..

إن الآيات القرآنية جداً دقيقة.. فالحرف القرآني الواحد بحساب وبميزان، بل المد بحساب وبميزان.. وفي وقت سابق كتبتُ ـ في بحثنا الأصولي حول (الحُجَّة) ـ بحثاً حول (الفلسفة من قواعد التجويد)،

---

(١) هود : ١١٩

وفيما يرتبط بعلم الفقه، وهو في الواقع كان يعدُّ نوعاً من الاستطراد على حساب المنهج العرفي الأصولي، ولذا تركته..

فـ(المَدُّ) مثلاً؛ ما هي فلسفته، وما هو الهدف منه في القرآن الكريم؟

و(الإدغام) ما هو الهدف منه؟

إذ أن علم (التجويد) عادة يذكر لك كيف تُجوِّد، وكيف تُرتل، وأين تقف، وأين تدغم، وأين تصل.. الخ. ولكن ما هي الفلسفة من ذلك؟ هل هي الجمال فقط؟ كلا، ليس الجمال فقط، بل هناك شيء آخر وراء الجمال، هو أكثر عمقاً ودلالةً.. وهذا ما سوف نذكره في محله، بإذن الله تعالى..

وهنا ـ في هذه الآية الشريفة ـ (المادة) تُحدد الهدف من الخلقة الذي هو (العبادة)، و(الهيئة) وهي صيغة المضارع تُحدده أيضاً..

ماذا تعني العبادة؟

أما المادة فهي (العبادة)، (وما خلقتُ الجن، والإنس) إلا للعبادة، هذه المادة.. ولكن ماذا تعني العبادة؟

إن (العبادة)؛ هي غاية التذلل والخضوع.. وهذا هو الذي يريده الله تعالى منا..

الله خلقنا للعبادة، فأنت تستقدم معلماً لماذا؟ حتى يُدرِّسَ أطفالك، وإذا لم يُدرس، تطرده.. والله خلقنا لماذا؟ حتى (نعبده).. فإذا لم نعبده كما يجب، فسوف يكون المصير إلى النار ـ لا سمح الله ـ وهذا هو

الفشل الحقيقي في مسيرة الحياة..

و(العبادة) كما قلنا؛ هي غاية التذلل، وليس فقط (التذلل)، وإنما هي (غاية التذلل..فهذا الجانب (الكيفي) يجب أن نلاحظه، الله يُريد منا غاية التذلل.. أي يُريد من كل واحد منا أن يسعى لكي يكون مثل سلمان المحمدي، هذه هي غاية الخلقة..

الفرق بين ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ و﴿ٱسْتَطَعْتُمْ﴾..

نعم؛ إنه ليس من الواجب علينا بلوغ مثل هذه الدرجة، ولكنها مرتبة من مراتب الهدف من الخلقة، وهي مطلوبة إلا أن الله تعالى خفَّفَ علينا، فماذا قال؟

قال:﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾(١)

ولو أنه سبحانه وتعالى اقتصر على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٢)

لكان الأمر صعباً جداً، إذ أن (تقوى الله حق تقاته) مما دونه خرط القتاد، ومما تتزلزل منه الجبال الرواسي، إلا أن الله سبحانه، وبرحمته، وبفضله خفَّفَ علينا، فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.. إذ مَنْ ذا الذي يستطيع أن يعمل بـ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾؟

---

(١) (التغابن:١٦)

(٢) (آل عمران:١٠٢)

بهذه اللفتة الدقيقة؛ لعل السيد الوالد رَحِمَهُ اللهُ كان يوضح الفرق بين الآيتين الشريفتين.. أي أن الله أولاً صَعّد، لأن ذلك هو الهدف الأسمى.. الله يريد منّا أن نتقيه حقَّ تُقاته.. إلى درجة أن لا يخطر ببالنا حتى مُجرَّد التفكير بالمعصية، فالتفكير بالمعصية ينبغي أن لا يخطر بالبال إطلاقاً.. وأن الإنسان عليه أن لا يعصي أبداً، وأن لا ينظر إلى امرأة أجنبية ـ لا سمح الله ـ أو يستمع إلى غيبة، أو يغتاب، أو يتّهم، أو أن ينّم، أو أن يحسد، أو يحقد، أو ما أشبه ذلك ولو لمرة واحدة.. أو أن يكون في عمله رياء، أو عُجب أو ما أشبه.. ولو بقدر جناح بعوضة.

إنه سبحانه وتعالى يُريد منا ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، هذا هو هدف الخلقة.. ولذلك قال الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في تفسير الآية الشريفة، عندما سئل عنها: (**يُطاع ولا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر ولا يُكفر**..)[1] فلاحظ المعنى الشامل والعميق لـ(**يذكر فلا ينسى**)..

إذ إنه يغطي مساحة عمر الإنسان كله.. كل يوم يوم.. وكل ساعة ساعة.. بل كل ثانية ثانية.

ثم لاحظ المعنى الشمولي والدقيق لـ(**يشكر ولا يكفر**) فمن ذا الذي يستطيع أن يشكر الله حق شكره.. على كل نعمة.. وحركة وسكون.. بل هل يوجد من يستطيع إحصاء نعم الله تعالى حتى يشكره عليها تفصيلاً؟

ولكن بعد ذلك خفَّفَ علينا، حيث أن التفكير في المعصية، مثلاً لا عقوبة عليه، أي العقوبة على النية مرفوعة.. وبعد أن خفف الله سبحانه وتعالى، قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.. بناء على أن المُراد من

(١) راجع تفسير الصافي للفيض الكاشاني في تفسير الآية..

(الاستطاعة): ـ والله العالم ـ ليس منتهاها، والمعنى الدقيق الحقيقي لها، بحيث لا يكون وراءها قدرة واستطاعة، وإلا لكنا وقعنا في أشدِّ العَنَت، والنَصَب وإن كان ذلك عند أولياء الله ألذُّ من اللذيذ، وأحلى من العسل المصفى بل المُراد الاستطاعة العرفية، أي قدر الوسع والطاقة.. فتأمل.

وهذا المعنى الذي ذكرناه في الفرق بين الآيتين، هو الذي قد يقتضيه التدبر في الآيتين، وهو الذي تدل عليه بعض الروايات، فقد سُئل أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام عن قوله تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[1] قال: ((**والله ما عمل بها غير أهل بيت رسول الله، نحن ذكرنا الله فلا ننساه، ونحن شكرناه فلن نكفره، ونحن أطعناه فلم نعصه**) فلما نزلت هذه قالت الصحابة لا نطيق ذلك، فانزل الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[2]).[3]

هل هو نسخ أو تخصيص؟

وبذلك يظهر لك وجه النظر فيما ذكره البعض[4] في رد ذلك، ولذلك تفصيل لا مجال هنا لذكره لكن نشير إشارة: إلى أن هذا المعنى الذي استظهرناه لا يعني (النسخ) إذ لا مانعة جمع بين المعنيين، فإن المطلق والمقيد المثبتين لا يقيد أحدهما الآخر، أو يقال (النسخ) تخصيص في

---

(١) (آل عمران: ١٠٢)

(٢) (الطلاق: ١٦)

(٣) تفسير البرهان ذيل الآية الشريفة ونقله عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع.

(٤) ومنهم صاحب تفسير الميزان.

الأزمان، والآيتان ليستا من هذا القبيل، بل تخصيص في المراتب أو فقل لا وجوب لبعضها، أو يقال: التخصيص بلحاظ الأفراد فتبقى آية ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ على إطلاقها بالنسبة للمعصومين وتقيد في حق غيرهم بـ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ والله العالم ونضيف أنه لا خوف من الالتزام بنسخها بعد تصريح علي ابن إبراهيم القمي في تفسيره بنسخها ووجود روايات أخرى كما فيما رواه الطبرسي وغيره فراجع البرهان وغيره.

وإننا نجد: إن الله سبحانه في هذه الآية، يصرِّح بـ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾.. والعبادة هي بنصِّ اللغويين والمفسرين؛ غاية التذلل والخضوع.. فهذه هي الغاية من خلقتكَ؛ فإن شئتَ فاسعَ لتكون ممن يعبد الله ويتقيه ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، وإن شئت فكن ممن يعبد الله ويتقيه (حسب استطاعته)..

ومن الواضح أن من يهدف عبادته (حق عبادته) لا يمكن بل يستحيل عليه ذلك إذا لاحظنا الوجه الذي يلي الرب من ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾؛ نعم يمكن ـ ولكن بأشد أشد المشقة ـ إذا لاحظنا الوجه الذي يلي الخلق من ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.. وهكذا كان رسول الله ﷺ أعبد خلق الله، وذلك من أسرار تقديم (عبد) على (رسول) في (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله).

نموذج من عبادة رسول الله ﷺ

والحقيقة أن الواحد منا قد يستغرب، حين يقرأ؛ أن الرسول الأعظم ﷺ، الذي كانت على عاتقه أكبر مسؤولية عالمية، بل كونية، وهي مسؤولية تنوء بحملها الجبال الرواسي.. ومع ذلك كان يُصلي كل

الليل تقريباً.. والغريب في الأمر كما تعلمون أنه كان يقفُ على رؤوس أصابعه لساعات وساعات، وربما الليل كله تقريباً، تواضعاً لله سبحانه وتعالى، وكنتُ أقرأ ذلك في تفسير (نور الثقلين، أو البرهان)، وفي البحار: أن النبي ﷺ كان يُصلي الليل بهذه الطريقة، ولكن بعد ذلك الله سبحانه خفف عنه، فقال له: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[1]

لنتوقف عند نص عبارة أمير المؤمنين، ومولى الموحدين، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، في وصفه لرسول رب العالمين، بقوله: (ولقد قام رسول الله عشر سنين على أطراف أصابعه، حتى تورَّمت قدماه، واصفرَّ وجههُ، يقوم الليل أجمع، حتى عُوتِبَ في ذلك، فقال الله عز وجل: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ بل لتسعد)..[2]

وفي آية أخرى، قال تعالى لنبيه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ مَنْ يقومُ من الليل حتى ربعه، أو ثلثه، أو عشره؟ ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾، ثم إن الله تعالى خفف عليه، فقال له: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾[3]

إنه ﷺ كان يعلم الغاية من الخلقة وأنها هي هذه (العبادة).. وأن النجاح ـ حقَّ النجاح ـ في الحياة الدنيا والآخرة بذلك.. فكان ﷺ يعبدُ الله واقفاً على رؤوس أصابعه..

وكما قرأنا في رواية البحار السابقة، وفي الخرائج[4]، أن

---

(١) (طه: ٢)

(٢) البحار للشيخ المجلسي: ج١٠ ص٤٠، وكثيرة هي مصادر الحديث، في كتب الأصحاب..

(٣) (المزمل: ١ـ٤)

(٤) الخرائج والجرايح، للراوندي: ج٢، ص ٩١٧..

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان على هذه الحالة عشر سنين كاملة.. الليل تقريباً بأكمله يُصلي وهو واقف على رؤوس أصابعه، حتى تورَّمت قدماه واصفّر وجهه الشريف..

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قوي البُنية جداً، ومع قطع النظر عن الجانب الغيبي، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان من الناحية الظاهرية صحيح الجسم، وفي منتهى القوة؛ يعني أنه (صلوات الله عليه وآله) كان بطلاً بما للكلمة من معنى؛ بحيث أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهو مَنْ لا يقف الكون في مقابله لو أراد كان يلجأ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يقول هو (عليهما الصلاة وأزكى السلام) في نهج البلاغة: **(كنا إذا احمرَّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)**..[1]

فالنبي إذن كان قوي البنية، وقوي الشكيمة، وكانت بطولته وقُدُراته لا تتصور أصلاً.. ولكن مع ذلك ولعشر سنين كاملة، كان يقوم الليل تقريباً بأكمله، على أطراف أصابع قدميه، حتى تورمت قدماه واصفر وجهه.. لماذا؟ لأنه يعرف هذه الغاية من الخلقة، وأنها (العبادة لله الواحد القهار)، ولذلك وسمه الله بسمة (وأشهد أن محمداً عبده)، فهذا المقام؛ هو ما يريده الله سبحانه وتعالى.. وبعد أن صار (عبداً لله) بما للكلمة من معنى، صار (رسولاً له)، وخاتماً لأنبيائه ورسله (عليهم جميعاً سلام الله)..

وذلك لأن مقام (العبودية) لله، أسمى من مقام (الرسالة).. والرسالة فرع لذلك الأصل.. لأنه ارتقى في هذه المرتبة، جعله الله رسولاً، وإلا

(١) البحار للشيخ المجلسي: ج١٦، ص ١١٧، وشرح النهج للشيخ محمد عبدة: ج٤، ص٦١..

ما كان يستحق أن يكون رسولاً، إلا بتمحُضه في العبودية لله سبحانه وتعالى، والتي جعلها الهدف من الخلقة، بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾..

ونؤكد مرة أخرى؛ أن مادة (العبادة) تدل على غاية التذلل، والخضوع لله تعالى.. ونحن ـ للأسف ـ في الصلاة غافلون؟ إن الواحد منا عندما يصلي يخاطب الله، ولكن ذهنه يُشرّق، ويُغرّب هنا وهناك، إلى هذا الشيء، أو ذاك المكان، فأية عبودية هذه؟ وهل العبد مَنْ يغفل عن الله لحظة واحدة؟

العابد والرَّمانة

ذلك العبد المنقطع في الجبل كان يعبد الله سبحانه وتعالى ليل نهار، وكانت توجد شجرة رمان هنالك،وعلى مقربة منه أو مبعده الله العالم فللسحور كان يذهب ويقتطف رمانة ويأكلها، وكان هذا سَحوره، رمانة واحدة فقط، وللإفطار كان يقتطف رمانة أخرى ويأكلها وكان هذا إفطاره..

مَنْ منّا يستطيع أن يقتصر على ذلك حتى أسبوعاً واحداً فقط؟

أكله هذا، لا خبز، ولا رز، ولا أي شيء ثاني، رمانة، ثم رمانة أخرى.. وعلى ما في ذهني في الرواية استمرَّ على هذه الحال سبعين أو خمسين سنة ـ على ما يخطر بالبال الآن ـ سبعين سنة أو أقل يعبد الله بهذه الطريقة.. ليل نهار منقطعاً إلى الله إلا بقدر أكل رمانتين فقط في اليوم الواحد..

بعد ذلك فكَّر في نفسه أنه قد أدى حقَّ الله سبحانه وتعالى عليه، تصوروا، خمسين أو سبعين سنة شخص يعبد الله ليل نهار، والعبادة حقيقة صعبة، جربوا، حاولوا أن تقضوا ليلة كاملة في العبادة، لا يدعكم الشيطان تفعلون ذلك، الإنسان ينعس، وربما ينام، أو لا أقل يغفل، ويتشتت ذهنه. هذا العبد ولعشرات من السنين كان منقطعاً للعبادة، ولكن ما أن خطر بباله هذا الخاطر، (قد أديتُ حقَّ النعمة، وحق الله)، الله سبحانه فوراً أدَّبه، فأوحى الله إلى نبي من الأنبياء أن قل له: ما أديت حق رمانة واحدة، لعقود من الزمن يعبد الله، ويأكل في كل يوم رمانة واحدة، وبعد ذلك، يُقال له: (رمانة واحدة ما أديت حقها)، فأي شيء نحن، ومَنْ نحن؟ وأين نحن؟

قال ربنا سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.(١)

نحن محض الفقر الى الله، وليس شيء له الفقر، بل محض الفقر إلى الله، إن هذا الفقير يحتاج إلى الله في كل شيء، في كل حركة، وسكنة، ونظرة، وقيام، وقعود، ومع ذلك يتكبر، ويطغى، ويتجبر، ويعصي الله سبحانه وتعالى ـ والعياذ بالله ـ ويتقاعس عن نصرة أولياء الله.. يتقاعس عن (سامراء)، يتقاعس عن (البقيع)، يتقاعس عن خدمة أهل البيت عليهم السلام.. فهل نحن عبيد؟

العبد هو الذي ينصر مولاه.. بل يتفانى في نصرته، هل رأيتم عبداً موجوداً في البيت، ومولاه يهاجمه الأعداء وهو ساكت، لا يُحرِّك ساكناً

---

(١) (فاطر:١٥)

أو هو مشغول بالأكل والاستحمام.. هل هذا عبد، أم هذا أكبر مجرم؟

ونحن أقدس مقدساتنا تُنتهك، وأولياء النعم، يَتجرأ عليهم القاصي والداني، وأنا أمشي طبيعي، أذهب طبيعي، آتي طبيعي، لماذا؟

دلالات هيئة فعل المضارع في الآية الشريفة

وبعد ذلك نأتي (للهيئة): لاحظوا لماذا الله تعالى، لم يقل: (وما خلقت الجن والإنس إلا للعبادة)؟ أي لماذا لم يستخدم (المصدر).. ولماذا لم يستخدم (اسم الفاعل)، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليكونوا لي عابدين).. وعابد أيضاً يفيد نفس المعنى.. وإنما استخدم الله تعالى صيغة الفعل المضارع، لماذا؟

لان هذا الجزء، هذا الهدف من الخلقة، أن العبادة تتجدد آناً فآناً في حياة الإنسان، يعني حتى الثانية الواحدة ينبغي أن لا يكون الإنسان خارجاً فيها عن زِيِّ العبودية، وعن فعلية العبودية.

فـ(الفعل المضارع) يدلُّ على التجدد.. وأما المصدر فهل يدل على ذات الشيء الذي دلَّ عليه الفعل المضارع؟

كلا؛ فالمصدر لا يدل على الاستمرار، ولا الاستمرارية، إذ لو قال: (وما خلقت الجن والإنس إلا للعبادة)، لصدق ذلك علينا ونحن الذين لم تستغرق العبادة حياتنا، أي يصدق على (مَنْ عَبَدَ الله في الجملة).[1]

---

(١) الكلام في الدلالة على الاستمرارية وعدمها، بلحاظ الكلمة نفسها، وهي (يعبدون، أو العبادة،أو عابدون) لا من حيث دلالة الجملة، فإن الجملة (وما خلقت..إلا ..) بنفسها دالة على الحصر في أية صيغة كانت (مادة) وما بعد (إلا) فتدبر جيداً.. وبعبارة أخرى: الدال على الاستمرار

أو لو قال: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليكونوا عابدين)، فإن اسم الفاعل يصدق مع العبادة في الجملة.. مثل (النجار)، النجار يصدق عليه نجار وهو يقوم بالنجارة أحياناً فقط، وفي الجملة باليوم ساعتين أو خمس ساعات.. وكذلك (البقال) وما أشبه.. أي مما يكفي في صدق العنوان (التلبُّس) في الجملة، لكن الله لا يكتفي بذلك، و﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾، حتى يعبدون (بالجملة)، لا(في الجملة) أي بشكل مستغرق، لا إجمالاً..

يعني؛ لحظة، بلحظة (يعبدون)، وهذا يعني أنني إذا لحظة واحدة جلست في مجالس البطالين- والعياذ بالله من أن رجل الدين والمؤمن يجلس في مجالس البطالين حتى إذا لم تكن معصية ـ أي يُضيِّع وقته ـ فهذا خلاف الهدف من الخلقة..

الله خلقني حتى ألعب؟ كلا؛ هذا خلاف الهدف من الخلقة.. هذه اللحظة الإنسان مُحاسب عليها، إذ (في حلالها حساب)، بل ومُعاتب عليها، بل ومُعاقب عليها.. في الجملة، وأنت يجب أن يكون أمير المؤمنين الإمام علي (عليه صلوات المصلين) نصب عينيك دائماً حيث قال: (**فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ؛ كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَ تَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ..**)(1)

أمران هما: الحصر المستفاد من (ما) و(إلا).. وهيئة فعل المضارع..

(١) نهج البلاغة: كتاب (٤٥)، كتابه عليه السلام لصاحبه عثمان بن حنيف عامله على البصرة..

نعم العقاب على (إهمال اللحظات) منحصر فيما كان هنالك واجب كفائي، لم يقم به فيه الكفاية..والوضع الآن كذلك إذ أن (نصرة أهل البيتعليهم السلام) و(الدفاع عن المظلومين)، واجبان كفائيان، فإذا لم يقم بهما مَنْ فيه الكفاية فيأثم الجميع بالترك، فاللازم على ذوي الألباب (استغراق) العمر بأيامه.. وساعاته.. ولحظاته في النُصرة، والدفاع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فالفعل المضارع يدلُّ على التجدد آناً فآناً.. والمطلوب من الإنسان أن يعبد الله سبحانه وتعالى كل آن..

من أسباب استغفار النبيصلى الله عليه وآله وسلم

ولعل هذا من أسرار استغفار النبيصلى الله عليه وآله وسلم.. إذ يقولصلى الله عليه وآله وسلم: واني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة من غير ذنب..[1] لماذا؟

السيد الوالد رحمه الله كان، يقول: بأن المعصية من النبيصلى الله عليه وآله وسلم مُستحيلة، نظراً لحكمته، ومعرفته مقام صانعه، وشدة ورعه، وعصمته (فإن الاستحالة ليست ذاتية، بل وقوعية) فالمعصية لا تقع منه وهذا واضح، والمكروه لا يقع منه كذلك، وترك الأولى كذلك لا يقع منه، و(الاستغفار) إنما هو عن (القُصور)، إذ أن النبي ولأنه بشر يضطر لينام، ولو كان نومه قليلاً جداً، ورغم أن الله سبحانه رخَّص له، وقال له: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، ولكن النبيصلى الله عليه وآله وسلم يُحسُّ بالقصور تجاه الله

(١) راجع الكافي للشيخ الكليني: ج٢، ص٤٥٠..

تعالى، فالله خلقني لكي أكون عابداً له في كل آن، فكيف إذن أنام؟

وحتى الثانية الواحدة من النوم، وهو عبادة أحياناً كما تعلم: لأن نوم العالم عبادة[1] ـ فكيف بنوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان (تنام عينه ولا ينام قلبه الشريف) وهو أعلم العلماء، وكان ينام متوضئاً، وكان ملتزماً بسائر مستحبات النوم.. فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى نومه يحوله إلى عبادة بخمسين عنواناً.. ولكن (المرتبة الأعلى) من العبادة أو الاستغراق في (العبادة) بالمعنى الأخص طوال الـ(٢٤) ساعة، فهو يعتذر إلى الله منها، لأنه لا يقدر على العبادة أكثر من ذلك.. لا كماً.. ولا كيفاً.. ولا جهة.. وإلا لكان فعل دون شك.

القُصور نفسه يحتاج إلى اعتذار..

ومثاله الواضح: شخص رجله مكسورة وقد جُعلت في الجبس، فماذا يفعل؟ عندما يزوروه الناس، يعتذر منهم لأنه جالس أو مستلقي، لا يستطيع الوقوف، أو لأنه ممدد ورجله المكسورة أمامهم، فيحسُّ بالحرج فيعتذر منهم، مع العلم أن هذا قصور وليس تقصيراً.. ولكن هناك مجال للاعتذار..

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لماذا يستغفر من غير ذنب؟ (للقصور)، لأنه يعلم أن الله خلقه لأجل العبادة.. وأسمى درجات العبادة، وأعمق معاني العبادة كيفياً.. ومن الناحية الكميَّة العبادة آناً، فآناً، وحيث أنه لا يقدر على العبادة آناً فآناً أي بأسمى درجاتها في كل آن، لأنه بشر، فيعتذر من الله سبحانه

(١) البحار للشيخ المجلسي: ج٦٨، ص٣٠٨..

وتعالى، ويستغفر الله سبحانه وتعالى، (وإني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة، من غير ذنب)[1]..

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . .

إذن الهدف من الخلقة حسب هذه الآية القرآنية الكريمة، هو عبادة الله سبحانه وتعالى بهذا المعنى..

(كيفياً): بأن تكون عبادته غاية العبودية والتذلل..

و(كمياً): في كل آن..

و(جهةً): عبادة خالصة من كل شائبة بل محض القربة لله تعالى وذلك لمكان الضمير في (ليعبدون)..

فإذا جعل الإنسان هذا المعنى في باله، واستحضره في ذهنه، وجعل هذا الهدف من الخلقة نصب عينيه دوماً، صدقوا بأن وضعنا سوف يتغير مئة بالمئة. وسيتحول الإنسان إلى إنسان آخر.. إلى إنسان ثاني، أسمى.. فأسمى.. فأسمى..

فإذا كان الإنسان (صالحاً) سيكون أفضل، فأفضل، فأفضل، وإذا كان الإنسان ـ ذاك البعيد ـ يجترح أحياناً ولو أحياناً، بعض المعاصي الصغيرة، فإنه سيتغيَّر تغيُّراً جوهرياً بإذن الله، وببركة الصلاة على محمد وآل محمد.

---

(١) الكافي الشريف: ج٢، ص٤٥٠، وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله في كل يوم سبعين مرة من غير ذنب).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

[٢]

العبادة تشريفٌ لا تكليف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]

---

(١) (الذاريات:٥٦)

دروس وإضاءات في الآية الكريمة

يمكن أن تُستفاد من هذه الآية الشريفة، مجموعة دروس، كما تُستفاد منها مجموعة من المطالب، والإضاءات.

والدروس هي أولاً: (تحديد الهدف) وثانياً: (الوضوح في الهدف) وثالثاً: (سمو الهدف) ورابعاً: معرفة (الهدف من الهدف) أو (فلسفة الهدف).. وإليكم بعض التوضيح.

أولاً: تحديد (الهدف) في الحياة

الدرس الأول: هو ضرورة تحديد الغاية والهدف من أي عمل، أو موقف، أو قرار، أو أخذ أو عطاء، أو قبول أو رفض، بل في أية حركة وتصرف من تصرفاتنا، وفي كل سكنة، بل حتى مثل (الأكل) و(النوم) لابد من أن يحدد لهما الإنسان هدفاً، وبالهدف سيتلوّن (النوم) ليكون (عبادة)، أو يكون مجرد (عمل مباح)، بل حتى ليكون مقدمة حرام أيضاً لا سمح الله..

إن الله سبحانه وتعالى قد حدَّد الهدف والغاية من الخلقة بوضوح، بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.. فنتعلم من هذه الآية الشريفة الدرس الأول في الحياة، وهو (تحديد الغاية) و(تعليل الأفعال)..

فعندما يأتي الطالب للحوزة العلمية المباركة عليه أن يُحدد (الغاية)؛ لماذا ينتمي إلى هذه الحوزة العلمية المباركة؟ هل ليصبح مفكراً؟ أو ليصبح مربياً؟ أو ليصبح مؤسساً؟ أو ليصبح مبلغاً؟ أو لغير ذلك؟ فالغاية يجب أن تُحدد.. وكما أن الطالب مسؤول عن تحديد هدفه أو أهدافه،

كذلك يقع جزء من المسؤولية على (الأساتذة) وعلى (الإدارة)، فإن على الأستاذ وعلى الإدارة أن تتفاعل مع الطالب لكي تكتشف: أن نفسيته تنسجم مع أي هدف وقدراته توصله لماذا؟ و(الضرورات) المرحلية والإستراتيجية، تقتضي ماذا؟ فهل هذا الطالب يُصلح أن يكون مبلغاً، أم مفكراً، أم مربياً، أم مؤسساً، أم محققاً أم مرجع تقليد؟ أو أنَّ الأولى له، أن ينصرف إلى مجال آخر؟

الشيخ الإسلامي مؤسساً

المرحوم الشيخ عباس علي الإسلامي قدس سره في قصة مُفصَّلة، وهو رجل دين، من الناحية الظاهرية عادي، ولكنه حدد لنفسه هدفاً وهو أن يكون (مؤسساً).. ومن النمط الرفيع.. فطوال خمسين سنة هذا الرجل، الذي لم يكن يسنده أحد، إلا الله سبحانه وتعالى، وإلا هِمَّته الرفيعة.. هذا الرجل استطاع أن يُؤسس (ثلاثمائة مدرسة)!!.. في خمسين سنة أسس ثلاثمائة مدرسة!.. أي في كل سنة (ست مدارس).. أي كل شهرين مدرسة.. ولا يعرف صعوبة ذلك إلا من جرب تأسيس مؤسسة واحدة ليعرف كم من الجهد والأعصاب والوقت، يستنزف تأسيس مؤسسة واحدة؟

إن هذا رقم خيالي في منطق رجل الدِّين العادي، الذي ليست له ثروة، وليست له مرجعية، وليست له تلك الشخصية المميزة والمعروفة.. رجل واحد، ولأنه حدّد الهدف، وتسلح (بالتوكل على الله تعالى) واستعان بالتوسل بالرسول وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، استطاع أن يؤسس ثلاثمائة مدرسة.. وهذه الثلاثمائة مدرسة ربَّت خمسين ألف طالب.. وهذا

العدد هائل.. وغريب فعلاً.. والأغرب إنه تعرض للملاحقة والسجن ليكف عن ذلك.. لكنه استمر.. نعم.. لقد سجن ثمانية وخمسين مرة!! ولم يتراجع.. وحكم عليه بالإعدام تسع مرات كما نقل كل ذلك السيد الوالد قدس سره ما عنه ولم ينثنِ ولم يتراجع وكان إن بارك الله في جهوده وعطائه.

فالإنسان عليه أن يتعلم من هذه الآية القرآنية الشريفة أن يحدد الهدف.. فالله حدد الهدف من الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.. وأنا عندما أنتمي للحوزة العلمية، علي أن أسأل نفسي لماذا الحوزة؟ أو عندما أتاجر، لماذا أتاجر؟ حتى أدافع بهذه الثروة عن حريم الدين؟ أم أقوي اقتصاد البلد؟ أم أسرح، وأمرح كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: (**كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا..**)[1] والعياذ بالله، أم ماذا؟.

الميرزا مهدي الأصفهاني مُربياً

أحد علمائنا الأبرار كان له هدف محدد وهو: أن يكون (مربياً)، وهو المرحوم الميرزا مهدي الأصفهاني رحمه الله، هذا الرجل حدد لنفسه هدفاً؛ بأن يُربي سلسلة، ومجموعة من الفطاحل، ومن العلماء الصالحين، الذين يرفعون رأية (الحديث الشريف) و(العقل الرباني) في مقابل (الفلسفة) و(العقل الطاغي) بل (الوهم الطاغي)، قبل ما يقارب خمسين سنة في مشهد المقدسة.. وبالفعل ربى العشرات، بل المئات من الفطاحل، والأعلام الذين ذبُّوا عن حريم الدِّين..

---

(١) راجع نهج البلاغة؛ كتاب أمير المؤمنين عليه السلام لعثمان بن حنيف الأنصاري واليه على البصرة..

ويكفيكم أن تعلموا؛ بأن أحد تلامذته، وهو المرحوم الشيخ الحلبي، هذا الرجل الذي تتلمذ في النجف الأشرف في البداية، وكان فيلسوفاً يدرُس ويدّرس الفلسفة لمدة عشرين عاماً أو أكثر، ثم وعلى يدي الميرزا مهدي الأصفهاني، المؤسس للمدرسة التفكيكية، اتضحت هنالك له الحقائق، فسلك مسلك أهل البيت عليهم السلام في القضايا كلها وهو مسلك العقل المسترشد بالوحي لا مسلك الفلاسفة.. وهو مسلك (العقل المتكبر على الوحي) والذي هو في واقعه (وهم مستعلٍ على الوحي).[1]

وكاستطراد وهو في الواقع ضروري أقول: إذا أردتم أن تعرفوا اختلاف مَسلك الفلاسفة عن مسلك أهل البيت عليهم السلام، وإنهما طريقان لا يجتمعان، ومنهجان متعاكسان، ونتائجهما متضادة، فيكفيكم أن ترجعوا إلى فيلسوف ـ هو حجة في الفلسفة، كما هو عَلَم في التفسير، ويقبله الفيلسوف، وغير الفيلسوف ـ وهو العلامة الطباطبائي، حيث يُصرِّح في الجزء الخامس من تفسير الميزان: بأن مَسلك الفلاسفة على مرِّ التاريخ، يختلف عن مَسلك الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وإنهما لا يجتمعان كما أن منهج العرفاء مع منهج الأنبياء لا يجتمعان أيضاً.[2]

وإنك مهما حاولت أن نوفق وتجمع، ومهما حاول الأعاظم من الفلاسفة والعرفاء أن يجتمعوا إلا أن النتيجة هي: (ألفيت كل تميمة لا تنفع).

ولذلك مجال آخر.

---

(١) لقد وفقنا الله تعالى للحديث عن ذلك بالتفصيل في كتاب (الضوابط الكلية لضمان الإصابة في الأحكام العقلية) فليراجع.

(٢) تفسير الميزان: ج٥، ص٢٥٩.

الميرزا مهدي الأصفهاني؛ كان هدفه، أن يُربي سلسلة من التلاميذ.. وربَّى العشرات، بل المئات من الفطاحل، ومنهم الشيخ الحلبي.. والشيخ الحلبي - على حسب إحصاء نُقل لي - ربَّى من الشباب الجامعي المتدين، أكثر من خمسين ألف شاب جامعي، وأسس لذلك: تجمعاً إيمانياً باسم صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف كان هدفه تهذيب النفوس وتزكيتها، وتطهير الأرواح وتربيتها وصقلها والسمو بها، أي كان يهدف بناء (الإنسان الصالح) و(المجتمع الصالح)، فكان يتعهد الطالب، من حين هو طفل عمره سبع سنوات، إلى أن يتخرج من الجامعة، والحقيقة أنا رأيتُ قسماً من تلامذة الشيخ الحلبي، سواء في إيران، أم في أميركا، أم في الكويت، أم في غيرها.. فقد كانوا بحق شباباً جامعيين، دكاترة، ومهندسين، ومحامين، من خيرة المتدينين.. الشيخ الحلبي كان هدفه أن يُربي الشباب الجامعي، ليكون أنموذجاً في الصلاح والإصلاح.. وعلى هذا الدرب مشى وسار ربما لأكثر من خمسين عاماً..

أنا بصفتي رجلاً منتمياً إلى الحوزة العلمية يجب أن أُحدد الهدف.. أو عندما أبدأ أي عمل جديد عليّ أن أحدد هدفي، وإن لم أفعل فلأبدأ من الآن.. فما هو هدفي؟ أن أصبح (مربياً) وصاحب مدرسة تصحيحية، كالميرزا مهدي الأصفهاني، أو الشيخ الحلبي؟ أم أن أكون (مؤسِّساً) كالشيخ عباس علي الإسلامي قدس سره؟ أم أصبح (مفكراً) و(مجاهداً) و(مؤسِّساً) كالشهيد السيد حسن الشيرازي رحمه الله، أو مرجع تقليد مجدِّداً، ومناهضاً للاستبداد والاستعمار، كالميرزا الشيرازي الكبير والآخوند الخراساني (رحمهما الله) وغيرهما؟ أم غير ذلك أم كل ذلك؟

والخلاصة: إن على الإنسان أن يُحدد الهدف، ثم يسعى إليه، فالدرس الأول الذي ينبغي أن يُستفاد منه من هذه الآية المباركة هو ضرورة تحديد الهدف..

ثانياً: الوضوح في الأهداف المُحددة

الدرس الثاني: هو ضرورة (الوضوح في الهدف).. تأملوا؛ الآية جداً واضحة فليست فيها تعقيدات الفلاسفة.. سأل أحدهم فيلسوفاً، عن الله، فقال: مَنْ هو الله، أو ما هو الله؟ فقال الفيلسوف: اسطقص فوق الاسطقصات..

ما هذا التعقيد؟ والولع بالألغاز والأحاجي والمصطلحات الغامضة حتى على قائلها في كثير من الأحيان؟ هذا على عكس منهج القرآن الكريم، الذي منهجه الوضوح، والبيان، لا الطلاسم والرموز.. بل عمق في الوضوح، لا الإغراق بالمبهمات..

وأين تلك العبارة وأشباهها مما جاء في الذكر الحكيم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ ولاحظوا عبارات الفلاسفة، وتأملوا وقارنوها مع روايات أهل البيت عليهم السلام، وأين الثريا وأي الثرى؟

ومن الغريب إنني أنا شخصياً رأيتُ واحداً من أشباه العلماء وأقول: إنه وأشباهه، من أشباه العلماء وإن تصوره الناس من العلماء أو من كبار العلماء حقيقة هزَّني هزاً، فرأيتُ كيف أن الشيطان يتمكن من الإنسان؛ والعياذ بالله.

رجل من العلماء قال لي ذات مرة حيثُ كان مُولعاً بالفلسفة، ويُدرِّس

بعض الكتب الفلسفية الشهيرة قال لي: أنا أطالع روايات أهل البيت، فلا أرى فيها شيئاً من العمق؟!

أنتَ لا ترى فيها شيئاً، أم الشيطان متمكن منكَ؟ العمق في كلام ملا صدرا وليس في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!! هكذا يُمسخ الإنسان.. يقول وهذا نصُّ عبارته تقريباً: أطالع، ما أرى فيها شيئاً، أي هو كلام سطحي.. بينما كلام الملا صدرا، أو أبي علي بن سينا، أو الفارابي، أو ابن رُشد.. فيه العمق؟!

والحال في الرواية: أن العلم نقطة، كثَّرها الجاهلون[1]..

فكلام أهل البيت عليهم السلام، يعطيك اللب واللباب والجوهر وحاق الحق و(المعرفة الحقيقية الحقة) وبأقل الكلمات وأوضحها (خير الكلام ما قل ودل)، لا مجموعة قشور واصطلاحات غامضة، وألغام وأشواك لفظية، وطلاسم وأحاجي، و(جهل مركب) أُلبس لباس العلم، فالذي يَفهمك ويفهم عمق الحقائق، يُفهمك ببساطة، ويعطيك الحقيقة بتلك البساطة.. خُذ قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾..[2]

أين التعقيد في هذه السورة المباركة؟ هي في أوج العطاء، وفي شدة العمق، بل وعمق العمق، لكنها في الوقت نفسه، في قمة البساطة، والسلاسة، والعذوبة أيضاً.. لا تعقيد ولا تضاريس، بل الوضوح.. كل

---

(١) عوالي اللآلي للأحسائي :ص١٣٠

(٢) (سورة الإخلاص)

الوضوح..

اذهب إلى كتب الفلسفة، واقرأ التعقيد، حقيقة هي طلاسم، خفيَّة على قائلها.. بل اقرأ (الجهل المركب): (الوحدة في عين الكثرة والكثرة في عين الوحدة) و(الواحد لا يصدر منه إلا الواحد ولا يُصدر إلا الواحد)!!

يقول الرجل: الروايات أطالعها ما أشوف فيها شيء.. ولم يتجرأ ليقول: لا أرى في (الآيات القرآنية الكريمة) شيئاً أيضاً أعاذنا الله من سلطان الشيطان ومسخ العقول وعبودية الأوهام والله سبحانه وتعالى- تأمل الوضوح- يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾..

لاحظ: الوضوح.. كل الوضوح، ليس فيها تعقيد أبداً.. (أريد منكم أن تعبدوني)؛ هو هذا الهدف وانتهى الأمر، لا زيادة، ولا نقيصة.. فالدرس الثاني، الذي نتعلمه من الآية الكريمة: هو الوضوح في الهدف..

والآن أنتم مثلاً كرجال دين، هدفكم أن تصبحوا مبلغين، هكذا حَددتم الهدف، ولكن الوضوح يعني أن تعرف وتُحدِّد، أَمُبلِّغ في الشرق، أم مبلغ في الغرب؟ فالأمر جداً مُختلف.. فمقتضيات هذا، تختلف عن مقتضيات ذلك..

فإذا كان الإنسان يُريد أن يُبلِّغ في الهند، فهو يختلف عمَّن يريد أن يبلغ في أميركا، وهذا يختلف عمَّا إذا أراد أن يبلغ في الصين، وذلك يختلف عما إذا أراد التبليغ في بلد إسلامي.. وكل بلد منها له خصوصياته أيضاً.

إن الوضوح في تحديد الهدف عامل مهمٌّ للنجاح.. فأنا أريد أن أُبلِّغ؛ ولكن أين أُبلغ؟ في هذه المنطقة، أم في تلك المنطقة؟ أكون داعية دينياً، أم داعية مذهبياً؟ هذا يختلف.. مقتضياته تختلف، الكتب التي يجب أن يُطالعها تختلف.. أو أن يكون هدفه الأقصى مواجهة المد الإلحادي، أو الشركي، أو التكفيري، فيختلف الأمر في ذلك كله..

ثالثاً: ضرورة اختيار الهدف الأسمى دائماً

الدرس الثالث: الذي نستفيده من الآية الشريفة هو؛ (ضرورة أن يكون الهدف هو أسمى هدف ممكن).الله منحنا أسمى هدف، وأعلى هدف، وآخر هدف..﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

إن رجل الدين، أو الشاب المثقف، يمكن أن يأتي، ويدرس كمتفرغ أو في ضمن دورات في العطل الصيفية وغيرها، حتى يكون ـ على سبيل المثال ـ مبلغاً في قرية، هل هذا هو المطلوب من رجل الدين؟ أو أن يكون مبلغاً في مدينة؟ أو أن يكون مبلغاً في عاصمة؟ أو أن يكون داعية على مستوى الكرة الأرضية؟ وهذا ما يسمى بـ (سموِّ الهدف)..

الله سبحانه وتعالى طرح لنا في الآية الشريفة،أسمى هدف في الحياة، الهدف الذي لا هدف فوقه،ولا شيء مثله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أعلى شيء، وأكبر شرف، وأسمى وظيفة، وأسمى منزلة،وأرفع مرتبة، للإنسان في هذه الحياة؛ هي عبادة الله سبحانه وتعالى..

إن سمو الهدف يتجلى في: (نوعه) أولاً وفي (إتجاهه ووجهته) ثانياً،

وفي (كميته) ثالثاً، والأمثلة الثلاثة الآتية تجسد هذه الأنماط الثلاثة:

المثال الأول: إذا أتيت بخادم عرفت فيه الإخلاص والأمانة لكي يكنس البيت ويغسل الصحون وما أشبه ذلك، وبعد ذلك، رأيتَ أن هذا الرجل وإن كان هدفه أن يخدمك، لكنه جدير بأن يخدم أهدافك الكبرى، وأهل لأن يربي أولادك، أو أن يربحك في تجارتك مثلاً فأين هذان الهدفان عن الهدف الأول؟

المثال الثاني: الإنسان تارة يهدف خدمة صديقه، وتارة يهدف خدمة والده، رتبتان من الهدف صديقه، أو والده.. فـ (اتجاه الهدف) أو (من تهدف خدمته) يحدد قيمة العمل أيضاً..

المثال الثالث: ثم إن (الكمية) لها مدخليتها أيضاً، إذ تارة يهدف الإنسان هداية عشرة، وتارة يهدف ويستهدف هداية مليون.. هنالك هدف دون هدف، وهدف فوق هدف، كماً، وكيفاً، وجِهةً، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فهذه أسمى مرتبة في الأهداف..

ولذا نرى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، يقول: إلهي؛ كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، أنت كما أحب فاجعلني كما تحب..[1]

هذا هو الهدف الأسمى، أن يكون الإنسان عبداً لله سبحانه وتعالى..

كأس شاي بعشرة آلاف دينار!

وأمثِّلُ لكم مثالاً لطيفاً، تاجر من التجار من إحدى البلاد ـ لا نذكر

(١) البحار للشيخ المجلسي :ج٧٤ ص٤٠٠.

اسم البلدة حتى لا يعدّ اهانة لتلك البلدة ـ التي كان الاستعمار يحكم فيها، وكان يضايق المستقلين، والذين لا ينضوون تحت لواء الظلم، والاستعمار، فهذا التاجر لطبيعة مواقفه أخذوه، وسجنوه، ثم صادروا ما تيسَّر لهم من أمواله..

وعندما خرج من السجن وكانت عنده تجارات في دولة ثانية أيضاً هاجر مع أهله إلى العراق ـ هذه قصة حقيقية وهي في الوقت نفسه ترمز إلى قصتنا نحن وتكشف عن عمق حياتنا نحن ـ لكنه نتيجة للسجن الذي سُجن فيه، وبعد الهجرة، والمشاكل، ورغم أن أموالاً كثيرة نقلها معه، إذ كان تاجراً عملاقاً ملياردير اً إلا أنه على أثر هذا الضغط الذي تعرَّض له، أصيب بلوثة في عقله، أي صار عنده نوع من السَفَه، أو عنده نوع من الخَبَل المُبَسَّط وقد تجلّى خبله بهذه الطريقة: أنه كان يأتي، ويصنع لنفسه الشاي، فكان يُمسُك الدنانير ـ والدينار بذاك الوقت في العراق قبل ستين، أو سبعين سنة كانت قوتها الشرائية عالية جداً فعشرة آلاف دينار التي الآن سنتحدث عنها ربما كانت تُعادل قوته الشرائية مائة ألف دولار بعملة اليوم أو قريباً منها ـ فكان يأتي بـ(غوري شاي) وبدل أن يُشعل الحطب تحته حتى يستوي و(يتهدّر)، كان يأتي بهذه الدنانير، ويُشعلها تحته ديناراً فديناراً ودنانير فدنانير.. فيحرق عشرة آلاف دينار حتى يصنع غوري شاي واحد، ثم يشرب الشاي ويقول مبتهجاً، مبتسماً، فرحاً: الله!! هذا الشاي يسوه عشرة آلاف دينار، أي قيمته عشرة آلاف، وينتابه شعور بالسرور والفرح الغامر لأن هذا الشاي يساوي عشرة آلاف دينار!!

هذه القصة واقعية، والوالد رحمه الله ربما قد رأى هذا الرجل مباشرة أو ينقل عمَّن رآه..أن الرجل، يشرب الشاي ويسعد أن قيمة هذا الشاي الذي يشربه، عشرة آلاف دينار!!، أي عندي ثروة طائلة جداً، فمائة ألف دولار هذه أحرقها لوهم لا غير.. هذا الإنسان مَنْ هو؟ أليس هو (نحن) أيضاً؟!

هذه قصة واقعية، إلا أنها هي قصتي أنا، وقصة أشباهي من البشر أيضاً..

الله تعالى يقول: أنا خلقتك حتى تعبدني، فقيمتك هي هذه، قيمة الدينار أن تشتري به مزرعة، فتخدم العباد، والبلاد، وتخدم أهلك، وليست قيمة الدينار أن تحرقه، وتشرب فيه الوهم والشاي..

فأنا الآن بيدي وتحت تصرفي (عمري) ماذا أفعل به، أحرقه في مجالس البطالين، وفي النوم الكثير، أو لا؟

الله يقول لنا: أن هذا العمر ثروة طائلة، تشتري بها جنان الخلد، وتتزوج بها الآلاف من الحور العين، فلا تبعه بالرخيص، أو تشتري النار التي سجرها جبارها لغضبه، ولنعم ما قاله الشاعر:

أنفاس عمرك، أثمان الجنان فلا

تشري بها لهباً في الحشر يشتعل؟[1]

هذا الإنسان الذي يُصاب بلوثة في عقله، هو بعضنا نحن.. لماذا؟ لأن أمير المؤمنين علياً عليه السلام قال: (واعلموا أنه ليس لأنفسكم ثمن

(١) بيت من قصيدة جميلة للشاعر حسن بن محمد علي العلوي، راجع أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين :ج٥ ص٢٦١

إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها)[1]، وها نحن ماذا نصنع بأنفسنا وأوقاتنا ولحظات عمرنا؟ أنت شيء غالي، وبرأس مالك وهو العمر اشتر شيئاً غالياً هو الجنة، لا تشتر به كأس شاي وتشربه مسروراً بطراً.. نحن نُسر كثيراً عندما نخرج إلى نزهة.. ثم نتحدث عنها بشغف: لقد خرجنا إلى نُزهة، والنزهة جميلة كانت!! أي أحرقتُ وقتي!! كذاك الرجل، ولكن بدلاً من الشاي اللذيذ، كانت جلستنا في مجالس البطالين، حتى لو أن الإنسان قضى وقته في المهم، وليس في (الأهم)، الذي هو غاية العبودية لله سبحانه وتعالى، هذا أيضاً مُتلف لوقته، وبدل ما يشتري بالدينار ملابس يتدثر بها، يشتري (حامض حلو)، ويجلس ليأكله في الشتاء..!!

صحيح أن لـ(الحامض حلو) نوعاً من الفائدة، إذ يوجد نوعاً من الطاقة في البدن ونوعاً من الانشراح المؤقت، ولكنك كُنتَ تحتاج إلى ملابس تتدثر بها.. وأين هذا من ذاك؟ والإنسان عليه أن يتعلم من هذه الآية القرآنية الكريمة، أن تكون غايته الأسمى العبادة ثم العبادة ثم العبادة، والسمو الروحي والمعنوي وبلا حدود إذ قال تعالى: (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)هذه هي الغاية الأسمى ولا غير، وما عدا ذلك باطل في باطل، وليس وراء الباطل من طائل..

رابعاً: استكشاف فلسفة الهدف

الدرس الرابع: الذي يُستفاد من هذه الآية القرآنية الكريمة؛ هو التعرف على (الهدف من الهدف)، وضرورة (تحديد الهدف من الهدف)، أو إن شِئتَ فقل: فلسفة الهدف.. الله تعالى ذكر الهدف، ولكن لم

---

(١) نهج البلاغة :حكمة ٤٥٦.

يتوقف، بل ذكر فلسفة الهدف أيضاً..

أنت تريد أن تكون مثلاً مبلغاً، أو مفكراً، أو داعية، أو مجاهداً مدافعاً عن حقوق الناس، أو تاجراً خيّراً، أو ما أشبه ذلك، ولكن ما الهدف من هذا الهدف؟

وهنا نكتة لطيفة، تأملوا! فالآيات القرآنية دقيقة، فكل كلمة كلمة منها بميزان.. الله سبحانه ذكر الهدف فقط، وكفى؟ كلا؛ بل أضاف فلسفة الهدف: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ولكن لماذا يعبدون؟ ويأتينا الجواب: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1]

أي إن الهدف الذي هو (عبادتي)، ليس لأجلي، وإنما هو لأجلكَ أنتَ.. هذه فلسفة الهدف. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هنا عرفنا الهدف، ولكن لماذا علينا أن نعبدك يا رب؟

يقول: لأنه يعود بالفائدة عليكم، وإليكم،ولا يعود إليَّ.. ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾، لا تعبدونني كي أستفيدَ منكم، وإنما أنتم الذين ستستفيدون مني..

(فلستُ أريد منكم عبادتي، لتستثمروا لي، أو لتزرعوا أراضيّ مثلاً كما هو شأن من يستخدم خادماً أو يوظف موظفاً أو يتفق مع مدير من المدراء، فإنني أنا (الرزاق) و(أنا ذو القوة) وإليّ تنتهي كل القوى وأنا (المتين).. فاعبدوني لكي تتكاملوا وتترقوا أنتم).

---

(١) (الذاريات:٥٨)

وفي الحديث القدسي: عبدي خلقتك لتربح عليَّ لا لأربح عليك..[١] الله هو غنيٌّ مطلق، ونحن فقراء بقول مطلق.. فنحن الذي نربح، وليس هو حاشاه..

وبذلك يتضح الهدف من الهدف، أو فلسفةُ الهدف..لـ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وكان من الضروري بيان ذلك لإمكان أن تحدث شُبهةٌ في الذهن، مثل هل الله يحتاجنا لكي يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؟ كلا.. يقول ربنا: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾، لماذا: لـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، فالله غني، وغير مُحتاجٌ لكم، فالأمر يعود لكم برمَّته..

(فإذا أنت عبدتني فأنت الذي سوف تتقدم، وأنت الذي ستتكامل، وأنت الذي ستصل، وتصل، وتصل..) إلى ما لا يمكن حتى لخيالك أن يحلق إليه مثل طفلك، فالطفل يلعب بالبيت، ولكن أنت تبعثه إلى المدرسة لماذا؟ لأن ذلك لصالحه هو، وتدري إنك غداً ستموت، وربما لا تستفيد منه شيئاً، ولكن هذا لصالحه هو.. لأنك تريد مصلحته، ومنفعته..

والمشكلة في الإنسان أنه لا يفهم، يتصور أن قيمته بدُريهمات قليلة يحصل عليها.. وهذا فلسفة الهدف أيضاً درس نستفيدهُ من الآية المباركة، فأنا إذا حَدَّدتُ لنفسي هدفاً كأن أكون مبلِّغاً، أو أن أكون مُدرِّساً، عليَّ أيضاً أن أُفكر لماذا أريد أن أكون مُبلغاً؟

(١) شرح نهج البلاغة-إبن أبي الحديد-باب الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام- الحكمة٦٦٥

حتى أُشبع في ذاتي الأنا (الغرور) ـ لا سمح الله ـ أم حتى أحصل على شُهرة بين الناس؟ أم لكي أحرز رضا الله تعالى؟ فهدف الهدف ما هو؟.. إذ ربما يكون (الهدف) جيداً، ولكن (هدف الهدف) يصبغ الهدف بصبغة رحمانية، أو بصبغة شيطانية..

أريد أن أكون مرجع تقليد، أو مجتهداً، أو تاجراً أو مسؤولاً، أو أي شيء آخر، فلماذا أريد ذلك؟ هل لكي أتمحَّض في خدمة أهل البيت عليهم السلام؟ أو لكي أُشبع في نفسي (حبُّ الشُّهرة)، أو ما أشبه ذلك من هذه السفاسف في الحياة الدنيا.. كحبِّ الرِّياسة، وحبِّ الشَّرف على حسب الرواية، وحب الذِّكر وما أشبه ذلك..

وبعد ذلك فإن هذه الآية الشريفة نستفيد منها مطالب عديدة، ودروساً مفيدة أخرى، فإن الدروس التي يمكن أن نذكرها، ونستفيدها من هذه الآية الشريفة، هي عشرون درساً على الأقل، ويمكن ذكر أربعة عشر مطلباً، فلنذكر في هذه العجالة مطلباً، أو مطلبين منها فقط..

العبادة تكليف أم تشريف؟

المطلب الأول: نستكشف من الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، الإجابة على السؤال التالي: هل ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه تكليف، أم تشريف؟

الجواب: أن ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، (تشريف)، و(تكريم)، و(تقدير) لنا، وليس (تكليفاً) دون شك وذلك ما نستفيده من (النون) في ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ إذ المعبود هو الله الواحد الكبير المتعال، مالك الملك، الغني المطلق،

فأي شرف ستكون عبادته؟

وإذا كانت خدمة (العالم) شرفاً أو خدمة الملك في نظر الناس شرفاً وهو الفقير بذاته، فما بالك بعبادة رب الأرباب، ومصدر الكمالات، ومالك الدنيا والآخرة؟!

إن الإنسان الجاهل يتصوَّر: أن العبادة تكليف، فتراه يقوم لصلاة الصبح، بتثاقل وضغط و(بالقوة)، فهو يرى فيها (كُلفةً)، وزحمةً عليه.. أما الإنسان الذي يعرف الحقيقة، يقول: هذا تشريفٌ لي، هذا أعلى مقام يمكن أن أصل إليه..

والمثال(الخادم) الذي أشرنا له من قبل فيه دلالة، فإذا أتيت بخادم للبيت ليكنس، ولكن بعد ذلك رأيتَ فيه قابلية، فقلتَ له: أنا مُستعدٌ لتكفل نفقات دراستك أبعثك للجامعة، لتصير أستاذاً جامعياً مرموقاً، فإن لم يكن عنده إدراك، ولا شعور، ولا فهم، فقد يتصور ما يريده مولاه (تكليفاً)، فيجيب: (أن أكنس) أمر سهل، أما أن أذهب لأدرسَ، أسهر الليالي، وأطالع، هذا التكليف شاقٌّ جداً..!!

وإن وجدت فيه ذرَّة من الإدراك، والشعور، فإنه سيعرفُ أن ما يقوم به مولاه، تشريفٌ له، وتقديرٌ له، وتكريمٌ له، وفضلٌ منه عليه..

والله سبحانه وتعالى عندما أمرنا بعبادته؛ فإن ذلك هو لنا تشريفٌ، وليس تكليفاً، إذا نظر الإنسان بهذه النظرة الإيجابية إلى العبادة سوف يلتذ بالعبادة، أيما لذة، ويُقبل على الله أي إقبال..

عبادة في الليل البهيم

وهنالك قصة مُفصَّلة وخلاصتها: أن رجلاً كان مسافراً وحده في الصحراء، وكلما جنَّه الليل، وأقبلَ الظلام، كان يبحث في الصحراء عن صخرة أو شجرة أو ما أشبه يلجأ إليها، ولم تكن تلك الصحراء قاحلة، بل كانت فيها أشجار هنا وهناك أو واحات، فكان يبحث عن شجرة وإذا وجدها، كان يصعد فوقها لينام خوفاً من حيوان مفترس، أو حيَّة، أو ما أشبه ذلك..

يقول: وذات مرة، وبينما أنا على ظهر الشجرة، وإذا بي أرى سواداً أقبل من بعيد بإتجاه الشجرة، رجل ربما يكون شاباً، فهو يرى شبحه افترش الأرض، وبدأ يعبد الله سبحانه وتعالى، ويبكي، ويتمرَّغ في التراب حتى الصباح، عدة ساعات متتالية.

نحن أحياناً ساعة نعبد الله، أو عشر دقائق فقط، فنتعب لأننا نراها (تكليفاً)، وليس (تشريفاً)، والكلفة بالقوة، ولذا فإن البعض منا لا يَحس بلذة العبادة.

يقول: حتى الصباح انشغل الرجل بالعبادة، والبكاء، والتضرع، وأية عبادة؟ وأي بكاء؟ وأي تضرع؟ وبعد ذلك عندما اندلع لسان الصبح رفع رأسه إلى السماء، وقال: (**الهي قد تقشع الظلام، ولم أقض من خدمتك وطراً**).[1]

وكان ذلك العبد الصالح هو سيد الساجدين؛ الإمام علي بن الحسين عليهما صلوات المصلين، وللقصة تفصيل.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٦، ص٤٠.

هذا مضمون الرواية، نعم «تقشع الظلام ولم أقض من خدمتك وطراً» أقبل الصباح وأنا لم أفعل شيئاً.. لأنه أدرك لذة العبادة، فسبع، ثمان ساعات عَبَدَ الله، ولا يحسب نفسه أنه عمل شيئاً، هذه لذة العبادة، لذة المناجاة التي يَبتعد عنها، ولا يُدركها مَنْ يعصي الله سبحانه وتعالى.. إنسان يعصي الله بغيبة، أو بكذبة، أو بنميمة، أو نظرة ـ لا سمح الله ـ إلى امرأة أجنبية، وأدنى عقوبة له هي أن يسلبَ منه لذَّة مناجاته.

كثيراً ما يغفل الإنسان، ويسرح ذهنه وهو في السجود، فينقلع من السجود، وكأنه لم يسجد، والحال أن في الرواية: (**لو يعلم المصلي ما يغشاه من رحمة الله ما انفتل ولا سره أن يرفع رأسه من السجدة**)..(1)

ومضمون الرواية: ولو يعلم كم يغيظ إبليس..

فإبليس يحسد بني آدم لأنه هو طُرِدَ من رحمة الله لأنه لم يسجد، فكيف يتحمل أن يَرى هذا الإنسان ساجداً؟ هذا المؤمن المسكين الذي هو له عدو ـ بل هو العدو حقيقة، وقد حلفَ أن يُدخله نار جهنم ـ وربما يستظهر من بعض الروايات أن أثقل شيء على إبليس، أن يسجد الإنسان لله سبحانه وتعالى(2)..

وإذا كان الإنسان قد ابتعد عن المعاصي حقيقة، فإنه سيدرك (لذة المناجاة) وسيدرك بعض حقيقة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.. فالعبادة هي تشريفٌ للإنسان، تكريمٌ له، لأنها تُمثِّل أسمى هدف وُضع

---

(1) تحف العقول: ١٢٢.

(2) الخصال: ص٦١٦، ح١٠، وفيه عن أمير المؤمنين عليه السلام (أطيلوا السجود، فما من عمل أشد على إبليس من أن يرى ابن آدم ساجداً، لأنه أمر بالسجود فعصى).

أمامه في هذه الحياة..

ولأضرب لكم مثلاً ذا دلالة، وهو (الضيافة العربية)، أنتم رأيتم: أن بعض الناس يلتذُّ من الضيافة، فعندما يأتيه ضيف يلتذُّ به ويسر أي سرور، وخاصة العشائر ذوي الطبع العربي، ومَنْ أشبههم.. وأهل القرى كثير منهم من هذا القبيل، أما أهل المدن فيبتعدون قليلاً أو كثيراً عن هذه العادات، ولكن أهل القرى، من العرب وغيرهم، والقبائل، والعشائر عادة، يلتذُّون بقدوم ضيف إليهم، لكن يوجد هناك مَن يستثقل الضيف، فهذا يرى الضيف تشريفاً له، وذاك يراه تكليفاً له، فعندما يأتي الضيف و(الضيف ينزل برزقه ويرتحل بذنوب أهل البيت..)[1] ومع قطع النظر عن هذا المفهوم السامي فإن بعض الناس يلتذ بطبعه بالضيافة، وبالاستضافة.. فهذا يعرف معنى الضيافة ويستشعر روعتها ونكهتها وجمالها، وذاك لا يعرف معناها، ولا يرى منها إلا التكليف..

وهكذا (العبادة).. وهكذا الناس تجاه (العبادة).. البعض يدرك روعتها وجمالها ولذتها، ويراها لطفاً من الله به، وتشريفاً له، وفضلاً عليه.. والبعض الآخر عبادته (نقر كنقر الغراب).

فالله سبحانه وتعالى عندما نعبده، فإنما عبادته هي محضُ التشريف لنا، بل هي لطفٌ من الله جل اسمه، إذ ما قيمتنا وما خطرنا، حتى يسمح لنا الله تعالى، بأن نخاطبه مباشرة؟

الإنسان يريد أن يأخذ موعداً من وزير لا يعطوه موعداً.. كثير من الناس هكذا، يطلب من الأمير، أو من الملك، بل ويوسط الوسائط إلا

(١) البحار للشيخ المجلسي: ج٧٢، ص٤٦١ وهو حديث عن الرسول الأعظمﷺ..

أن طلبه يجابه بالرفض.. بل.. أحياناً يطلب موعداً حتى مع موظف عادي أو حتى شرطي أو رجل أمن، و- هو - لا يدير له بالاً.. والله سبحانه الخالق هو المبتدئ، المتفضل، المتطول، المنان يقول لنا: يا أيها الناس هيا إليَّ، اعبدوني، تكلموا معي، ناجوني ولكم بذلك سعادة الدنيا والفلاح في الآخرة، نحن نقول وبلسان الحال: كلا.. لا نحتاجك!! وهذا ما تشهد به أفعالنا أيضاً إن لم يكن معها لسان مقالنا أيضاً..

ألا يحين وقت الصلاة، وينادينا هاتف الرب ونحن لاهون ساهون؟ أو في أفضل الأحوال في اجتماع، أو في زيارة، أو عمل أو شبه ذلك؟ هل مناجاة الخالق أهم وهو من بيده كل ما تملك وما لا تملك والدنيا والآخرة معاً أم (عرض الحياة الدنيا) الفاني الزائل؟

الله سبحانه وتعالى ملك الملوك، ورب الأرباب، وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، والخزائن كلها.. فتح لنا (خطاً مباشراً) معه.. وكان من لطف الله سبحانه بنا إنه لم يأمرنا بعبادة غيره مهما كانوا عظماء أو أنبياء بل اختصنا لنفسه، رغم إنه كان من الممكن أن يقول سبحانه وتعالى لنا: إنكم (ما تستاهلون) أن تعبدوني أيها البشر! بل اعبدوا واحداً من مخلوقاتي، اعبدوا (آدم) فرضاً، (بل إنه لا يوجد قياس من حيث المستوى والمكانة بيننا وبين آدم أيضاً) وذلك كما أمر الملائكة بالسجود لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[1]

نحن ما قيمتنا حتى (نعبد) الله سبحانه وتعالى؟! بل نقول: ما قيمتنا

---

(١) (البقرة:٣٤)

حتى نعبد عبداً من عباد الله الكرام: من ملائكته ورسله وأوليائه العظام؟ ومن الواضح أن ذلك غير جائز، إلا أنها قضية شرطية وقضية (لوّية) أي ﴿لَوۡ﴾ كما في قوله تعالى ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] وهذا من فضل الله، أن الله حرَّم عبادة غيره علينا وأوجب عبادته علينا فقط رغم أنه الغني المطلق ونحن الفقراء بما للكلمة من معنى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[2] بل يقول البعض: إن الإنسان ليس (ذاتاً ثبت لها الفقر) بل هو (عين الفقر والحاجة).

هذا هو المطلب الأول، وهو أن ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ تشريف وليس تكليفاً، فلنتأمل في ذلك ولنحاول أن نستشعر، في أعماق جوانحنا وقلوبنا وأفئدتنا.

علاقة التضاد بين عبودية الله وعبودية الدنيا

المطلب الثاني: هناك علاقة التضاد بين العبودية لله سبحانه وتعالى، وبين ما عدا ذلك: العبودية للبطن، العبودية للدنيا، العبودية للدرهم وللدينار.. ويمكن استفادة كون العلاقة هي علاقة التضاد من (الحصر) في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ ومن كون متعلق ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ هو ضمير الجلالة جل اسمه وحده.

معاني تسعة لـ(تعس عبد الدرهم)

يقول رسول الله ﷺ في رواية لطيفة: تعِس عبد الدرهم، تعِس عبد

(١) الأنبياء: ٢٢.

(٢) (فاطر :١٥)

الدينار..(١)

والآن لنتساءل ماذا تعني كلمة (تَعِس)؟ راجعوا كتب اللغة، مثل مجمع البحرين، وبعض الكتب اللغوية الأخرى، فإنكم ستجدون المعاني التالية لتعس، فـ:

(تعِسَ): يعني (شقيَ).. شقي عبد الدرهم، شقي عبد الدينار.

و(تعيس): يعني هالك.. فـ (تعس) تعني أيضاً هلك، أي هلك عبد الدرهم، هلك عبد الدينار. وأما (شقي) فيعني (بَعُدَ) لأن (شقي) جوهرها يعني أنه في شق والسعادة في شق آخر.. فـ (شقي) هو بُعد واحد من معاني (تعيس)، فكأن التعيس في شِق ورحمة الله في شِق آخر.

الذي يُفكر بالأمور المادية وبالأموال، ولا يفكر في خدمة أهل البيتعليهم السلام.. همّه بالليل والنهار، المال ثم المال، ثم المال، هذا شقي.. هذا بعيد عن رحمة الله سبحانه وتعالى..

(تعِس): أيضاً يعني (سقط).. وسقط في امتحان الحياة..

(تعس): أيضاً يعني (انحط)، الإنسان إذا عبد الدرهم، انحط.. الله يقول: (اعبدوني) وهذا يعبد الدرهم، يعني إنه ليست له عند الله أية قيمة.

(تعس): أيضاً يعني ساء حظه.

(تعس): يعني ساء مصيره.

وبذلك ظهر أن (تعس) لها معاني عديدة، وكلها متضمنة في الرواية.. (تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار..) (تعس) أي شقي، أي بَعُدَ من

(١) البحار للشيخ المجلسي :ج٧٠ ص٣٢٠ ..

رحمة الله، أو انحط، أو سقط، أو عثر حظه، وطاح حظه ـ على حسب التعبير المعروف ـ وأخيراً أي ساء مصيره..

ألذُّ الطعام لا لذَّة فيه

أحد التجار كان يتحدث عن نفسه: ـ وهو واحد من الأثرياء الذين يمتلكون مئات الملايين بل ربما المليارات ـ إنه على مائدة الطعام يأتون بالطعام، ومن أفضل أنواع الأطعمة، ولكن لا أشعر بلذتها إطلاقاً، فأنا أغبط الفقراء، الفقير قد يأكل الخبز والخضروات فقط، ولكنه يلتذ به، وأنا لا ألتذُّ بشيء..

يقول: لأن عيني معلقة على شريط الأخبار الاقتصادية، وانخفاض أو ارتفاع هذه العملة أو تلك.. فالذهن مشغول وقلق على مستويات تقلبات العملات المختلفة لذا ينتهي الغداء والعشاء، من غير أن أفهم ماذا أكلت؟ وكيف أكلت؟ والقلق يعتصرني مع كل تحول وتقلب.

فالذي يفهم، لا يقلق ويفكر: لماذا ذاك عنده أموال وثروات، وأنا لا أملك ما يملك؟!! فأنت ماذا عليك من ذلك كله، إذا كان منك السعي ولم تفتح لك الأبواب، فاعلم أن ذلك من تدبير الله سبحانه.. فإن رزقك الله عَزَّ وَجَلَّ فقل: الحمد لله، وإلا فقل أيضاً: الحمد لله.. فهو المحمود على كل حال في السرَّاءِ، وفي الضرَّاء..

وفي الحديث القدسي الشريف: (**أن من عبادي المؤمنين مَنْ لا يُصلحه إلا الفقر..**)[1] الله يحبنا، فهو عالم بأنه لو أعطانا ذهباً وفضة

---

(١) الكافي للشيخ الكليني :ج٢ ص٣٥٢.

وأموالاً فقد نطغى، ونتكبر ونتجبر.. ولأنه يُحبني، ويُريد أن يُدخلني الجنة فيبقيني رغم سعيي فقيراً، ولكنني لا أفهم ذلك، فأغضب، لأنني لا أفهم الحِكَم وخفايا الغيب..

مثله كمثل: طفل تريد إجراء عملية جراحية ضرورية لصالحه، ولكنه هو لا يفهم ذلك، فيبكي.. ويصرخ.. ويحاول الهرب والتملص.. مما تتوقف نجاته عليه، (**إن من عبادي المؤمنين مَنْ لا يصلحه إلا الفقر**)..

فهذا التاجر يقول: يساق إليَّ أفضل أنواع الأطعمة، يقول: وهكذا دأبي وحالي ووضعي كل يوم، وأنا لا ألتذُّ بالطعام أصلاً، لماذا؟ لأنه أثناء الطعام أراقب التلفزيون وأقرأ الشريط الذي يرصد حركة أسعار العملات: الينُّ صعد، والجنية نزل، والبوند صار بكذا، والدولار بكذا.. إنه صرّاف، وجزء من عمله الصرافة، فيقول: كل فكري بالفلوس، لا ألتذ بالحياة أصلاً، ويضيف: كذاك الحال بالنسبة إلى النوم ففي الليل أصلاً ما ألتذ بالنوم، أنام، وأنا قلق على الأسعار..!!

اشكروا ربكم، نحن ننام مرتاحين، الإنسان الذي ما عنده (رياسة) يرقد مرتاحاً، الذي ما عنده (شهرة) ينام باطمئنان، لا يخاف من شيء، وكل أمره وَكَلَهُ لله سبحانه وتعالى.. والذي لا يتعامل مع الأسهم والسندات والاستثمارات مرتاح هادئ البال، ولكن مُشكلة الإنسان أنه لا يفهم حِكَمُ الحياة.. فالذي لم يُقدَّر له، يذهب وراءه.. ولو لم يحصل عليه يعتب على الله لا سمح الله.

وأنت الذي عندك (القناعة) و(**القناعة كنز لا يفنى..**)[1] من غير أن

(١) مستدرك الوسائل الميرزا النوري: ج١٥، ص٢٢٦، ح١٢، وهو عن الرسول ﷺ.

يعني ذلك طبعاً أن لا تسعى، بل السعي للكفاف من الرزق بين واجب ومستحب، والسعي للثروة لكي يخدم بها الإنسان، العباد والبلاد بين واجب ومستحب أيضاً[1] حسب الحاجة المعطلة ووجود من به الكفاية إلا أن الكلام أن الإنسان لو لم يقدر له ذلك رغم تخطيطه وسعيه وجده وجهده فإن عليه أن يتحلى بـ (الرضا) ولا يستنكر ذلك على الله تعالى، ولا يَعكِس ذلك على أخلاقه فيسيء التعامل مع أهله وأولاده وشركائه وأصدقائه ومجتمعه.

(تعس)، تأملوا، هذا التاجر أليس شقياً؟ هو يقول ذلك، وهو عالم بشقائه، يقول: الليل لا أقدر أن أنام، فذهني قلق لأنه بلحظة واحدة قد تنهار أموالي.. تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الله تعالى يقول: (**يا أيها الناس.. خلقتكم حتى تعبدونني، وليس لتعبدوا الدرهم.**) نقول نحن والعياذ بالله: كلا؛ نحن نعبد الدرهم، الدرهم أفضل بكثير- والعياذ بالله- والإنسان حاله هكذا وفعاله هكذا.. بلسان الحال وبشهادة الأفعال، وإن لم يكن لسان المقال عن ذلك مفصحاً..

وقد يشهد بذلك ما إذا كان أحدنا في الحرم أو المسجد، وأخبر أنه بمجرد خروجه سيعطونه بعض المال، أو سيحصل على (عقد) مميز، كيف يكون وضعه؟ هل يترك الحرم أو المسجد فوراً، أو يستمر منقطعاً

---

(١) للتفاصيل والأدلة والبراهين راجع (الفقه الآداب والسنن من موسوعة الفقه) وكذا (الفقه المال) والفقه الاقتصاد.

للعبادة والزيارة غير مشغول الذهن بغير الله ووسائله في خلقه إلى موعد انتهاء الزيارة؟ فهذا امتحان طبعاً، فمن ينجح فيه ومن يفشل؟ والحياة مليئة بأمثال هذا الموقف.. والحديث في هذه الآية الشريفة طويل، ومع الأسف أدركنا الوقت، نسأل الله سبحانه وتعالى أن نكون من الذين محّضهم لعبادته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

[٣]

مراتب التوحيد في (الصَّمد)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(1)

ويقول الإمام الباقر (عليه الصلاة وأزكى السلام) وهذه أيام شهادته: (لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عَزَّ وَجَلَّ، حملةً، لنشرتُ التوحيد، والإسلام، والإيمان، والدين، والشرائع؛ من (الصمدّ).. وكيف لي بذلك

(١) (الذاريات:٥٦)

ولم يجد جدّي أمير المؤمنين (عليه صلوات المصلين) حملة لعلمه)؟[١]

ومفاد كلام الإمام عليه السلام: لو وجدتُ لعلمي الذي آتاني الله عزّ وجلّ، حملةً، لنشرت هذه المفاهيم والحقائق الخمسة التكوينية والتشريعية، في أصول الدين وفروعه، وهي (التوحيد، والإسلام، والإيمان، والدين والشرائع)، من كلمة (الصمدّ)، في سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.[٢]

في البحث الماضي تحدّثنا حول بعض الدروس، والقواعد الإدارية التي ربما تُستفاد من هذه الآية الشريفة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، وهي:

أولاً: قاعدة وضرورة تحديد الهدف..

ثانياً: ضرورة وضوح الهدف..

ثالثاً: ضرورة أن يكون الهدف المنتخب، هو أسمى هدف ممكن أن يصل إليه الإنسان..

رابعاً: ضرورة تذكر وتحديد الفلسفة من الهدف أيضاً، أو الهدف من الهدف..

وهناك قواعد إدارية أخرى يمكن أن تُستفاد من هذه الآية القرآنية الشريفة نتركها لوقت آخر.. وهناك سلسلة من القواعد، والمسائل الكلامية، وسلسلة أخرى من القواعد، والمسائل الفقهية، وسلسلة

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق :ص٩٢ وهي رواية طويلة وجميلة فراجعها ..
(٢) (الإخلاص:٢)

من المسائل، والقواعد الأخلاقية، التي يُمكن أن تُستنبط من هذه الآية القرآنية الكريمة، أيضاً..

وفي هذا البحث نتحدث عن بعض القواعد الكلامية، والتي ترتبط بشؤون العقائد التي تستفاد من هذه الآية القرآنية الكريمة، وليس لنا مجال لاستيعاب البحث حول القواعد الكلامية إلا كإشارة..

هذه الآية الشريفة والتي سوف نربطها بالإمام الباقر (عليه الصلاة وأزكى السلام) لأن شهادة الإمام الباقر عليه السلام في السابع من ذي الحجة، فكان من المناسب أن نتحدث عن الإمام الباقر، إلا أننا أطَّرنا الحديث عنه (صلوات الله عليه) بإطار هذه الآية الشريفة، فالحديث هو حديث متسلسل، وواحد إنشاء الله..

مراتب التوحيد الأربعة

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾..هذه الآية الشريفة تشير إلى المراتب الأربعة للتوحيد وهي:

أولاً: توحيد الأفعال، أو التوحيد الأفعالي.

ثانياً: التوحيد في العبادة أو التوحيد العبادي.. كما يُمكن أن يُستنبط منها.

ثالثاً: توحيد الذات، ويُمكن أن يُستنبط منها.

رابعاً: توحيد الصِّفات أيضاً.. فالتوحيد له أربع مَراتبٍ، أو أربعة معان، كلها ينبغي أن يؤمن بها الإنسان، هي:

أولاً: توحيد الذات..

ثانياً: توحيد الصفات..

ثالثاً: توحيد الأفعال..

رابعاً: توحيد العبادة..

هذه المراتب الأربعة كلها مُتضمنة في هذه الآية القرآنية الشريفة، ويمكن أن تُستنبط منها خاصَّة المرتبتان الأخيرتان، فالآية ناطقة بهما أصلاً، والمراتب الأخرى تحتاج إلى تعمُّلٍ، وتأمُلٍ، وكن توحيد الأفعال، وتوحيد العبادة، يستظهر أن من منطوق الآية الشريفة من غير احتياج إلى مقدمات مطولة، وإن كانت هي صحيحة في حدّ ذاتها..

كما تعلمون ـ وقبل أن نبدأ بالآية الشريف ـ ينبغي للمؤمن أن يكون موحدّاً حقيقياً بهذه المعاني الأربعة:

أولاً: توحيد الذات..

فإن الله سبحانه وتعالى، واحد أحد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فكما هو الواحد، أنه هو الأحدّ، و(الواحد) الذي لا ثاني له..

أما (الأحد) فهو الذي لا جزء له، والذي لا جزء له، لا ثاني له.. فـ(الأحد) دالٌّ على (الواحد) بالملازمة، وكان لابد من ذكر (الأحد) بعد (الواحد) لأن كونه واحداً لا ينفي كونه ذا أجزاء، ولا يثبت كونه بسيطاً، وكان يمكن الاستغناء بذكر (الأحد) عن ذكر الواحد لدلالة الأحد عليه، كما في الآية الشريفة، فالله واحد لا شريك له، ولا جزء له..

ثانياً: توحيد الصفات..

والتوحيد في الصفات يعني: أن الله سبحانه وتعالى، صفاته عينُ ذاته، فعلمه عين ذاته، وقدرته عينُ ذاته.. وهكذا صفاته الأخرى؛ لأن صفات الله سبحانه وتعالى لو كانت عارضة على ذاته، للزم أن يكون في مرتبة ذاته مجرداً، وفاقداً للعلم، والقدرة، والإرادة، وما أشبه ذلك.. فلم يكن إلهاً، ولم يكن واجب الوجود، إذ الفاقد في حدِّ ذاته للقدرة، والعلم، والإرادة، ليس واجب الوجود، وليس إلهاً.. فإن (الإله) غني من جميع الجهات، ولا يُعقل أن يكون مصدر الكمالات كلها مُجرَّداً عنها، فإن (فاقد الشيء لا يُعطيه) كما في القاعدة..

وبتعبير آخر: لكان في حدّ ذاته مُحتاجاً إلى العلم، لأنه مجرد في حدِّ ذاته عنه، وإلى القدرة، وإلى الإرادة، وإلى الحياة.. لأن كلها ـ حسب هذا الكلام ـ لواحق لذاته، وعوارض على ذاته.. والمحتاج ليس بواجب الوجود، وليس بإله..

وبتعبير، ثالث: (وهذه أدلة مختلفة للموضوع)، لكان ليس مُحتاجاً للصفات فقط، بل كان مُحتاجاً لمن يلصق به الصفات، أي يجعله متصفاً بالصفات، أي يمنحه ويعطيه الصفات، أي سوف يكون احتياجه في حدِّ ذاته..

فعندما يقال: هو ليس عين العلم، ولا عين القدرة، والقدرة شيء عارض عليه، فهو في حدِّ ذاته ليس بقادر، ولا عالم، فاحتاج مرتين: مرة إلى صفته، ومرة أخرى إلى الشيء الخارجي الذي جعله يتحلّى بهذه الصفة؛ فاحتاج مرتين فكيف يكون الله؟ وكيف يكون هو المنشأ الأول

لكل شيء؟ هذا خلف، فالتوحيد في الصفات يعني ذلك: (أن الصفات هي عين الذات،لا طارئة ولا عارضة عليها)..

ثالثاً: توحيد الأفعال..

اعلم أن كل ما في الكون من جواهر، وأعراض، وحركات، وسكنات.. وغيرها فإنها بأذن الله سبحانه وتعالى، ومشيئته، فإنه ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1] و﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2] و﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[3] والأمير عليه السلام يقول: (عرفتُ الله بفسخ العزائم).[4]

الله سبحانه أراد أن يتجلّى لنا حتى في هذه المرتبة (عرفتُ الله بفسخ العزائم، ونقض الهمم)، شخصٌ يعزمُ ويصممُ، ويخططُ، ويُعدُّ المقدمات كلها، وإذا فجأة يفشل وينهار مشروعه من حيث يدري، أو من حيث لا يدري..لماذا؟ حتى يُدرك أن:

أزمّـــــة الأمـــــور طـــــراً بـيـده

والـــكـــل مـــســتـمـدة مـــن مـــدده

وكأن الله تعالى يقول له: أنا موجود فتوكّل عليّ، ولا تتكل على

---

(١) الزمر: ٦٢

(٢) (الأعراف: ٥٤)

(٣) (الإنسان:٣٠)

(٤) كلمة لأمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة: حكمة ٢٥٠.. وفيها (وحلّ العقود).. وفي غيرها: (ومنع الهمّة)..

قُدرتك..

ويوجد في الروايات إشارة إلى ذلك، وأن الله سبحانه وتعالى يلفتنا بذلك إلى أهم حقيقة في الكون؛ وهي أنه الفعَّال لما يشاء، وأن كل شيء بيده وبإذنه تعالى، ومما يُشير إلى ذلك: أن كثيراً من الناس قد يفقد الذكاء ولكن مع ذلك نجده مرزوقاً الله يرزقه، وكثيراً من الناس يكون ذكياً جداً، أو عالماً جداً، والله يحرمه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.[1]

إنه جلَّ وعلا يعرفنا ويعلمنا ـ فيما يعرفنا ويعلمنا ـ أنه ليست قدرتك، وإرادتك، وعلاقاتك هي التي صنعت الحقائق، وأجرت الأمور، وأوصلتك إلى النتائج، فهذا هو الظاهر فقط، ولكن الواقع هو: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إذ قد يكون الإنسان في أعلى درجات العلم، ولكنه فقير، ويوجد كثير من العلماء حقيقة يحيون فقراء ويموتون فقراء، من أعاظم علمائنا، وغيرهم أيضاً.. الله يريد أن يقول: أزمَّة الأمور بيدي، وليس بيدكم، وهذه أشياء ظاهرية، وهكذا وهلمّ جراً.

(توحيد الأفعال)؛ يعني أن كل شيء منوط بالله سبحانه وتعالى.. أي بأمره وإذنه تبارك اسمه فكل الأفعال تنتهي إلى إرادته، والإنسان حرٌ مختار بإذنه تعالى، لأنه لولا إذن الله له لما أمكنه أن يحرك ساكناً..

رابعاً: توحيد العبادة..

وهو يعني أن يَعبد الإنسان الله وحده، ولا يوجد شيء ثاني ينبغي أو

---

(١) (الذاريات:٥٨)

يصح أو يجوز أن يُعبد..

وإن من تفاهة عقل البشر، أن يعبد غير الله سبحانه وتعالى، حتى لو كان أعظم شيء بتصوره، إذ مع وجود الإله القدير الرؤوف الرحيم، ومصدر الكمالات كلها، وسبب وخالق كل شيء، ومع سماحه لنا بعبادته، بل وعدم تجويز عبادة غيره، كيف يعبد الإنسان غيره؟ إلا أن يكون سفيهاً، أو معانداً.. والآية القرآنية الكريمة عرَّفتنا التوحيد، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾..

السر في استخدام ضمير المفرد في ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾..

هذه هي المراتب الأربعة من التوحيد، جُمِعت بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ ولنبدأ بالإشارة إلى توحيد الأفعال، وتوحيد العبادة، فكيف نفهم ذلك من الآية الشريفة؟

لاحظوا الدِّقة في الآيات القرآنية الكريمة، في الآية هذه، الله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ بضمير المفرد، ويستخدم في ما يشابه هذا الموطن - والتشابه من حيث الظاهر طبعاً، وأما الباطن فسنشير للفرق- يستخدم (خلقنا) كما قال جلَّ اسمه: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾[1].. لماذا في هذه الآية: يقول (وما خلقت) أما في آيات أخرى يقول: ﴿مَا خَلَقْنَا﴾؟ وفي آية أخرى يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[2]

هنا يقول ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وهناك، يقول:

(١) (الأحقاف:٣)

(٢) (الحجر:٢٦)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[1] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ والصلصال هو الطين اليابس الذي يُصلصل كالجرس، من حمئٍ؛ وهو الطين الأسود المتغيِّر، وربما المتعفّن، والمسنون، والمصبوغ، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، أما هنا، يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ ما السبب في ذلك؟

دلالة الآية على التوحيد العبادي

السبب هو هذه الكلمة: ربما إن الله سبحانه وتعالى يُريد أن يُشيرَ إلى التوحيد الأفعالي، بكلمة ﴿خَلَقْتُ﴾، وإلى التوحيد العبادي بترتيب ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ على ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾..

وبيان ذلك أن في قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، الله في هذه الآية يتحدث عن الخلق، يتكلم عن الفعل، يتكلم عن الانجاز..

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إنه يتكلم حول (الخلقة)؛ وإن هذه الخلقة بالحق، وليس الحديث عن (العبادة)، وأن الهدف من الخلقة هو(العبادة)..

إن الله سبحانه وتعالى بلا شك خلق الملائكة وأعطاهم القدرة، فهم الذين بإذنه يصوّرون، أو يصنعون، أو يقبضون الأرواح، أو ما أشبه ذلك.. فهؤلاء الكرام يفعلون، لكن في (طول) فعل الله سبحانه وتعالى، وبالاستمداد منه، وبإذن الله سبحانه وتعالى يخلقون: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ

(١) الدخان: ٣٨

ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[١] و﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢] و﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.[٣]

وبالدرجة والرتبة التي سمح الله لهم فيها، وحيث إن الكلام عن الفعل، فإن الله تعالى جعلهم في (طوله) فاعلين، وخالقين، قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ولا تنافي بين (خلقنا) و(خلق) لأن نسبة الخلق إليهم أيضاً من باب الفعل، وباعتبار أنهم المباشرون للعمل، أي للجزء الأخير من العلة المعدة، أو حتى لأجزاء سابقة ولكن بإذن الله تعالى، وبقدرة منحها لهم، فصحَّ إسناد (الخلق) والإماتة والإحياء والرزق وغيرها، لهم أيضاً..

وصحَّ حصر (الخلق) به تعالى لأنه علة العلل وسبب الأسباب والفاعل الحقيقي..

وبعبارة أخرى موجزة: هم فاعلون وخالقون ولكن في (طول) إرادة الله تعالى، و(بالاستمداد منه والاستناد له)، لا في (عرضه) سبحانه، وباستقلال وبقدرة ذاتية، وهذا هو التوحيد الأفعالي، ولكن في آيتنا الشريفة إشارة للتوحيد العبادي أيضاً، إذ أن الله سبحانه في هذه الآية لا

(١) (المؤمنون :١٤)
(٢) الإنسان : ٣٠
(٣) الأعراف : ٥٤

يتكلم عن (الفعل) بما هو فعل، بل إنه يتكلم عن الفعل بلحاظ (المُراد منه)، و(الغاية) المطلوبة، والتي هي العبادة، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾..

هذه (الخلقة) أي مادة (الخلقة) المستخدمة في (خلقت) هي مُقدمة للعبادة، فينبغي أن يكون الضمير مفرداً لأن المراد هو توحيد العبادة.. فإذا كان الله يريد أن نعبد غيره، كان يقول: (وما خلقنا الجنّ والأنسّ إلا ليعبدونا) إذ أنه إذا كان المقام مقام تعدد المعبود، وتعدد العبادة ناسب ذلك التمهيد بتعدد الخالقين، ولكن الله يُريد أن يشير إلى التوحيد العبادي أيضاً، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فلأن المراد هو التوحيد العبادي؛ كان لابد من إفراد الضمير في ﴿خَلَقْتُ﴾ كما هو الحق لأنه الخالق الحقيقي الذي ينتهي إليه كل شيء..

وبتعبير آخر: الله سبحانه وتعالى، جعل ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ توطئةً، وتمهيداً، لكي يعبدوه لأن حديثه عن الغاية، فحيث أنه يراد بالغاية، أن نعبده وحده، أفرد الضمير في (الخلقة)، فقال: ﴿خَلَقْتُ﴾ أنا؛ لتعبدني أنا؛ أما هناك فليس الكلام عن الغاية، وإنما عن الفعل، والفعل مُتعدد طولياً وكذا الخالق: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فهذه إذن أشارة إلى التوحيد العبادي..

الأمر بين الأمرين:

أما التوحيد الأفعالي؛ فهو واضح ولا يحتاج إلى هذه التوضيحات ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فإذن (الخالق) للجنّ والأنسّ مَنْ هو؟ إنه الله الواحد الأحد الخالق (لذواتهم)، والخالق أيضاً (لأفعالهم)،

وغير ذلك.. فليست يد الله مغلولة ـ كما قال اليهود ـ ولا تفويض للأمر ـ كما ذهب المفوِّضة ـ..

لأن (الخالق) أوجد فيهم القدرة، أوجد فيهم الطاقة، أوجد فيهم الآلات، ولولا الآلات، والطاقات التي منحها الله لنا، لم يكن بمقدورنا واستطاعتنا حتى تحريك الأصابع، ولولا إذنه تعالى حتى مع وجود الآلات والطاقات، فإنه ليس بمقدورنا تحدي إرادته جل وعلا وتحريك الأصابع ولو بأدنى درجة، فليست يده (مغلولة) إذن، وليس مُنعزلاً عن خلقه، (ولا تفويض) هذا من جهة.. ومن جهة أخرى (لا جبر) لأن الله تعالى هو الذي أوجد فينا (الإرادة)، ومنحنا قوة الاختيار، لننتخب أي مسيرة، وأي طريق، فلا جبر وإكراه، ولا تفويض بإطلاق، بل الحق هو ما قاله سيدنا ومولانا الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (**لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين..**)[1] وهذا هو الطريق الوسط والصراط المستقيم وهو الطريق الثالث، وهو المطلوب، والمقصود.

فهذه الآية الشريفة، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ تُشير إلى التوحيد الأفعالي بوضوح، وكما أنها تشير عبر تفريع ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ على ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ وترتيبه عليه، تُشير إلى التوحيد العبادي أيضاً بوضوح..

البرهان الإني على توحيد الله تعالى[2]

إن الأقسام الأخرى من التوحيد تمكن استفادتها من الآية الشريفة وذلك مثل (التوحيد في الذات)، وأن الله سبحانه وتعالى لا شريك له..

---

(١) الكافي الشريف للشيخ الكليني :ج١ ص١٦٠.

(٢) البرهان الإني : هو الانتقال من المعلول للعلة، والاستدلال بالأثر على المؤثر..

كيف؟

لاحظ الآية الشريفة الأخرى- ولا أريد أن أُطيل هنا بل أريد أن أنتقل إلى حديث الإمام الباقر عليه السلام الذي هو الأساس المبارك لحديثنا وتتمة له لاحظوا الآية الثانية، فنفس الكلام يجري هنا، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(1)

فالأثر يدلُّ على المؤثر، إن آثارنا تدّل علينا، هذه الآثار كلها الجنّ، والأنسّ هي آثار الله..هي برهان (إنِّي) على وحدانيته، وهل يوجد جنّ وإنس غير هؤلاء الذين خلقهم الله ليشهدوا على خالق آخر؟ لا يوجد.. والأدلة على وحدانيته تعالى في موطنها كثيرة.. فمنها هذا البرهان، ومنها بُرهان (النَّظم)، لأنه عندما تلاحظون الكون كله ترون بصمات إله واحد خالق، حاكم، فعَّال لما يشاء؛ ومنها برهان (الأزواج)، وأن الله خلق من كل شيء زوجين أثنين.. ومنها برهان (الفجوة) الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام في بعض أحاديثه الشريفة..

إذن هناك براهين كثيرة تُذكر في محلها، لكن هذه إشارة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إذن الجنّ، والإنسّ مخلوقون لله سبحانه وتعالى، وإذا كان هناك إله آخر فأين أثره؟ أين معلوله، أين مخلوقه؟ وحيث لا؛ فلا؛ لأنه لا يوجد معلول آخر، ولا يوجد مخلوق آخر، نستكشف أنه ليس هناك إله آخر، فراجعوا تفصيل ذلك في كتب علم الكلام، والعقائد عند الحديث عن براهين التوحيد، كبرهان (النَّظم)،

---

(1) (لقمان ١١).

وبرهان (الأزواج)، وغيرهما من البراهين..[١]

فيمكن أن يُستفاد من هذه الآية بلحاظ متعلّق خلقتُ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وهو الجن والإنس.. (التوحيد في الذات)، والحديث طويل، وربما في البحوث الآتية يكون لنا بعض التتمة لهذا الكلام، بإذن الله تعالى..

كل مراتب التوحيد في (الصَّمد)

وأما كلام الإمام الباقر عليه السلام الذي هو أساس وتتمة لهذا الكلام عن العبادة الحقيقية، فإنه يقول: (لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عزّ وجلّ، حملةً، لنشرتُ التوحيد، والإسلام، والإيمان، والدين، والشرائع؛ من (الصمدّ)، وكيف لي بذلك ولم يجد جدّي أمير المؤمنين عليه السلام حملة لعلمه)[٢]؟

وسنقتصر في البحث عن هذه الرواية الشريفة على هذه الجملة فقط (لنشرت التوحيد.. من الصمد..).

وأما كيف (لنشرتُ... الإسلام، والإيمان، والدين، والشرائع؛ من (الصمدّ)) فذلك له مجال آخر، ولكل مفردة من هذه المفردات الأربعة (الإسلام، والإيمان، والدِّين، والشرائع) وكيفية استنباطها من (الصمد) ونشرها منه، مجال آخر وربما يستغرق الحديث عنها ساعات وساعات، ولا نبلغ بذلك حتى واحداً بالمليار مما لم يستطع الإمام الباقر ـ روحي

---

(١) يمكن مراجعة كتاب (حق اليقين) للسيد عبد الله شبر رحمه الله، و(شرح التجريد) للعلامة الحلي رحمه الله و(كفاية الموحدين) وغيرها.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج٣، ص٢٢٥.

له الفداء ـ قوله، ونشره في هذه الأمة..

فلنعد ـ والعودُ أحمدُ ـ إلى (لنشرت التوحيد... من الصمد..)..

فنقول: إن مراتب التوحيد الأربعة كلها متضمنة في (الصمد)، وقد كشف عنها الإمامعَلَيْهِ السَّلَامُ عبر شرحه لهذه الكلمة النورانية الشريفة، كما ذكر معاني أخرى أيضاً بثَّها في روايات متعددة وسنذكر بعضها لتوضيح ذلك.. فنقول تمهيداً لذلك:

إن المراتب الأربعة للعبادة، أو المراتب الأربعة للتوحيد، عليك أن تعرفها حق المعرفة إذا أردت أن تكون عابداً حقيقياً، وعليك ـ بعد المعرفة ـ أن تلتزم بالمراتب الأربعة، أي بعقد القلب على ذلك، ولتكن أفعالك، ومواقفك، حاكية عن ذلك وعندئذ سوف تكون عبداً حقيقياً لله سبحانه وتعالى..

تؤمن بالله ووحدانيته..

وأن صفاته عين ذاته، وإلا لم يكن إلهاً..

وتؤمن بوحدة الأفعال؛ بمعنى أن المؤثر الأول فيها هو الله سبحانه وتعالى، وكل شيء بإذنه، ومشيئته.. فتَكِل أمرك إليه، ولا تعتمد على غيره، ولا تخاف في الله لومة لائم فتتحرى رضاه لا غير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وإن سخط عليك السلطان، أو المجتمع، أو البعيد والقريب.. قال أمير المؤمنين (عليه صلوات المصلين): **إِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ**

اللَّـهِ سُبْحَانَهُ وَ إِنَّهُمَا لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ وَ لَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ..[1] فالأمر كله لله، وإن توهم الجاهل غير ذلك.

وتؤمن بالمرتبة الرابعة، وهي العبادة له وحده، لأنه المعبود الحقيقي..

روايات في (الصَّمد)..

هذه المراتب الأربعة للتوحيد هي التي جُعِلَت الهدف من الخلق، أي أن (العبادة) تكون لله تعالى الذي له التوحيد كله، بمختلف المراتب المتقدمة.. فهذا هو المعبود الذي خلقنا الله لأجل عبادته، لا غير..

والإمام الباقر عليه السلام، يقول: (**لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجل، حملةً، لنشرتُ التوحيد...من (الصمدّ)..**) وفي روايات أخرى يشرح معنى (الصمد)، ويذكر له ـ حسب استقرائنا الناقص ـ اثني عشر معنى، وسيتضح لنا أن تلك المراتب التوحيدية الأربعة كلها متضمنة في هذه الكلمة المباركة (الصمد) حسب تفسير الإمام عليه السلام وتوضيحه لهذه الكلمة القرآنية الشريفة..

وهذه الرواية من أروع الروايات حقيقةً، وعلينا قبل ذكر وشرح رواية الإمام الباقر عليه السلام أن نذكر لكم مقدمة موضحة لكلامه صلوات الله عليه: لاحظوا الآية الشريفة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ نستفيد ـ مبدئياً ـ من قوله تعالى: (قل هو الله أحد) توحيدين، ونستفيد ـ مبدئياً أيضاً ـ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ توحيدين..

---

(١) نهج البلاغة: خطبة١٥٦.. ووردت قريباً من هذا المعنى في كلمة أخرى له عليه السلام في الحكمة ٣٧٤..

توحيد الذات

أما من قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فنستفيد: توحيد الذات، وتوحيد الصفات؛ أما توحيد الذات فلأن ﴿أَحَدٌ﴾ بمعنى ما لا جزء له، إذ الواحد له ثاني، له ثالث، فالواحد ينفيهما[1]، ولكن (الواحد) قد يكون له جزء فلا ينفي مجرد إثبات الوحدانية له، وجودَ أجزاء له بل نقول: (الواحد) يعقل أن يكون له ثاني، وإن لم يكن في الواقع الخارجي له ثاني، أما (الأحد) فلا يعقل أن يكون له ثاني..

وبعبارة أخرى: إثبات صفة (الأحد) في الآية الشريفة له تعالى، لها امتيازان على مجرد إثبات (الواحد) له، هما:

(الأحد) لا أجزاء له على الإطلاق، والله سبحانه وتعالى كما هو (الواحد)، إنه (الأحد) ليست له أجزاء لا عقلية، ولا خارجية، ولا غير ذلك..

و(الأحد) لا يعقل بالنظر لمفهومه أن يكون له ثاني، عكس (الواحد) الذي يعقل بالنظر لمفهومه أن يكون له ثاني.. وذلك لأن ما لا جزء له مطلقاً، يستحيل أن يتعدد، وإلا لتركب من (ما به الامتياز) و(ما به الاشتراك) فلزم التعدد، وهذا خلف.. وقد فصَّلنا الحديث عن ذلك في كتاب (الضوابط الكلية لضمان الإصابة في الأحكام العقلية)[2]، على

---

(١) ولأمير المؤمنين عليه السلام كلام دقيق حول ذلك يفوق ما أشرنا إليه ولعل مفاده أن (الواحد) وإن نفى (وقوع) الثاني والثالث إلا أنه لا ينفي (إمكانه) إذ للواحد إطار عام هو (النوع) لذا لابد من (الأحد) وستأتي الإشارة له في المتن بعد قليل والله العالم.

(٢) مخطوط.

ضوء قول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الأولى من نهج البلاغة؛ (وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّه)..

توحيد الصفات

وأما توحيد الصفات؛ فإنه لو كان الله سبحانه وتعالى متصفاً بصفات ليست عين ذاته لكان لزم أحد المحذورين:

فإما أن تقول: إن المجموع هو الله، يعني مجموع المعروض، والعارض، يعني (هذه الذات المتصفة بالعلم)، مجموعها الله، وهذا يعني أن له أجزاء، وبديهي أن الكل محتاج إلى جزأيه أو أجزائه، فليس هو بإله إذن، لأن الإله لا يحتاج إلى أي شيء أبداً..

أو أن تقول: بأن الله هو (المعروض) فقط، فيلزم أن يكون الله تعالى في حدِّ ذاته مُجرَّداً عن العلم، والقدرة.. ومحتاجاً إلى خارج ذاته، لأنك، قلت: (المعروض) وحده فقط، هو الله، فستكون صفات العلم والقدرة والحياة وغيرها خارجة عن ذاته فاحتاج إلى غيره، والخلاصة أنه هناك أحتاج إلى جزئه الداخل، وأما هنا فهو يحتاج إلى غيره الخارج..

إذن التوحيد بالمعنى الأول، والتوحيد بالمعنى الثاني، يُستفاد من ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾..

وأما التوحيد بالمعنى الثالث، والرابع يعني توحيد الأفعال، والعبادة فهي تُستفاد من كلمة ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

معاني الصَّمد

قلنا بأن إحدى البراهين على كل ذلك (التوحيد بمراتبه) تنبع من داخل كلمة (الصمد) بذاتها.. وتوضيح ذلك يكون بالجواب على هذا السؤال:

(الصمّد) ماذا يعني، وما هو معناه اللغوي؟

الصمد: يعني المصمود إليه، أي المقصود، والمقصود بالذات، وفي الدعاء: (**اللهم إليك صمدت من أرضي..**)[1] يعني إليك قصدت، فالصمّد بمعنى المقصود، وصمد يعني قصد، فـ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ﴾؛ يعني: المقصود أولاً وبالذات هو الله سبحانه وتعالى، والمقصود إليه بالحوائج: هو الله سبحانه وتعالى.. والمقصود لجميع الخلائق من جنّ وإنس، هو الله سبحانه وتعالى.. والمقصود عند الشدائد، هو الله سبحانه وتعالى..

الصمد ـ على إطلاقه ـ: (هو المقصود بالذات للكل، وبكل الجهات، ومن كل الجهات، ولكل الجهات، ولكل الخلائق)..

هذه الكلمة على اختصارها تضمنت المعنيين معاً توحيد الأفعال، وتوحيد العبادة، لأن الله سبحانه إذا كان هو المقصود للكل، ولكل شيء: فينبغي أن يُعبد وحده، ولا معنى لأن تَعبد شيئاً آخر..

وهو المقصود الأول والأخير، فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو مقصد الكل؛ وهو الذي يَصمد إليه الكل، في كل شيء في أفعالهم، في

---

(١) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق :ج٢ ص٦٠٥ .وداع الإمام الرضا عليه السلام، وراجع مفاتيح الجنان قسم زيارة الإمام الرضا عليه السلام .

حركاتهم، وسكناتهم، وأفكارهم.. فكل شيء صادر منه لأنه لو كان له شريك في الأفعال لم يكن المقصود وحده فكلمة الصمد تدلُّ على ذلك كله، وذلك مما استنبطناه بالتأمل في كلام الإمام الباقر عليه السلام.

بل إنه صلوات الله عليه يستخرج كل المعاني الأربعة للتوحيد وغيرها من (الصمد)، وليس المعنى الثالث، أو الرابع فقط، بل ما هو أسمى من ذلك بكثير.

وإنني استغربتُ قليلاً عندما قرأتُ كلام الإمام الباقر عليه السلام، المُفسر لكلمة (الصمد)، بحيث تُستفاد منها هذه المراتب التوحيدية الأربعة، وغيرها، وذلك عندما طالعت تفسير الصافي[1] فوجدت أن كلام الإمام ظاهراً غريب ـ أعني بالضبط أنني لم أفهم كلامه عليه السلام ـ ولكن بعد أن نُحلل كلام الإمام نرى أن كلامه جداً دقيق، وجداً واضح، وهذا بقدر ما توصلتُ إليه وإلا فإن كلام الإمام الباقر عليه السلام أوسع أبعاداً، وأعمق دلالة، بكثير بما لا تبلغ نسبة ما نفهمه قياساً لعلومه ذرة من قطرة في البحر المحيط، بل البون أوسع، وأوسع بما لا قياس وأعتذر إلى الله من التقصير والقصور والجُرأة..

اثنا عشر معنى لـ(الصمد)

لاحظوا أن الإمام الباقر عليه السلام يذكر معاني للصمد، يبدو ظاهراً أنها ليست مترابطة، ولكن لدى التأمل فيها نجدها مترابطة أشد الترابط، برباط من نور العلم اللدني، والعلاقة بينها علاقة اللازم، بالملزوم أو الملازم له.. ونحن نحاول أن نستدلَّ فقط، ببرهان (اللغة) لأن الإمام

(١) للفيض الكاشاني رحمه الله..

يستدل أيضاً ببرهان (الحروف)، وتوجد براهين أخرى لن ندخل فيها الآن لأنها مُعمَّقة ومُطولة، محلها في علم الكلام والعقائد، وقد مهَّدنا هذه المقدمة حتى يتضح جانب من كلام الإمام فقط..

نستدل ببرهان (اللغة) على هذا المعنى الذي يقوله الإمام عليه السلام؛ لاحظوا كلام الإمام الباقر عليه السلام حتى نعرف كيف أن ثقافة (العبادة) الحقيقية الحقّة للحق تعالى، وهي ثقافة (يعبدون)، وعبودية الله سبحانه وتعالى، بأسمى مراتبها خالصة من كل شرك، لا تُأخذ إلا من أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام)، فهم الطريق إلى (يعبدون) فإذا أردت أن تصل إلى حقيقة العبودية، وكُنه العبودية خالصةً من كل شرك، وشك، وزيغ، وكفر، ونفاق، فخذ ذلك من أهل البيت عليهم السلام..

المعنى الأول للصمد: قال الإمام الباقر عليه السلام: (حدثني أبي زين العابدين، عن أبيه الحسين بن علي عليهما السلام، أنه قال: **الصمّد الذي لا جوف له..**)[1]

وهذا هو المعنى الأول الذي يذكره الإمام لـ(الصمد)؛ يعني أنه لا مَدخل له؛ فإنه إذا كانت الصفة غير الذات صار لها جوف، أنا لي جوف، إذ علمي عَرَضَ عليَّ فيوجد جوف هو أنا المعروض، ويوجد ظاهر قد عرض على الجوف.. أي يوجد جوّاني وبرّاني..

أما الله سبحانه فصفاته عين ذاته؛ هذه الكلمة تشير إلى توحيد الصفات (الذي لا جوف له) ليس له ظاهر، وباطن (هو الأول، والأخر،

---

(١) تفسير الصافي للفيض الكاشاني: ج٥ ص٣٩١ تفسير سورة الإخلاص.. وتفسير نور الثقلين للحويزي: ج٥ ص٧١١..

الظاهر، والباطن)[1] ظاهره باطنه، وباطنه ظاهره،لا أن أحدهما غير الآخر، وأحدهما عارض والآخر معروض.. أما أنا فلي جوف وفي رواية أخرى: لا مدخل له.. أنا لي مدخل لأن داخلي غير ظاهري، أما الله تعالى فالظاهر عين الباطن ليس له مدخل، فإن ما لا جوف له، لا مدخل له..

المعنى الثاني: (للصمد) كما يذكره الإمامعليه السلام: **(الصمد الذي قد انتهى إليه السؤدد)**؛ أي المجد والشرف.. أعتقد أن هنا - في تفسير الصافي - يوجد خطأ مطبعي، ولذا عبرّتُ بالنَّص الموجود في مجمع البحرين، (الصمد: الذي انتهى إليه السؤدد)، وهنا في الصافي مكتوب: (الذي انتهى سؤدده).. وهذا ظاهراً خطأ مطبعي، أو له توجيه، والظاهر أن الصحيح؛ هو (الصمد الذي انتهى إليه السؤدد)، يعني ينتهي إليه كل مجد، وكل شرف، وكل رفعة، وكل منزلة ومقام...

المعنى الثالث: (والصمد: الذي لا يأكل ولا يشرب).. ما هو الرابط بين هذه المعاني؟

المعنى الرابع والخامس: (والصمد: الذي لا ينام، والدائم الذي لم يزل، ولا يزال).. هذه المعاني كلها صحيحة ولكن ما هو الرابط بينها؟

والإمامعليه السلام كيف يكتشف هذه المعاني التوحيدية المختلفة، من هذه الكلمة البسيطة في ظاهرها، وما هو الرابط بين (الدائم الذي لم يزل ولا يزال)، مع (الذي لا ينام)، مع (الذي لا يأكل، ولا يشرب)، ومع الذي (لا جوف له)؟

المعنى السادس: وبعد ذلك، قال الإمام الباقرعليه السلام: كان محمد بن

(١) من الآية الثالثة لسورة الحديد ..

الحنفية،[1] يقول: (الصمد القائم بنفسه الغني عن غيره).. وهذا معنى من معاني للصمد.

المعنى السابع: وبعد ذلك المعنى الآخر للصمد: (المتعالي عن الكون والفساد)..

المعنى الثامن: والمعنى الآخر للصمد: (الذي لا يوصف بالتغاير)، وهذا توحيد الصفات مرة أخرى، يعني تغاير الذات عن الصفات، أو تغاير صفاته بعضها عن بعض..

المعنى التاسع: والمعنى الآخر للصمد: (السيد المُطاع الذي ليس فوقه آمر ولا ناهي)، هذا توحيد العبادة (السيد المطاع)، المطاع الأول، والأخير هو الله لا غير..

المعنى العاشر: الإمام الباقر، سأل علي بن الحسين عليه السلام عن الصمد، فقال: الصمد الذي لا شريك له.. توحيد الذات..

المعنى الحادي عشر: (ولا يؤدوه حفظ شيء)، و(لا يعزب عنه شيء)..

المعنى الثاني عشر: (الصمد) هو ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ هذه المعاني الاثنا عشر التي ذكرتها عدة روايات مباركات، وقد ورد في رواية طويلة وجميلة بل أكثر من رائعة وكل الروايات روائع وأكثر من روائع نقلها الإمام الصادق، عن أبيه الإمام الباقر، عن جده الإمام الحسين، عن جده رسول الله (صلوات الله تعالى

(١) هو محمد بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وعُرف بأمه، وكان من أبطال الهواشم، وعلماءهم، وله مواقفه المشهودة..

عليهم جميعاً) وشرحها يحتاج إلى مجلد ضخم للوقوف على أسرارها النورانية، وخفاياها الملكوتية، وفوائدها الربانية..

(الصمد) ينسف أوهام الفلاسفة

وقبل الإجابة عن هذا السؤال وتوضيح وجه الربط، أقول: إن هذه المعاني المتعددة التي يذكرها الإمام عليه السلام، هي ذات دلالات بالغة، ومنها: أن كل معنى من هذه المعاني ينسف مقولة باطلة..

مثلاً الفلاسفة لهم مقولة باطلة هي العقول العشرة.. العقول العشرة حسب قاعدة (الواحد لا يصدر منه إلا الواحد)، يقولون: الله لم يخلق إلا العقل الأول، ولا يستطيع أن يخلق إلا العقل الأول، والعقل الأول خلق العقل الثاني، والفلك الأول إلى آخر هذا الكلام السخيف، والباطل ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾.[1]

هذا الكلام الفلسفي عبارة أخرى عن كلام اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ لكنهم هم المغلولة أيديهم وعقولهم ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾، الله لا يستطيع أن يخلق شيئاً ثانياً؟ الله لا يخلق إلا العقل الأول؟ والعقل الأول يخلق شيئين، وهكذا وهلمَّ جراً؟ الله لا يقدر؟! وهو(القادر على كل شيء) و﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ و﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ و﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ ومخلوق من مخلوقاته يقدر؟! وبوهم (كثرة اعتبارية)؟

(الصمد): ينسف هذا الوهم الفلسفي، وأشباهه، إذ (الصمد) القائم بنفسه، الغني عن غيره، فلا يحتاج إلى مخلوق، الذي هو العقل الأول،

---

(١) (المائدة:٦٤)

أو غيره، حتى يخلق شيئاً آخر كلا.. هو الخالق لكل شيء، وهذا هو معنى توحيد الأفعال (القائم بنفسه الغني عن غيره)..

والآن لنعد إلى السؤال الجوهري:

ما هو الجامع بين هذه المعاني التي ذكرها الإمام الباقر عليه السلام؟ حيث رويت عنه متفرقة، في عدَّة روايات وقد ذكر في بعضها خمساً منها، وثلاثاً في البعض الآخر، ومعناً واحداً فقط في بعضها.[1]

الرابط الجوهري بين تلك المعاني

في بدء النظر يبدو أن المعاني متباعدة من الناحية النظرية، لكن لها رابطاً جوهرياً، وكما قلنا فإن كل معنى من هذه المعاني ينسف مقولة باطلة، فلسفية أو غيرها، مثلاً؛ (ولا يعزب عنه شيء)، فقد قلت بأن هذا إشارة إلى نسف كلام الفلاسفة، إذ قسم آخر من الفلاسفة يقولون: بأن الله سبحانه وتعالى لا يعلم بالجزئيات..[2] لأن علمه بالجزئيات يستلزم التغير في ذاته؟!

كلام من أسخف ما يكون، يقول: إن الله عالم بالجزئيات على الوجه الكلي، يعني أن الله لا يعلم أني أمشي، وإنما يعلم أن هناك كلياً للمشي، وأن هناك كلياً للإنسان، لأن الكلي لا يتغير، أما المشي فيتغير، فإذا تغير المشي تغير الله!! أقول ما هو الربط والعلاقة وأي تلازم هنالك؟ إنه توهم أن علم الله تعالى (حصولي) فتوهم التغير، ولم يعلم

---

(١) راجع تفسير الصافي للفيض الكاشاني في ذلك لتجد عدداً من الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام بهذا الشأن..

(٢) وقيل لا علم له بذاته وقيل لا يعلم معلولاته

أن الله علمه (حضوري) كما هو المشهور، فلا يلزم التغير، ونحن نرى أن علمه فوق الحضوري أيضاً، وقد فصَّلناه في بعض كتبنا، فليراجع.[1]

وعلى أي تقدير فكل كلمة من كلمات الإمامعليه السلام، يثبت فيها التوحيد الخالص، وينسف نظرية من النظريات الباطلة، كما ينسف التجسيم أيضاً.

ولنعد إلى كشف الرابط في هذا الحديث الشريف فما هو الرابط؟

بمعنى: أن هذه المعاني كيف تستوحى من كلمة (الصمد) وحدها، والإمام يقول: (لنشرت التوحيد) لاحظوا كلمة الإمام: (لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عزّ وجلّ حملةً لنشرت التوحيد، والإسلام، والإيمان، والدين، والشرائع من (الصمدّ)..)

الناس عادة لا يتحملون فهم الحقائق العالية، وللتقريب فقط، نمثل بأينشتاين إذا بدأ يشرح نظريته النسبية لطفل عمره سنة فهل يفهم ما يقول؟ لا يفهم شيئاً، والإمام الباقرعليه السلام، لو أراد أن يشرح علومه لأينشتاين فإنه لا يفهم منها شيئاً! لأن أينشتاين بالنسبة للأمام الباقرعليه السلام مثل طفل عمره سنة يريد أن يفهم أدق المعادلات الفيزيائية أو الميتافيزيقية، فإنه من الطبيعي أن لا يفهم، لذا نجد أن الإمام وسائر الأئمةعليهم السلام لم يستطيعوا أن ينشروا علومهم.. كلا.. بل ولا حتى عشر معشار من علومهم، والمؤسف حقاً أن ما بأيدينا من علومهم لا نهتم به، ولا نطالع الكتب التي سطرت خَلَدَت تلك العلوم، ولا نعرف قيمة هذه الثروة الهائلة.!!

---

(١) راجع الكتاب: (الضوابط الكلية لضمان الإصابة في الأحكام العقلية) للسيد دام ظله.

ماذا يعني ذلك؟ يعني ليس عندنا القابلية لأن ننهل من نمير علوم أهل البيتعليهم السلام (لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عزّ وجلّ حملة لنشرتُ التوحيد..من الصمد)..

المعنى اللغوي لـ(الصمد)

والآن لنتوقف قليلاً فقط عند المعنى اللغوي لكلمة (الصمد) ونترك الاستدلالات الأخرى للإمامعليه السلام التي هي علوم من نمط ثاني، مثل علوم (الأحرف)، وغيرها..

(الصمد) معناه اللغوي هو: المقصود إليه، المصمود إليه، المطلوب بالذات..

هذا هو معنى (الصمد): يعني المقصود بالذات، وإذا لاحظنا هذا المعنى نجده متضمناً لكل المعاني الأربعة التوحيدية ونجدها منطوية فيه.. وإذا أردتم مرجعاً ترجعون إليه بعد ذلك فراجعوا أمهات مصادرنا في التفسير والحديث والكلام.[1]

وسوف أبسِّط المطلب، فأقول:

يوجد برهان في الفلسفة يسمى: (برهان الصدّيقين).. وهذا من أشرف ـ حسب تعبيرهم ـ البراهين الفلسفية لإثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى، وبرهان (الصديّقين) مأخوذ من كلام الله سبحانه وتعالى[2]

---

(١) راجع مثلاً تفسير البرهان للسيد البحراني رحمه الله، ونور الثقلين للحويزي رحمه الله، والصافي للفيض الكاشاني رحمه الله، والبحار للمجلسي رحمه الله وغيرها..

(٢) حيث يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وفي دعاء الإمام عليه السلام: (يا من دلَّ على ذاته بذاته).

ومفسره الإمام الباقر عليه السلام إذ كان الله سبحانه وتعالى، (الصَّمد)..

الصمد الحقيقي يعني المقصود إليه، المطلوب بالذات، المقصود بالذات، فليس هنالك شريك وإلا كان هناك شيء آخر مصمود إليه، وكان هناك شيء آخر صمد أيضاً، وهكذا نستنبط توحيد الذات من (الصمد).

ثم إن الله سبحانه وتعالى ليست صفاته خارجة عن ذاته، لأنه إذا كانت صفاته خارجة عن ذاته، كان (له صمد) لأنه يقصد صفاته من علم وقدرة وحياة.. فيطلبها فما كان هو الصمد الأول المصمود إليه نهائياً.

يعني كان له (صمد) يعني أنه هو يتجه إلى علمه الذي هو خارج ذاته، إلى إرادته، إلى قدرته، إلى خارج إرادته، ويطلبها ويحتاج إليها.. والفرض، أن: (الله) هو (الصمد)؛ يعني كل شيء يتجه إليه فلا يوجد شيء يُتَّجَهُ إليه خارجاً إلا وهو محتاج إلى الله تعالى، وإلا إذا كان الله سبحانه محتاجاً لشيء لكان الشيء الآخر (صمداً) له، فلم يكن ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ﴾ على الإطلاق، فتوحيد الصفات موجود هنا، متضمنٌ في (الصمد)..

و(توحيد الأفعال)، بـ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ﴾ فإذا كان هناك فعل لا ينتهي إلى الله، فيستمد طاقته، وقدرته من غير الله، فلم يكن الله هو (الصمد) على الإطلاق، بل كان هناك صمد، ومصدر آخر يُقصد، ويُصمد له، وإذا كان الله سبحانه هكذا وبهذه الصفات فمن الطبيعي أنه يجب أن يُعبد وحده دون غيره وهذه هي المرتبة الرابعة من التوحيد.

وهكذا اختصرتُ، ووضحتُ، وحاولتُ أن أبسِّط كثيراً (معنى) كلمة واحدة لغوية، والإمام (عليه الصلاة وأزكى السلام) أفادنا بكل هذه المعاني التي استنبطها، بهذا التوضيح المتواضع الذي نحن وضَّحناه..

لاحظوا هذه المعاني التي قرأتها لكم، كل هذه المعاني مجموعة في هذه الكلمة، (الصمد) أي (الذي انتهى إليه السؤدد) و(القائم بنفسه الغني عن غيره) أي المقصود بالذات، المقصود الأول، المنتهي إليه المطالب..

والمنتهي إليه المطالب والأشياء، لا ينام بطبيعة الحال.. وإلا كان محتاجاً إلى النوم، كما لا يكون جسماً، وإلا لاحتاج إلى (الحيِّز) و(الزمان) و(المكان)، واحتاج إلى أجزائه، فلم يكن حينئذ هو(الصمد) المطلق، بل كان غيره (صمداً له) ومطلوباً له، ومقصوداً له، ولم يكن غنياً عن غيره.

كما أن (الصمد) لا يأكل ولا يشرب، وإلا كان محتاجاً للأكل والشرب، ولم يكن (صمداً) بل كان صمده ومطلوبه ومقصوده غيره.

و(الصمد) لا يوصف (بالتغاير) إذ لو كانت ذاته غير صفاته، وصفاته بعضها مغايراً للبعض الآخر.. لم يكن (صمداً) بل كانت (أجزاءه) (صمداً له)، أو كان (عارضه) (صمداً له) ومطلوباً له، كما أوضحنا من قبل..

و(الصمد) (لا يعزب عنه شيء) (ولا يؤده حفظ شيء) وإلا ما كان صمداً إذ كان محتاجاً في (علمه) إلى غيره، وفي (حفظه) إلى غيره.. وهكذا..

وبنفس الملاك والاستدلال نعرف: أن (الصمد) لا جوف له ولا

مدخل، وإلا كان مركباً والمركب محتاج لأجزائه فليس (صمداً) بل أجزاؤه، صمد له..

وهكذا نعرف أنه (الصمد) أي (القائم بنفسه، الغني عن غيره) و(الدائم الذي لم يزل ولا يزال) وهو الله وحده، لا شريك له ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾..

وأننا سنكتشف واحداً أو أكثر من مراتب التوحيد الأربعة، من كل مفردة من مفردات شروح الإمام الإثني عشر، لكلمة (الصمد).. فمثلاً، قوله: (الصمد الذي لا جوف له) يفيد التوحيد في الصفات، ولدى الدقة فإنه يفيد التوحيد الذاتي أيضاً، إذ ما لا جوف له بقول مطلق يستحيل تعدده، وإلا كان له جوف وما به الاشتراك والامتياز فلم يكن صمداً ولم يكن بلا جوف فهذا خلف..

و(القائم بنفسه الغني عن غيره) يفيد توحيد الأفعال وتوحيد العبادة أيضاً.. و(الذي انتهى إليه السؤدد) يفيد المراتب التوحيدية الأربعة.. وهكذا وهلمَّ جراً.. مما ذكرناه في كلام الإمام عليه السلام وللحديث تتمة..

نسأل الله أن يوفقنا لنكون من حملة علومهم عليهم السلام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

ملحق

وقد نقل أخونا الكريم محقق هذا الكتاب عن تاج العروس؛ للزبيدي:ج٥ ص٦٦ـ ٦٨ ما يلي:

(الصَّمْد، بفتح فسكون: القصد؛ صمده، يصمده، صمداً، وصمده، يصمده، صمداً، وصمد إليه، كلاهما: قصده، وصمد صمداً الأمر، أي قصد قصده، واعتمده.

وفي حديث معاذ بن عمرو بن الجموح في قتل أبي جهل: فصمدت له حتى أمكنتني منه غرة أي وثبتُّ له وقصدته، وانتظرت غفلته.

ويقال لما أشرف من الأرض: الصمْد، بإسكان الميم.

والصمد: المكان المرتفع الغليظ من الأرض، لا يبلغ أن يكون جبلا، وجمعه: أصماد، وصماد وقال أبو عمرو: الصمد: الشديد من الأرض.

والصَّمَد بالتحريك: السيِّد المطاع الذي لا يقضى دونه أمر.. وهو من صفاته تعالى وتقدس، لأنه أصمدت إليه الأمور فلم يقض فيها غيره.. وقيل: الذي يُصمد إليه في الحوائج، أي يُقصد..

وقيل: الصمد: الذي لا يُطعم..

وقيل: الصمد: السيد الذي قد انتهى سؤدده (مجده).

وقيل: الصمد: الدائم الباقي بعد فناء خلقه..

وقيل: الصمد: الذي صمد إليه كل شيء، أي الذي خلق الأشياء كلها، لا يستغني عنه شيء، وكلها دالٌّ على وحدانيته.

والصمد: الرفيع من كل شيء..

وقيل: الصمد مُصمت، وهو الذي لا جوف له، وهو المصمد أيضاً، عن ميسرة، وهذا لا يجوز على الله تعالى). انتهى ما نقله.

أقول: وقد أوضحنا أن هذا المعنى هو الدقيق في الله تعالى، لأنه لا جزء له ولا داخل وخارج له، بل هو بسيط الحقيقة تماماً.

ولا يخفى أن هذه المعاني التي ذكرها اللغويون، بعضها مقتبس من أحاديث الأئمة عليهم السلام وإن أجحفوا بعدم نقلها عنهم، أو أجحف أساتذتهم بعدم نقلها عن مَن تلقوه منه، إذ يشهد التاريخ أن أمثال أبي حنيفة تتلمذوا عند الإمام الصادق عليه السلام، لكنهم لم يرووا عنه إلا القليل حتى يظن السامع أن هذا مما وصل إليه بنفسه رغم اعترافه بـ(لولا السنتان لهلك النعمان)[1] هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإن بعض المعاني المتداولة سابقاً لـ: (الصمد) وإن كانت موجودة، إلا أن تفسيرها وكيفية إنطباقها على الله تعالى كان هو المحتاج

---

(١) التحفة الاثني عشرية للآلوسي: ص٨.

للرجوع إلى الأئمة الأطهار عليهم السلام.

وثالثاً: أن نفس (انطباق) معنى دون آخر، لابد له من مرجعية (الثقل الأصغر) ولهذا تفصيل نتركه لمحله والله المستعان.

[٤]

آية المودة وأجر الرسالة الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾.[١]

(١) (الشورى:٢٣)

آية المودة برهان على صحة مئات الروايات:

وفي الرواية عن الإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام) - وعلينا أن نكتشف (الرابط) وعمق (الترابط) بين هذه الآية الشريفة، وهذه الرواية- الإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام)، يقول: (من زار **الحسين عليه السلام محتسباً لا أشراً، ولا بطراً، ولا رياءً، ولا سُمعة، محّصت عنه ذنوبه، كما يمحّص الثوب بالماء، فلا يبقى عليه دنس، ويُكتب له بكل خطوةً حَجة، وكلما رفع خطوةً عُمرة..**)[1]

ظاهر هذه الرواية؛ أن الإنسان كلما رَفَع الخطوة - أي بمجرد رفعها فقط- يستحق أجر عُمرة، فإذا أكمل الخطوة، أستحق أجر حَجة، أي يُكتب له بكل خطوةٍ كاملة من البداية للنهاية حَجة، وكلما ابتدأ برفع قدمه أي رفع خطوةً كتبت له عمرة.

هذا الأجر العظيم على زيارة سيد شباب أهل الجنة، قد يبدو مستغرباً إلى أبعد الحدود عند غير ذوي البصائر النافذة، فكيف يمكن أن تكون زيارة الإمام الحسين عليه السلام بهذه العظمة، بحيث يستحق زائره على المشي فيها بكل خطوةً حَجة وعُمرة أيضاً؟

زائر الإمام الحسين عليه السلام يشيعه جبرائيل وميكائيل

وفي رواية ثانية - وهذه الروايات صحيحة وموجودة أيضاً في كامل الزيارات وغيره والذي اعتبره بعض أعاظم الفقهاء، لفترةً من الزمن،

---

(١) كامل الزيارات: ص٢٧٣، والتمحيص هو التنقية والتخليص والتنظيف..

بأجمعه صحيح الإسناد، وبقي على هذا الرأي بعض الأعلام أيضاً وهو الأصح نجدها تصرح بما مضمونه ـ: (أن الإنسان (إذا خرج) (لو خرج)، إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام فإن جبرائيل يُشيِّعه إلى أن يصل إلى كربلاء، ثم يُشيِّعه إلى أن يصل إلى أهله، ومعه ميكائيل ومعه اسرافيل..)(١)

فهؤلاء الكرام؛ ثلاثة من أعظم ملائكة الله (الكروبيين)، يُشيعون زائر الحسين عليه السلام مهما كان، وأنَّى كان، وحيث كان، ومتى كان ذلك..

إن هذه الرواية وأشباهها كثير، وهي تتجاوز المئات ولعلها تبلغ الألوف مما هي متواترة بالتواتر الإجمالي الذي لا ريب فيه، بل لعلها متواترة بالتواتر المضموني، وبعضها صحيح السند، وبعضها حسن السند، وأما الجامع فهو أنها متواترة بالتواتر الإجمالي، فلا شك، في هذه الروايات، وأما الآية الشريفة التي تلوناها، فهي تتضمن معاني عميقة،وواسعة، وشاملة، ودقيقة جداً، وهذه الآية الكريمة تعد من الأدلة العامة والقرائن العامة على صحة أمثال هذه الروايات.

وبعبارة أخرى إن من ثمرات هذه الآية الشريفة؛ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ ومن نتائج هذه الآية، والدِّقة فيها، وكشف بعض دقائقها، إقامة بُرهان جديد ـ قرآني قطعي- على صِحَةِ مثل هذه الروايات.

---

(١) راجع كامل الزيارات لتقف على تفاصيل هذه الروايات الشريفة..

القرطبي: بكت السماء على الحسين عليه السلام

فلنتأمل قليلاً في الآية الشريفة، ثم نرى كيف تكون هذه الآية برهاناً قرآنياً قطعياً على صِحة مثل هذه الرواية، وهذه الروايات الشريفة، بل روايات أخرى أيضاً، تكشف عن أبعاد كونية تكوينية ترتبط بالإمام الحسين عليه السلام، وشهادته، وما يرتبط به مثل ما رواه القرطبي - وهو من أعاظم علماء السنة: يقول السدّي: لما قتل الحسين بن علي عليه السلام بكت عليه السماء.[1] ما هذا الكلام؟

هذا ليس كلام علماء الشيعة فقط، بل علماء السنة أيضاً يذكرونه، (بكت عليه السماء، وبكاؤها حمرتها)، ونحن من خلال الآية الكريمة، سوف نُقيم برهاناً بيّناً بإذن الله سبحانه وتعالى، جلياً، واضحاً على صحة، مختلف هذه الروايات التي ينقلها الشيعة، والسنة، سواء الروايات التكوينية مثل هذه الرواية: (أن السماء بكت عليه دما)، أو (كان تحت كل حجر دم عبيط طري)[2] أم الروايات التشريعية: كجواز أكل شيء من تربته للاستشفاء مع أن أكل التراب حرام وجواز التعرض لقطع اليد بل وللقتل في طريق زيارته، أم الروايات التي تذكر أجراً وثواباً عظيماً على زيارته، أو محبته، أو لعن قاتله، أو سقي زائره، أو ما أشبه ذلك.

فلنبدأ بالآية القرآنية الكريمة ولنتأمل فيها، ونتدبر فيها بعض التدبر، لما فيها من الموضوعية، إلى جانب أثبات هذه الروايات الشريفة،

---

(١) تفسير القرطبي،ج١٦ ص ١٤١،وفيه عدد من الروايات في الباب،وتتمة الحديث المنقول (وبكاؤها حمرتها)..

(٢) بخصوص هذه الروايات الكثيرة،راجع البحار :ج٤٥ ص٢١٥ ،ومدينة المعاجز للبحراني :ج٤ ص١٥٤،وكامل الزيارات وغيرها..

وأشباهها أيضاً..

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾..

(قواعد التجويد) وإغناؤها لـ(المعنى)

أشرنا في بعض البحوث السابقة إلى أن (قواعد التجويد) ليست خاوية عن (المعاني) والدلالات، وليست المفردات ـ أي المادة فقط ـ لها معنى، بل الصيغة لها معنى، أي الهيئة لها معنى، وقواعد التجويد لها دلالاتها أيضاً.. ذلك أن (الفعل) له مادة، وله هيئة، فالمادة تدل على معنى، والهيئة تدل على معنى زائد، وقواعد الإعراب من الرفع، والضم، الفتح، والنصب، الجر، والكسر، وغيرها، هذه كلها لها معاني، إضافة إلى ذلك؛ فإن قواعد التجويد أيضاً لها معاني، ودلالات، وليست أموراً جمالية فقط، وإنما هي أمور حقيقية ذات دلالات عميقة.

وهنا تلاحظون: أن في الآية الشريفة ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ أنه يوجد مدّ في هذه الآية في كلمة ﴿لَّآ﴾، ولعل البعض يراه واجباً، ولعل من وجوه وجود هذا المدّ: تأكيد النفي فليست مجرد ﴿لَّآ﴾ فحسب، بل هي ﴿لَّآ﴾ مؤكدة وذات مدّ، أنت قد تقول: ﴿لَّآ﴾، وقد تقول: (لآ..) والله سبحانه هنا استخدم الآية بحيث جاءت الهمزة بعدها فصار المد لازماً بحيث تضطر حسب القواعد أن تمدّ (لآ)، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ حتى يكون (الاستثناء) بنفس تلك القوة أيضاً ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فقواعد التجويد ـ حسب تحقيقنا ـ كل قاعدة فيها، فإن لها معنى، وتفيد فائدة، ولها

حكمة، وموقع، ودلالة، والقرآن الكريم كأدق ما يكون في كل شيء، ومنه قواعد التجويد، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾..

قصة نزول آية المودة وامتحان الأصحاب!

نبدأ بشأن نزول الآية، ثم نتدبر في الحديث: جاء في كتاب (قرب الإسناد) وأيضاً في مصادر كثيرة أخرى:

أن رسول الله ﷺ عندما نزلت عليه هذه الآية الشريفة، خرج وجمع الناس في المسجد، وقال:

(أيها الناس إن الله قد فرض لي عليكم فرضاً فهل أنتم مؤدوه؟)

فسكت الناس؛ وهذا امتحان النبي عندما لم يَرَ منهم تجاوباً، لم يقل شيئاً وأعرض عنهم.

وهذا من هوان الدنيا على الله، أن رسول الله، وأعظم خلائق الله، يطلب من الناس شيئاً، والناس يسكتون، ولا نزال نحن الكثير منا ساكتين، هل نحن عملنا بهذا الفرض؟ كلا..وسائر الفرائض؟ كلا.. وإلا لما كانت سامراء، والبقيع لا تزال مُهدَّمة لحدِّ الآن، وإلا لما كان أتباع أهل البيت عليهم السلام يضطهدون في كثير من الدول، ولا نحرك ساكناً، ولا نملأ العالم بالمظاهرات والإضرابات والمقالات والدراسات وغيرها ـ.

النبي ﷺ جاء اليوم الثاني، وقال: أن الله قد فرض ـ لاحظوا أنه ليس مستحباً بل هو فريضة ـ لي عليكم فرضاً فهل أنتم مؤدّوه.؟

الناس سكتوا (هل هؤلاء الصحابة الذين يدخلون الجنة كلهم!!)،

النبي أعرض عنهم مرة أخرى ودققوا أن إعراض النبيﷺ عنهم يعني إعراض الكون كله عنهم، يعني إعراض رحمة الله عنهم.

وفي اليوم الثالث جاء إلى الناس، وقال: أيها الناس أن الله قد فرض لي عليكم فرضاً فهل أنتم مؤدّوه.؟ ومرة ثالثة ولليوم الثالث على التوالي: (الناس) سكتوا ولم يستجيبوا لرسول رب العالمينﷺ رغم أن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[2]..

وعندئذ قال النبيﷺ لهم: **(هوّنوا عليكم، لأنه ليس بالذهب، ولا فضة، ولا مطعم، ولا مشرب..)** ـ لا تتصوروا أنني أريد منكم أموالاً فتظنون بها عن رسول الله ـ.

قالوا: فألقِهِ أذن.

فتلى عليهم هذه الآية الشريفة: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، وهذا هو الامتحان الإلهي.[3]

إن امتحان المال أيضاً، مما يمحص به كل إنسان سواء، الغني أم الفقير، وليس هناك فرق في امتحان المال، ولكن أحياناً أحدنا يُظهر، وأحياناً يُخفي ـ والعياذ بالله ـ.

ولنعد إلى الرواية التاريخية فإن النبيﷺ عندما تلى على مسامع

---

(١) الأنفال: ٢٤.

(٢) النجم: ٣٤

(٣) راجع كتاب آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي؛ الإمام عليعليه السلام في القرآن: ج٢، ص٢٩١، لتقف على بعض المصادر الهامة.

الناس هذه الآية ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فالناس ماذا قالوا؟

قالوا: أما فهذه فنعم، لقد استسهلوها وعدوها (سهلة) إذ ليس فيها (دفع فلوس)، ولا تضحية بالنفس والنفيس، بل حتى جهد عضلي وبدني، لا يوجد فيها عكس الجهاد في سبيل الله حيث يريق الإنسان دمه، أو يبذل ماله، أو أقصى جُهده العضلي، والبدني.

قالوا: أما هذه فنعم، ثم أضاف الإمام الصادق عليه السلام: فو الله ما وفّى بها إلا سبعة ـ فأين (صحابة) رسول الله إذن؟ ومَنْ هم السبعة؟ ـ سلمان، عمّار، المقداد، أبو ذر، جابر بن عبد الله الأنصاري، ومولى لرسول الله يسمى الثُبيت أو الثَبيت، وأيضاً زيد بن أرقم ـ فو الله ما وفّى بها إلا سبعة.[1]

ونتوقف هنا توقفين حول كلمة (ما وفَّى) كلمة قديمة، ومصداق قديم، وأخرى جديدة، ومصداق جديد:

البخاري يتعمد ترك الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام

أما المصداق القديم الآخر: فهو البخاري؛ إذ أنه في (صحيح البخاري) ـ هذا الكتاب الذي يُعدُّ عند أهل السنة من أقدّس الكتب بل أقدس كتاب على مرِّ التاريخ عندهم بعد القرآن الكريم ـ يروي عن مختلف الناس، ولكنه يتعمد أن لا يروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولا رواية واحدة مع أن الإمام الصادق عليه السلام إمام عظيم،

(١) قرب الإسناد: ص٧٩، والإختصاص للمفيد: ص٦٣، والبحار للمجلسي: ج٢٢ ص ٣٢١ ..

ومُعلِّم أئمة المذاهب الأربعة، وكلهم رووا عنه.

ولكن البخاري يرى نفسه أنه أكثر منهم تقدساً وفهماً للإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام). أليس هو من قُربى رسول الله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وحفيد رسول الله، وسبط رسول الله قريب للرسول ﷺ.

ولو فرضنا أن ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعم جميع المسلمين وهو رأي مُضحك ولو قلنا بتعميم ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وإنه يقصد به قريش كلها، وهو مضحك ومبكي أيضاً، فإن الإمام الصادق عليه السلام من ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بلا شك إذ إن حفيد الإنسان، وسبط الإنسان، هما من قربى الإنسان، ولا يستطيع الإنسان أن يتزوج حفيدته، على حسب استدلال الإمام الرضا (عليه الصلاة وأزكى السلام) في القضية المعروفة.

رغم تصريحات الشافعي وأبي حنيفة والذهبي وابن تيمية

الإمام الصادق هو ذلك الذي يقول عنه (أبو حنيفة): لولا السنتان لهلك النعمان..[1] (اسمه النعمان بن ثابت) وكنيته أبو حنيفة.

وهو الذي يقول عنه (الشافعي): ما رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر، أفضل من جعفر بن محمد (عليهما السلام) علماً، وعبادة، وورعاً.[2]

الإمام الصادق عليه السلام، هو الذي يقول عنه الذهبي هذا المتعصب

(١) الخلاف للشيخ الطوسي :ج١ ص٣٣

(٢) الخلاف للشيخ الطوسي :ج١ ص٣٣ ..

الغريب ضد أهل البيتعليهم السلام في الكاشف ما هو مضمونه: (روى عنه - أي عن الإمام الصادقعليه السلام- خلائق لا يحصون، منهم ابنه موسى الكاظمعليه السلام، وشعبة، وسفيان الثوري، وغيرهم من أعاظم علماء السنة ومالك، ووهب، وحاتم الإسماعيلي، وعبد الوهاب الثقفي، وأبو عاصم، ويحيى بن سعيد الأنصاري)[١] وإلى آخره.

هذا الإنسان العظيم هو الذي يقول عنه أيضاً (ابن تيمية) في منهاج السنة: (هؤلاء الأئمة الأربعة رووا عن الإمام الصادق الأحاديث، كما رووا عن غيره..)[٢].

وهذا غيض من فيض من الكلام الطويل عن عظمة الإمام الصادقعليه السلام ومكانته السامية وليس كلامنا حالياً حول هذه الروايات، فالإمام الصادق على عظمته التي اعترف بها القاصي والداني، صاحب صحيح البخاري يتعمد ترك الرواية عنهعليه السلام، حتى رواية واحدة لا ينقل عنه على الإطلاق.

ويروي البخاري عن الفسقة والقتلة

وفي المقابل نجد أن البخاري يروي عن الفَسَقَة، والمشهورين بالفسق، وعن النواصب، من أشباه (مروان بن الحكم)، الذي قتل طلحة، وهو من أهم أصحاب وصحابة رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم عند أهل العامة، الذين يقولون: إذا سب أحدٌ، أحدَ الصحابة فهو كافر.. فهذا قد قتل

(١) الكاشف في معرفة من له رواية في كتب الستة للذهبي: ج١، ص٢٩٥.
(٢) منهاج السنةإبن تيميهج٧ص٥٣٣

صحابياً من أعظم أصحاب رسول الله ﷺ عندهم.

لكن البخاري يروي عن مروان ـ ولاحظوا مروان مَنْ هو؟ إن مروان بن الحكم هو الذي يقول فيه ابن حبّان، وغيره: معاذَّ الله أن نحتجَّ بخبر رواه مروان بن الحكم ـ لاحظوا أعاظم علماء أهل السنة يقولون: معاذّ الله أن نحتج بخبر رواه مروان، ولكن البخاري يروي عن مروان، وهذا تراه في الجرح والتعديل، وفي سِيَر أعلام النبلاء، وتهذيب التهذيب، وغيرها من الكتب المختلفة.[1]

وأنقل لكم رواية ينقلها (الذهبي) هذا المتعصب، ضد أهل البيت عليهم السلام لكنه مع ذلك يقول: عن عمرو بن أبي مقدام قال: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد، علمتُ أنه من سُلالة النبيين، قد رأيته واقفاً عند الجمرة (العقبة) يقول سلوني، سلوني..)[2]

والروايات كثيرة في هذا الحقل، ولا أُطيل عليكم حالياً.. فالإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام)، الذي مودّته مفروضة في القرآن الكريم ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، يتعمد البخاري أن لا يروي عنه رواية واحدة، كما لا يروي عن الإمام الباقر عليه السلام، إلا رواية واحدة أو روايتين فقط..

---

(١) الجرح والتعديل: ج٨، ص٢٧١، سير أعلام النبلاء: ج١، ص٣٦و ج٣، ص٤٧٦، تهذيب التهذيب: ج١٠، ص٩١ عن «القول الصراح في البخاري وصحيحه» للأصبهاني.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج٦، ص٢٥٧.

رسول الله ﷺ يخاصم صاحب البخاري يوم القيامة!

والآن لنتصفح صحيح البخاري، كي نرى ما الذي يحكم به رسول الله ﷺ على البخاري، بتصريح البخاري نفسه، أي أننا نَزِن ونقيس (عمل البخاري) وموقفه على ضوء رواية ينقلها هو عن رسول الله ﷺ، وهذه الرواية نقرؤها في (كتاب البيوع الباب ١٠٦، وباب: أثم من باع حرّاً)..

هذا البخاري يقوم بمحاكمة نفسه وإدانتها شر إدانة، من حيث يدري أو لا يدري، لنر ماذا يقول؟ إنه يروي حديثاً قدسياً، قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة... (مَنْ هو الثالث)؛ ورجلاً استأجر أجيراً فاستوفى منه (أي العمل) ولم يعطه أجره).[1]

تصوروا شخصاً استخدم إنساناً، وقال له: تعال ابن لي هذا الجدار مثلاً... ثم مضى، يوم، يومان، شهر، شهران، ولم يعطه أجره أبداً فمن خصمه يوم القيامة؟ إنه الله سبحانه وتعالى، على عظمته، وجلال شأنه، فما بالك بمن لم يعط (أجر الرسالة) وهو (أجر) بصريح الآية الكريمة، وأي أجر هو؟ وما أعظمه من أجر! وهو أجر للرسالة الكبرى التي حملها على عاتقه أعظم أنبياء الله، إنه (المودة في القربى).

ثم لاحظ أي نُصْب وعداء يكمن في تعمد ترك حتى رواية واحدة عن الإمام الصادق عليه السلام الذي روى عنه الكل وملأت رواياته الخافقين وفي كتاب رواياته بالآلاف ويروي عن البر والفاجر ثم هو لا يروي عن سيد

---

(١) صحيح البخاري: ج٣، ص٤١، مسند أحمد: ج٢، ص٣٥٨، معرفة السنن والآثار للبيهقي: ج٤، ص٥٠٧، المحلى لابن حزم: ج٩، ص١٧.

الفقهاء ومنبع الروايات؟!

هذا هو التوقف الأول في هذه الآية الشريفة ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

مرجع الضمير في (عليه أجراً)

ولنتسائل عن (الضمير) في (قل لا أسألكم عليه أجراً) فلمن يعود هذا الضمير؟ ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

الجواب: أنه يعود إلى (البلاغ)، وبتعبير بعض المفسرين إلى (الرسالة)، وأنا أعبِّرُ بالبلاغ كي يتم التطابق بين الضمير، ومرجعه، والنتيجة واحدة، وبعض الروايات تقول مرجع الضمير (النبوة)، والنتيجة واحدة، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء برسالة من السماء، في المقابل يريد أجراً بنصِّ القرآن الكريم، فالذي لا يُعطي الأجر فهو خائن للرسالة بنص روايات أهل السنة.

فإن هذه الرواية التي نقلها البخاري، تكشف بوضوح عن أجلى مصداق لها وهو: (من لم يعطِ أجر رسالة الرسول في مودّة قرباه فهو خائن) بل إننا لا نحتاج إلى نص هذه الروايات، لأن الآية صريحة في ذلك ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فلو لم تودّ أولئك الأطهار وهم (قربى) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تكون قد خنت الأمانة ولم تدفع ما كان ينبغي أن تدفعه كأجرٍ للرسالة..

ما هي (الرسالة)؟

ولكن (الرسالة) وهي مرجع الضمير في ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أو فقل مرجع الضمير هو (إبلاغ الرسالة)، فأية رسالة كان يجب على الرسول إبلاغها؟ وقد جعل الله أجر إبلاغها ﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ما هي؟ دققوا جيداً، الرسالة هي:

أ_ التوحيد؛ هذه أهم قضية في رسالة رسول الله ﷺ فإن (كلمة لا إله إلا الله خفيفةً على اللسان ثقيلةً في الميزان)[1] ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ على إبلاغ التوحيد، والجهاد في سبيل إعلاء راية (لا إله إلا الله) على العالم.

فمَنْ الذي أتى لنا بالتوحيد الخالص؟ وعرّفنا على الله سبحانه وتعالى؟ إنه الرسول الأعظم ﷺ وهو لا يسألنا على إبلاغ هذه الرسالة _ وما أثقلها، وأعظمها من رسالة_ ﴿أَجْرًا﴾ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.. فأي (أجر) يمكن أن يعدل هذه الرسالة التي تتضمن التوحيد؟

ب_ وهذه الرسالة تتضمن فيما تتضمن (الإمامة) والسيدة الزهراء (عليها الصلاة وأزكى السلام)، تقول: (وإطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة..).[2]

ج_ وهي تتضمن فيما تتضمن العدل (بالعدل قامت السموات والأرض).[3]

---

(١) البحار للشيخ المجلسي :ج٨٨ ص ٤٨، وتتمته (فيها رضا الرحمن، وسخط الشيطان)..
(٢) البحار للشيخ المجلسي : ج٢٩، ص٢٢٣.
(٣) تفسير الصافي للفيض الكاشاني :ج٥ ص١٠٧.

د- وتتضمن فيما تتضمن كل الأعمال الصالحة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾.(١)

مَنْ الذي دّلنا على الإيمان، ودّلنا على العمل الصالح؟ إنه الرسول الأعظمﷺ وما هي عاقبة إيماننا وعملنا الصالح، إنه واضح بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِ﴾(٢)، وإلا لكانت عاقبة أمرنا (النار) لا سمح الله.

إن هذا البلاغ العظيم: بالتوحيد والنبوة والإمامة والعدل والعمل الصالح، قد أتى به الرسول لنا، وهذا هو الذي يريد الأجر عليه.. إنه يريد بأمر الله الأجر على ما هو أعظم من كل شيء وهو الرسالة وعلى ما ينتج من المثوبة ما لا يعدله شيء وهي ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي إنه يطالب بـ(مودة ذي القربى) كأجر لما هو في الموضوعية لا يوزن به شيء ولما هو في الطريقية لا يعد له شيء.

إذن جاء الرسولﷺ بـ(التوحيد، والنبوة، والعدل، والإمامة، والمعاد وتوابعها) الرسول الأعظمﷺ الذي جاء إلينا بكل هذه القيم والمعاني، أي أصول الدين، وفروع الدين، من العبادات، والمعاملات، والأخلاق، وغير ذلك، وهي إضافة إلى قيمتها الذاتية وكونها مما يطلب لذاته، ذات قيمة إضافية كونها الطريق الوحيد للخلود في النعيم المقيم، وفي المقابل يريد (أجراً).

فما بالك بمن لا يدفع الأجر.؟ ولا يود الرسول في قرباه؟! وما بالك

---

(١) (البينة:٧)

(٢) (الشورى:٢٢)

بمن يعرض عنهم؟ ويهمل أمرهم ويفضل عليهم غيرهم؟

بل ما بالك بمن ينسى ظلامتهم، فينسى البقيع وينسى الذود عن حريمهم؟ وينسى أو يهمل أو يتكاسل عن إيصال صوتهم وحبهم وولايتهم للعالم كله؟!

أجر (الرسالة) يجب أن (يوازنها)

والسؤال؛ ألا ينبغي أن يكون هنالك تجانس وتناسب بين الثمن والمثمن؟

لا شك في ذلك؛ فإذا كان هذا المنزل تريد بيعه لشخص بدرهم، والحال أن ثمنه مليون درهم أو دينار على سبيل المثال، فهل هناك تناسب بين الثمن والمثمن؟! كلا.

لابد أن يكون هناك تناسب، وتجانس بينهما وإلا كان البيع غررياً وسفهياً وباطلاً في هذه الصورة.

وفي الآية الشريفة ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ المثمن (ما هو)؟ إن المُثمن هو: كل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبلغه للناس، إن المثمن هو رسالة رسول الله، إن المثمن هو التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد، والجنة، وطريق السعادة، وإبعادنا عن طريق الشقاء، والنار.. وفي المقابل.. أي شيء يريد منا؟ يريد منا الأجر المحدد في الآية الكريمة.. وهو ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾..

وقد سبق أنه ينبغي بل يجب، أن يكون الأجر عندما يوضع في الكفة مما يوازن المؤجر عليه، هذا الذي توازن به الرسالة ليس ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي

﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ بنص القرآن الكريم ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ فلابد أن يكون هنالك تناسب، وإلا كان لغواً وباطلاً، وخلاف الحكمة ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فأي معنى عظيم تتضمنه هذه الكلمة؟

إنها ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ التي البخاري وأشباهه ضربوا بها عرض الحائط، ولا يزال الكثير من المسلمين يضربون بها عرض الحائط، ويا للأسى.. ويا للأسف..

الفرق الشاسع بين (اجراً) و(من أجر):

وقد تأملت قليلاً ـ ذلك لأن القرآن جداً دقيق في كل كلمة من كلماته، وفي كل حرف، بل في كل مدّ، ووقف، وسكون، توجد دلالة ـ فلاحظتُ أن القرآن الكريم، هنا يقول: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾..ولكن عادةً في الآيات الأخرى يقول: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] هنا يقول ﴿أَجۡرًا﴾، وهناك ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ وهذا وارد في مواطن عديدة في القرآن الكريم.[2]

القرآن الكريم عادة يأتي بكلمة (من) عندما يتحدث عن الأنبياء وطلب الأجر والأجرة، أما هنا فإننا لا نجد كلمة (من) وإنما (أجراً) مباشرة.. فقط.. ما هو السبب في ذلك؟ ولنستعرض بعض الشواهد أولاً، فقد جاء في سورة الشعراء وفي عدَّةِ مواطن، منها: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ

---

(١) (الشعراء :١٨٠))

(٢) ما من نبي سأل أجراً من أمته على رسالته إلا الحبيب المصطفىﷺ في هذه الآية المباركة (آية المودة) المحقق.

(١٠٨) ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[١]

لماذا قال (من أجر)؟

لأن غير الله سبحانه لا يستطيع أن يعطي (الأجر) كله، والمقدور لهم هو (من أجر) ومع ذلك لم يطلب منهم ذلك وهذا ما سنوضحه بعد قليل بإذن الله تعالى ـ لاحظوا هذه الآيات تكررت عدة مرات، مرة حول نوح، وبعد ذلك، الآية هذه تتكرر في الآية ١٤٥، ثم الآية ١٧٢، ومع نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يجري نفس الكلام يقوله النبي صالح ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ثم نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ الآية ١٦٤ نفس الكلام يقوله، ثم نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ في الآية ١٨٠ نفس الكلام يكرره، وحتى الرسول الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في آية أخرى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)﴾[٢]

هنا كلمة (من) تتكرر ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ في الأنبياء السابقين وحتى بالنسبة للرسول الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا (٥٦) قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾[٣]

وسنبدأ أولاً بالسبب في استخدام (من) في تلك الآيات الأخرى.. لاحظوا التشدُّد في استخدام كلمة (من) في كل هذه الآيات، وترك كلمة (من) في هذه الآية وفي آية ثانية فقط.. فلماذا القرآن الكريم استخدم

---

(١) (الشعراء :١٠٩)

(٢) (ص :٨٦)

(٣) (الفرقان :٥٦٥٧)

(من) في تلك الآيات وحذفها هنا؟

لابد من سر كامن وراء ذلك وقد يستظهر أن السبب في استخدام (من) هو أنه: يستحيل على الإنسان أن يدفع أجر الرسالة لأي رسول من الرسل، لأن الرسالة تتضمن (التوحيد) فمَنْ يستطيع أن يدفع أجر التوحيد؟ والتوحيد لا يعادله شيء، ثم (النبوة، والإمامة) ثم (المعاد والجنة)، الجنة هل يعدلها شيء؟

نحن مهما نعطي لله، مهما نعطي للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهل يعدل شيء من ذلك، الجنة التي فيها (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) والتي سوف نخلد بها إنشاء الله إلى ما لانهاية.؟!

معاني (من) ودلالاتها:

ولذلك يقول ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ لأن الأجر لا تستطيع أن تدفعه، بل (جزء الأجر) هو الممكن تسديده وإعطاؤه، ولكن مع ذلك (لا أسألكم) أيضاً حتى هذا الجزء المقدور لكم.. بل حتى المتيسر منه لكم.. لاحظوا كيف أن المعنى دقيق ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي جزء الأجر.. ذلك أن (من) هنا تبعيضية لأن (من) على أقسام:

فمنها (من) التبيينية كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[1] (من) هنا التبيينية، أو البيانية وهي التي يقع (أي) مكانها أو حسب تعبيرهم (الذي)، أنا أعبر (بأي) لأنه أسلس وأسهل ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ ضعوا مكان (من)

---

(١) (الحج :٣٠)

(أي)، فاجتنبوا الرجس أي الأوثان هذه هي (من) التبيينيه، والنحويون عادةً يعبّرون عنها: بأنها التي يحلّ محلها (الذي) ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، ولكن (أي) أوضح..

ومنها (من) النشوية كقوله تعالى (خلق منها زوجها) على أحد الإحتمالين.

ومنها (من) التبعيضية وهي التي يقع محلها (بعض)، تقول: أخذت من الدراهم؟ يعني بعض الدراهم وهنا في الآية (من) تبعيضية (وما أسألكم عليه من أجرٍ) يعني بعض الأجر، لماذا؟

ثلاثة أسباب لاستحالة إعطاء أجر الرسالة

السبب الأول:

لأن (كل الأجر) مستحيل أن تدفعه، لأنه خارج عن حيطة قدرة البشر، ولكن تستطيعون دفع بعض الأجر، ومع ذلك لا أسألكم هذا البعض من الأجر.

واللطيف في الآية الشريفة أنها تنفي طلب (بعض الأجر) منهم، ثم تثبت طلب (لا بعض الأجر) بل (كل الأجر) من الله تعالى، لاحظوا كيف أن حرف (من) حذف في الجملة اللاحقة مباشرة أريد الأجر من الله، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾..

هذه هي العلة الأولى في استخدام (من) في تلك الآيات الشريفة: لأنه يستحيل طلب الأجر كله من الناس، إذ الناس لا يستطيعون أن يوفّوا واحداً بالمليار، ومع ذلك فهذا المعادل الضئيل جداً لا يريده الرسول

منهم..

السبب الثاني: نلاحظه في الآية الشريفة إذ يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[1]

وهذه الآية الأخرى اليتيمة التي يوجد فيها أجر بدون (من) في القرآن الكريم، إن القرآن الكريم هادٍ لكل العوالم، فهل أنت تستطيع أن تدفع أجره؟ إنه ﴿ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ لكل العوالم الظاهرة الجلية، والخفية المستترة، فهل نستطيع أن ندفع نحن البشر وما نحن إلا جزء، بل نحن كرمله في صحراء، من عالم الخليقة الواسع هل نستطيع أن ندفع هذا الأجر العظيم؟ لا نستطيع.. أبداً.. أبداً..

والسبب الثالث: في المجيء بكلمة (من) التبعيضية في الآية هو أن المثمن هو (الذكرى)، و(الذكرى) لا أحد يستطيع أن يعطي أجرها..

وفي مقابل ذلك كله نجد هذه الآية الشريفة ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

عدم استعمال (من) التبعيضية في الآية

لاحظوا الدقة وطلب الأجر كله في (الاستثناء) وهو ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فهي (الأجر).. وليست (من الأجر) بل (الأجر).

ولاحظوا أن مصب الإيجاب هو نفس مصب النفي تماماً ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فالمنفي هو سؤال (الأجر) ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فالمثبت والثابت هو هذا الأجر، ولو كان المنفي هو بعض الأجر لكان المثبت هو

(١) (الأنعام:٩٠)

البعض كذلك، لاحظوا الدقة لم تقل الآية الشريفة ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، مما يعني ويستلزم أن تكون المودة (من الأجر) كلا.. بل: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا﴾ لماذا؟

لأن (الأجر) سوف يكون ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ والحاصل أن هذه ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ هي أجر، يعدل الرسالة كلها بدون كلام، بدون ريب بنص القرآن الكريم الذي هو دقيق في الاستخدامات إلى أبعد الحدود وهذه الآية منه في الصميم.

آية المودة تعضد حديث الثقلين

وبالتأمل في هذه الآية، وكما كنت أفكر، فإن هذه الآية مما يعضد حديث الثقلين، وحديث الثقلين مما يشرح هذه الآية، لأن مفادها مفاد حديث الثقلين، وحديث الثقلين يشرح هذه الآية وهو موجود في صحيح مسلم أيضاً، وعدد من الصحاح، قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين ـ لاحظوا أنه لا يوجد توازن إلا بين هذين الثقلين ـ كتاب الله، وعترتي أهل بيتي.. فهذا الوزن الذي يوزن ذاك به.

لاحظوا أن الآيات والروايات بعضها يُفسِّر بعضاً، ويوضح بعضها بعضاً، ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، أذن ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ هي أجر الرسالة لا غير، هذا المعنى العظيم الغريب الذي إذا تأمل فيه الإنسان فإنه حقيقة يستغرب مدى عظمة هذا المعنى ومدى دقة القرآن الكريم حيث جعل مودّة قربى رسول الله ﷺ أجراً يعدل الرسالة بأجمعها..

تناسب الأضلاع الثلاثة: (الرسالة، المودة، الأجر)

وإذا توقفنا عند هذا المعنى الرائع العميق، فإننا سوف نستنبط مجموعة من القواعد الكلامية، والفقهية، وغيرها، والتي سوف نشير لها إنشاء الله في بحوث أخرى، ولكن لنشير لأولها فقط الذي ابتدأنا به مطلع الحديث، فالروايات التي تتحدث عن الأجر العظيم على زيارة الإمام الحسين (عليه الصلاة وأزكى السلام) تصبح جداً واضحة وبديهية: وأن الإنسان بكل خطوة يخطوها، فإن الله سبحانه وتعالى يكتب له أجر حجة، وكلما رفع تلك الخطوة يكتب له أجر عمرة كيف؟ المعادلة جداً واضحة على ما ذكرناه، إذ: المثمن ما هو؟

إنه (الرسالة)، ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ يعني على (الرسالة) أو فقل على (إبلاغ الرسالة).. ثم الثمن أو الأجر ما هو؟ ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.. والآن لنتسائل عن (أجر الأجر) ما هو؟ وإلا يجب أن يكون هناك تناسب بين هذه الثلاثة (المثمن) وهو (الرسالة) و(الثمن) وأجرها وهو ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ ثم (أجر الأجر) وهو كمصداق من جملة المصاديق ـ: أن جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل يشيعون زائر الحسين كمصداق من مصاديق المودّة.. هذا هو (أجر الأجر) وإن الإنسان عندما يذهب إلى الزيارة، يكتب له بكل خطوة حجة وعمرة.

فاتضح إن هذه العناصر الثلاثة يجب أن تكون متناسبة من حيث الوزن، والقيمة؛ (المؤجر عليه) ـ يعني (المثمن) هو ماذا؟ ـ هو (الرسالة).. (الأجر والثمن) ما هو؟ إنه ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.. و(أجر الأجر) ما هو؟ إنه كل ما يذكر من عظيم المثوبة على ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، ويصرح

بذلك القرآن الكريم حيث يقول: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾..

وأوكد مرة أخرى: إنك لو أحببت أهل بيت الرسول الأعظم عليهم السلام وودتهم وأظهرت تلك المودّة بالزيارة، أو البكاء، أو سائر الشعائر، كاللطم والتطبير والمشي على الجمر، أو بالدفاع عنهم (صلوات الله عليهم) باللسان والبنان، وفي الجرائد والمجلات وفي الإذاعات والفضائيات، أو بالدفاع عن شيعتهم وأتباعهم، لو فعلت ذلك فإن (أجره) سيكون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لأنه (أجر الأجر)، واللازم أن يتناسب مع عظمة (الأجر)، ومع عظمة (المؤجر عليه)، وهذا هو مقتضى قاعدة التناسب والحكمة والعدل.

ومثاله الواضح: أن البيت لو كان يسوى ألف دينار، فأجره، (أي ثمنه، وقيمته، ووزنه) هو ألف دينار، وأنت بهذه الألف دينار تستطيع أن تشتري بستاناً قيمته ألف دينار.

هذه الثلاثة يجب أن تكون متناسبة وهي المثمن، والثمن، وثمن الثمن، أي: الموجر عليه، والأجر وأجر الأجر، هذه الثلاثة لابد أن تكون متناسبة، فإذا كان (المؤجر عليه) هو الرسالة بما فيها التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد، والجنة..

وإذا كان (الأجر) الذي يعدل هذه كلها هو (مودّة أهل البيت عليهم السلام) فكيف يستغرب أحدهم لو سمع أن (أجر الأجر): هو أنه في كل خطوة يكتب له حَجة؟

بل هذا قد يشكل جزء الحقيقة وبعض (الأجر على الأجر) إذ ربما يقال: إن كثيراً من الروايات لم تصل إلينا يعني إن الله سبحانه وتعالى،

لو يعطي على المودّة، كل ما في الكون، وكل ما في الآخرة من نعيم وأجر على كل العبادات أيضاً، لما كان غريباً إذ هذا في جوهره يعود إلى القول: إن كل ما في الكون وما في الجنة بمجموعه يعدل (المودّة)، وهل يستغرب ذلك بعد تصريح الكتاب بأن (المودة) هي أجر الرسالة وإبلاغها والذي لا يعدلها شيء في الكون كله؟

وهذه معادلة رياضية واضحة:

إن (المثمن) هو الرسالة..

و(الثمن) هو الأجر..

و(الأجر على الأجر) ينبغي أن يتناسب مع الأجر، والمأجور عليه.. والحديث طويل ونترك التتمة للأحاديث القادمة، إنشاء الله.. ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

رزقنا الله وإياكم مودة قربى الرسول الأعظم عليه السلام في الدنيا وشفاعتهم في الآخرة..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

[٥]

أجر الرسالة الخاتمة وتأملات في آية المودة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾[1]

---

(١) (الشورى:٢٣)

هل العابد بغير محبة (الرسول وآله) في النار؟

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة» ـ أي في هذه البقعة وهي بقعة من أشرف بقاع الأرض ـ «ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام» ـ وظاهر الرواية الاستغراق، أي كان ليلاً ونهاراً مشغولاً بالعبادة ـ «حتى يصير كالشنِّ البالي» (الشنّ: يعني (القربة الخَلِقَة،[1] العتيقة)، فإضافة كلمة (البالي) لها مزيد من الدلالة، أي القربة الخَلِقَة جداً، وتأكيد، أو أن إضافة صفة البالي أيضاً لمزيد من الإيضاح «حتى يصير كالشنّ البالي»؛ أي أن هذه العبادة كانت مرهقة له أيَّ إرهاق) حتى يصير كالشنّ البالي، «ثم لم يدرك محبتنا» (أي أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام) «أكبّه الله على منخريه في النار»..[2] والظاهر أن المراد العالم المعاند وكذا المقصر، أما الجاهل قصوراً فإنه يعاد امتحانه يوم القيامة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في (شعاع من نور فاطمة عليها السلام) فليراجع.

هذه الرواية يذكرها الفيض الكاشاني في كتابه؛ (تفسير الصافي)، وهو من أفضل تفاسيرنا على الإطلاق، وكذلك البرهان، مما ينبغي على كل طالب علم أن يكون عنده وهذان التفسيران.[3]

---

(١) الشن والشنه، بهاء: القربة الخلقة الصغيرة.. وقيل: الشن الخلق من كل آنية صنعت من جلد، ج؛ شنان، بالكسر..(تاج العروس؛ للزبيدي ج١٨ ص٣٢٧) المحقق.

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ج٤٢، ص٦٥، شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني: ج٢، ص٢٠٣، البحار للشيخ المجلسي ج٢٣ ص ٢٣٠.

(٣) لأنهما يفسران بالمأثور عن أهل البيت عليهم السلام خاصة، مع تعليقات علمية موفقة من المؤلفين (رحمهما الله) المحقق.

وأيضاً عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مع مطلع الحديث: ((أن الله خلق الأنبياء من شجر شتى، وخُلقت أنا وعلي من شجرة واحدة، فأنا أصلها وعلي فرعها، وفاطمة لقاحها، والحسن والحسين (عليهم السلام أجمعين) ثمارها، وأشياعنا أوراقها، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا، ومَنْ زاغ هوى، ولو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام حتى يصير كالشنّ البالي، ثم لم يُدرك (وكلمة يدرك فيها دلالة بالغة، والإنسان عليه أن يُدرك محبتهم صلوات الله عليهم، وسنكتشف بعض دلالة (يدرك) عندما نلاحظ أنه تعالى قال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ ولم يقل (يصل إليكم الموت) مثلاً ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1] فكأن الموت يطاردنا حتى يلحق بنا، ونحن يجب علينا أن نُطارد محبة أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام)، أي أن نحاول أن نحصل عليها بكل طريقة، وبدرجاتها المتسامية) ثم لم يدرك محبتنا، أكبّه الله على منخريه في النار) ثم تلا الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾))[2]

هذه الآية الشريفة آية المودة تُعدُّ من البراهين القاطعة ـ إضافة إلى آيات عديدة أخرى، وإضافة إلى بعض الأدلة التي سنسوق أحدها لكم من صحيح مسلم ـ هي من الأدلة القاطعة على صحة هذه الرواية، ومشروطية صحة العبادات كلها بـ(مودة أهل البيت(عليهم السلام)).

---

(١) (النساء :٧٨)

(٢) راجع تفسير الصافي للفيض الكاشاني : ج٤، ص٣٧٣، والبرهان في تفسير القرآنللمحقق البحرانيج٤ص٨٢٣

وتكفينا أـ دلالة (الآية) بـ و(الاعتبار) على صحتها جـ ومطابقة مضمونها للعشرات من الروايات الأخرى، يكفينا ذلك عن البحث عن سندها كما سنوضحه بإذن الله تعالى، وهذه الرواية المروية عن رسول الله ﷺ: تصرح بأن الإنسان لو عبد الله ألف عام، ثم ألف عام، وألف للمثال فلو عبد الله فرضا تريليوناً من السنين، كان كذلك، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[1] ثم لم يدرك محبة رسول الله ﷺ، أو لم يدرك محبة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أو أحد الأئمة المعصومين (عليهم صلوات الله أجمعين)، أكبه الله على منخريه في النار..

ولا أحد يظن ـ ظن السوء ـ أن الله سبحانه كان مجاملاً لرسوله الكريم ﷺ، إذ ليست عند الله سبحانه وتعالى مجاملة، مع أي إنسان، أو أي شخص، مهما علت مكانته، أو سمت رتبته، فكلام الله تعالى هو الصدق المطلق.. بل هو الحق المطلق.. و(الحق) فوق (الصدق) لأن (الصدق) هو مطابقة القول للواقع، أم (الحق) فهو مطابقة الواقع للقول.

فلسفة ذكر (قُل) في آية المودة دون آيات مشابهة

ولنتوقف بعض التوقف عند تأملات في الآية القرآنية الكريمة، وهي تعد تتمةٌ للبحث السابق حول هذه الآية الشريفة، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وأول مُلاحظة تلفت انتباهنا في الآية هي: أن الله سبحانه بدأ في هذه الآية بكلمة ﴿قُلْ﴾ ولكنه في آيات أخرى مشابهة لهذه الآية تماماً لم يبدأ

---

(١) التوبة: ٨٠

بكلمة ﴿قُلْ﴾.

واللطيف أنني تتبعتُ الآيات الكريمة فوجدت أن هذا المحتوى والمضمون عندما يصل إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فإن كلمة ﴿قُلْ﴾ تضاف، وفي بقيّة الأنبياء لا تذكر كلمة ﴿قُلْ﴾، فمثلاً، قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.[1]

وآيات أخرى عديدة حول الأنبياء السابقين، لا يوجد فيها ﴿قُلْ﴾.. الله سبحانه يتكلم كحديث منقول بين قوسين عن ذلك النبي، أي كحديث مباشر بين النبي وقومه، (...مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ قُلْ..)، ولكن بمجرد أن تصل النوبة إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في عِدَّة آيات شريفة، نجده سبحانه يُصدِّر الكلام بكلمة ﴿قُلْ﴾ ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾، مع أن جملة ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أو ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾، كافية في المقام.. فما هو السِّر؟ خاصةً مع علمنا، وإيماننا جميعنا، بأن القرآن الحكيم، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وكل حرف عنده بميزان.. فما هو السِّر إذن؟

وفي آية قرآنية أخرى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[2]

وفي آية قرآنية أخرى، قال ربنا عزَّ اسمه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ

---

(١) (الشعراء: ١٠٥ ١٠٩)

(٢) (الفرقان: ٥٦ ٥٧)

أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.[١]

(فالخطاب عندما يصل إلى النبي الأكرمﷺ؛ تضاف ﴿قُلْ﴾)، ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، وكذلك آيتنا الشريفة التي هي محور بحثنا، فما هو السبب في ذلك؟

الحكمة من القلاقل الأربع

السبب في ذلك: هو نفس السبب الذي صدّرت فيه القلاقل الأربع في القرآن الحكيم؛[٢] بـ ﴿قُلْ﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، إذ قد يقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يكفي، ولا حاجة لـ﴿قُلْ﴾، كما ظن ذاك بعض الحكام الجهلة، الذي أمر بحذف القلقلات الأربع من القرآن الكريم، ويبرر ذلك بأنه: لا وجه له ولا داعي لوجود ﴿قُلْ﴾ في هذه الآيات.. ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾..

فما هو الوجه في ﴿قُلْ﴾ الموجودة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وكذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؟

الوجه هو بعينه موجود في هذه الآية القرآنية الكريمة، وأشير أشارة حول فلسفة ﴿قُلْ﴾ والحديث عنها طويل، لكن لدينا مجموعة من النقاط، بإذنه تعالى نحاول أن نستوعبها في هذه البحث، فالفرصة ضيقة

---

(١) (ص:٨٦٨٧)

(٢) وهي السور المباركة الأربعة التي تبدأ (بقل)، وهي: الإخلاص، والكافرون، والفلق، والناس..

الآن..

الفلسفة في التصدير بـ(قل)

أولاً: إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يؤكد، ويُرسِّخ مفهوم وساطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينه سبحانه، وبين خلائقه فـ﴿قُلْ﴾: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وعندما نبدأ الصلاة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإن الواسطة الذي هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أيضاً نستحضره في البال فهو واسطة الفيض التكويني، وهو واسطة الفيض التشريعي، فعندما تقول: (بسم الله الرحمن الرحيم، هو الله أحد)، فإنه وإن كان وافياً بأصل المعنى، ولكنه لا يفي بمعنى الوساطة أيضاً..

فأنا عندما أصلي يجب أن أذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بتشريع من الله سبحانه وتعالى، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾.. فهذا تكريسُ لمفهوم الثُلاثية بهذا المعنى:

هناك خالق..

وهناك مخلوق..

وهناك وسائط بين الخالق والمخلوق، هكذا جرت حكمة الله في التشريع كما في التكوين..

فالله لا يقبض الأرواح مباشرةً، وإنما يقيِّض لها عزرائيل عليه السلام، وكذلك يقيِّض للأرزاق ميكائيل عليه السلام، وكذلك يقيِّض للنفخ في الصور إسرافيل عليه السلام، وهكذا وهلمّ جراً.. فتكريسُ مفهوم الواسطة الذي هو

النبي ﷺ، أو هو الإمام عليه السلام في المقام أمر ضروري جداً..

ثانياً: وهناك سبب آخر إضافي للتصدير بـ﴿قُلْ﴾ وهو[1]: أن الله سبحانه عندما يتحدث عن الأمم السابقة، وعن الأنبياء السابقين، فإنه ليس مورد ابتلاء لنا، فـ(نوح) و(صالح) و(هود) (عليهم السلام جميعاً)، في الآيات الشريفة المتكررة، كل واحد منهم يقول: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، يخاطب أمماً سابقة ولا يخاطبنا نحن فلا يحتاج ذلك إلى تأكيد، أما الآن فإن الكلام- كلام رسول الله ﷺ- مُوجَّهٌ لنا نحن هذه الأمة المرحومة، فالله سبحانه للتأكيد أولاً ولدفع أدنى شُبْهة أو تشكيك ثانياً وما هي الشبهة؟ إنها شبهة (أن هذا الكلام، والتوجيه إنما من قبل رسول الله ﷺ لا من الله مباشرة).. كما أُتُّهِمَ بأن (هذا من عندك وليس من عند الله).

فالله سبحانه يؤكد بـ﴿قُلْ﴾ في خطابه للرسول الأعظم ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.. على كونه أمراً إلهياً مباشراً لنا، وليس أمراً من الرسول ﷺ فقط، ورغم أن أمر الرسول الأعظم ﷺ يكفي لأنه المولى، ومولى حقيقي، ومالك طولي للكون كله، فكل إنسان، وكل شيء مملوك لرسول الله ﷺ، مُلكاً حقيقياً في طول ملك الله سبحانه وتعالى، فكان يكفي، أن يقول النبي: (ما أسألكم عليه من أجر إلا المودة)، أو: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾.. ولكن لشدة أهمية المطلب، ولتكريسه، وتأكيده، وأنه ليس أمر الرسول وحده، بل أمر الله أيضاً، وأن ﴿قُلْ﴾: أمر من الله تعالى مباشرة، يقول للرسول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ

---

(١) ولدى التأمل يظهر أن هذا الجواب في الحقيقة جوابان.

﴿أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.. هذه النقطة الأولى..

الفرق بين (ما) النافية والموصولة

النقطة الثانية: نشير إشارة مهمة وهي تتمة للبحث السابق، ثم ندخل في كلمة ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ﴾ بإذن الله تعالى، فقد لاحظنا هنا؛ أن الله سبحانه وتعالى لم يستخدم كلمة (من) حيث كان الخطاب موجهاً للنبي، أما في الآيات الأخرى، فقد استخدمها فقال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ في آية نوح، هود، صالح، وبقية الأنبياء (على نبينا وآله وعليهم السلام).. ولكن في آية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يستخدم كلمة (من) ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾.

وقلنا الفلسفة في ذلك: لأن (من) هنالك (تبعيضية)، وهنا لا تبعيض، فـ(كل أجر الرسالة) هو مودة أئمة المسلمين بدءً بالإمام علي وفاطمة والحسن والحسين ومروراً بسائر الأئمة الأطهار (عليهم جميعاً صلوات الله)، ووصولاً للإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

لكن أحد الأعلام، تساءل، وقال: إن كلمة (من) استخدمت في آية أخرى موجهة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والآية هي: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾.[1]

ولتوضيح الآية، ومع قطع النظر عن هذا الإشكال، نقول:

إن الله كان قد أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بـ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، ثم بعد ذلك النبي يوضِّح بالآية الأخرى: أن الأجر ليس لي بل هو عائد لكم، يعود أيضاً لصالحكم، فلا تتصور أن الأجر لي ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ فَهُوَ

(١) (سبأ: ٤٧).

لَكُمْ﴾..)

والإجابة على هذا السؤال واضحة: إذ أن (من) في آية المودة لو وردت فإنها ستكون (تبعيضية)، لأنه سبقتها (لا) النافية ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، ولكن في آية ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ حيث وردت (من) و(ما) فإن (ما) هنا (موصولة) فتكون (من) بيانية، إذ قد سبقتها (ما) الموصولة وليس (لا)، ولا يعقل كون (من) تبييناً لـ(لا)، وفي المقابل تقع كثيراً (من) تبييناً لـ(ما) وذلك كلما كانت موصولة.

نعم لو كانت (ما) نافية فإن (من) ستكون تبعيضية لكنها في آية ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ موصولة دون شك.

وبعبارة أخرى: فإن وزان (لا) النافية كوزان (ما) النافية كما في الآية القرآنية الكريمة الأخرى، التي تقول: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾[1]، فـ(ما) في تلك الآيات نافية ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾... ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾... و(من) تبعيضية، أما في الآية الشريفة التي تلوناها وهي المُكمِّل.. ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾.. فإن (من) (بيانية) لأن (ما) موصولة.. ﴿مَا سَأَلۡتُكُم﴾ يعني؛ الذي سألتكم من أجرٍ.. فهو كل الأجر أيضاً.. فهذه ليست (من) تبعيضية، فمع بعض التأمل يتضح لكم ذلك، ولذا نجد أن (ما) هنا مبتدأ، ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ وإن ﴿فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾.. هو الخبر..وهذه الإشارة كافية لبيان الفرق بين المقامين..

---

(١) الذاريات: ٥٧ ٥٨.

فلسفة (الألف ـ لام) في (المودة)

ننتقل إلى النقطة الأخرى: وهي نقطة مهمة: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ ونتوقف عند (الألف واللام) في (المودّة)..

ونسأل: الله سبحانه، لماذا لم يقل ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أو (إلا مودة القربى)؟ كما في آية أخرى قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[1]

بل قال: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.؟

الفلسفة: للدلالة على الاستغراق أو الجنس

ويتضح الجواب عن هذا السؤال، عندما نلاحظ وجه، وفلسفة، تَحلية (الحمد) بالألف واللام في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.[2]

فلم يقل سبحانه وتعالى: (حمداً لله رب العالمين)، ذلك لأن هذه الألف ـ لام، هي (للاستغراق)، يعني كل الحمد، كل مصاديق الحمد، هي لله رب العالمين؛ ولو قلنا بأن (أل) هي (للجنس).. لكان كذلك أيضاً، أي جنس الحمد لله تعالى، أي الجنس بكل مصاديقه، فتكون كل المفردات تحت هذا الكل، أو هذا الجنس.. فـ(جنس الحمد) لله رب العالمين، فـ(الحمد)، يعني كل الحمد، كل مصاديق الحمد، وليس حمداً واحداً، أو مصداقاً واحداً فقط..

(١) (الروم:٢١)
(٢) (الفاتحة:٢)

والفرق بين (الاستغراق) و(الجنس): أن الثاني وإن دل على الاستغراق أيضاً، إلا أنه بواسطة دلالته على الجنس فـ(أل) بناء على مسلك (الاستغراق) دالة عليه بالمباشرة وبناء على مسلك (الجنس) دالة على الاستغراق بالواسطة.

فـ(حمداً) نكرة، والنكرة تَصدُق ولو بتحقق بمصداق واحد، ولكن (الحمد)، يعني الحمد كله لله رب العالمين.

معنى (لأحمدنّ الله بمحامد يرضاها)

وهنالك رواية جميلة مناسبة للمقام: فقد روي أن الإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام) ضاعت له بغلة، فقال: (**لئن ردّها الله تعالى إليّ لأحمدنَّه بمحامد يرضاها**)

وهي كلمة جداً قوية، وقد تصور الناس أو بعضهم أن الإمام سيطيل الحمد لله؛ ربما بقدر عشر صفحات مثلاً من الحمد، سيُثني على الله سبحانه وتعالى، فبحثوا عن البلغة، وجاؤوا بها سريعاً..

فلما رجعت إليه البغلة بجهازها وماعَلَيْهِ السَّلامُ، غير ناقصة والبغلة لم تكن مُهمة ولكن الدرس مهم، أي الإمامعَلَيْهِ السَّلامُ أراد أن تصل إلينا هذه الرسالة: أن تحمد الله سبحانه وتعالى أحياناً حمداً إجمالياً، وأحياناً حمداً تفصيلياً فالإمام ماذا قال؟

قال: لأحمدنه بمحامد يرضاها، فلما رجعت إليه البغلة، واستوى عليها، ضمَّ إليه ثيابه، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: الحمد لله..ولم يزد..

لطيفة جداً هي تعابير الأئمة عليهم السلام، وحركاتهم هي الأخرى لطيفة ملفتة، قال: الحمد لله فقط.. حتى يوضِّح لنا ماذا؟ يُريد أن يوضِّح لنا أن الألف اللام هذه للاستغراق أو للجنس، وأنها ذات دلالة كافية وافية، حتى يتضح لنا فيما يتضح المعنى العميق لـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى نعرف ماذا نقول.. ثم، قال: ما تركتُ، ولا أبقيتُ شيئاً..ثم أضاف.. جعلتُ جميع أنواع المحامد لله عز وجل ، فما من حمدٍ إلا وهو داخل فيما قلت..[1]

فكل أنواع المودة، مطلوبة إذن

فكما أن الألف واللام في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هي ألف ولام الجنس أو الاستغراق، كذلك هي في (المودة) في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ إلا ماذا؟ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي أن كل أنواع المودة، بمختلف مصاديقها، وألوانها، وأشكالها، وفي مختلف الأزمنة، وفي مختلف الأمكنة، وفي مختلف الحالات.. هذا هو المطلوب من الإنسان، وهذا هو المسؤول منه، ثم المسؤول عنه ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[2]، فلو خلا قلب الإنسان من مودة أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام) لحظة واحدة، فإنه في تلك اللحظة وبهذا المعنى الدقيق عاصٍ، وآثم، وخائن، ولم يؤدّ أجر الرسالة، وذلك كما لو خلا قلب الإنسان ولو للحظة واحدة من الاعتقاد برسول الله أو بالله تعالى، فإنه في تلك اللحظة منحرف وضال وكافر.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الألف واللام هنا للجنس،

---

(١) البحار للشيخ المجلسي :ج٤٦ ص٢٩٠،عن كشف الغمة..

(٢) التكاثر : ٨.

أو الاستغراق ـ بتعبير آخر ـ والمفهومان مختلفان، كما سبق ولكن من حيث الحمل الشائع الصناعي هما متحدان[1] وإن كانا من حيث الحمل الذاتي الأولي مختلفين، ولكن النتيجة النهائية هي واحدة..

وفي مثال آخر أنت تقول: (اللهم إني أسألك الراحة (وليس راحة عند الموت)، أي الراحة بمختلف ألوانها، بمختلف أشكالها: الراحة من المرض بمختلف مصاديق المرض، الراحة من المشاكل الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، العائلية، وغيرها..

وهكذا قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، فألف لام المودة، فيها كامل الدلالة على المطلوب،لأن الأجر على الرسالة هو مودة محمد وأهل بيته(صلوات الله عليهم) بمختلف مصاديقها، بمختلف أشكالها، بمختلف ألوانها، بمختلف تجلياتها.. والحديث حول الألف واللام طويل لكن هذه إشارة..

رسوخ في القلب وتجلٍّ على الجوارح

ونلوي عنان الحديث إلى (المودة) ذاتها.. فماذا تعني (المودّة).؟

إننا نجد بعد التتبع والتأمل، أن الذي يظهر هو أن (المودّة): هي تلك الحقيقة الراسخة بالقلب، والمتجلية على الجوارح، هذا المزيج من الاثنين يُسمى المودّة، وإلا كان محبة، والمحبة هي القسم الأول فقط، وأما المودّة فهي المزيج من الاثنين معاً، أي ما يرتبط بالجوانح، وما يرتبط بالجوارح أيضاً.. فإذا كانت هناك محبة ـ وهي درجات ـ لكن

---

(١) المقصود : الاتحاد من حيث المآل والنتيجة فتدبر.

كانت راسخة في القلب يصبح اسمها مودة، وقد يحب شخص شخصاً، ولكن محبة سطحية فلا تُسمى عندئذ مودة، ولكن إن كانت (المحبة) راسخةً في القلب أولاً، ومتجليةً على اللسان، وعلى البنان، وعلى خطوات الإنسان، حيث يزور المعصومين (عليهم الصلاة وأزكى السلام) دائماً أو يسلم عليهم ويذهب إلى مجالسهم ويدافع عنهم مثلاً.. فعندئذ يُطلق عليها (المودّة).. وإلا فتبقى مجرد محبة، وعلاقة سطحية فقط..

وتوضيح ذلك ـ والحديث أيضاً طويل ـ ولكن نكتفي بالإشارات لأن البحث واسع الأطراف جداً فنحاول أن نقتصر من كل روض على وردةً فقط..

من أسماء المسمار: الودّ

(المسمار) من أسمائه (الودّ).. والودّ هو المودّة، ـ وللعلم فإن الودّ ثلاثي تستطيع أن تقول: وَدَّ، يَوَدُّ، وُدّاً، وتستطيع أن تقول: وِدّاً، وتستطيع تقول: وَدّاً.. أي هو مثلث الواو: مضمومة، مفتوحةً، مكسورة، ـ (المسمار) هو الودّ، و(المحبة) هي المودّة.. فلماذا سمي المسمار بالودّ؟ لأنه؛ راسخ في عمق الحائط ـ هذا هو المعنى العميق للتسمية ويوجد معنى ظاهري، سوف نشير إليه أنشاء الله، إذا سنحت لنا فرصة ـ وسمي المسمار بالودّ، لشدّة التحامه بالحائط، ورسوخه فيه، فكأنه يودّه كأنه يحبه هذه المحبة الشديدة، العميقة..

ولكلام الراغب الأصفهاني في المفردات دلالة على هذا الذي

استنبطناه ـ وقد أشار إلى الجانب اللفظي أيضاً، حيث ذهب إلى تحليل لفظي لتسمية (الوتد) أي المسمار بالودّ[١] ـ يقول ـ مع توضيح وإضافة منا:

(الوَدَّ: الوَتِد، وأصله يصح أن يكون وَتِد فأدغم)[٢] انتهى وأقول موضحاً لذلك: أن سر الإدغام هو قرب مخرج التاء للدال، المخرجان قريبان، فتحول (الوتد) إلى (الود) نظراً لقرب مخرج التاء للدال، التاء قلبت دالاً، وأدغمت هكذا فصار الوتدّ (وُداً) و(الوتدّ) هو المعروف عندنا نحن حيث نقول: وتدّ، وهو نفس (الود) بالحقيقة.. (الوتدّ هو) نفس الودّ، لكن بعد الإدغام..

إذن المودّة تعني: تلك الحقيقة الراسخة في أعماق القلب، بحيث لو خيّر الإنسان بين أموال الدنيا كلها، وبين مودّة أهل البيت عليهم السلام ما اختار على المودة شيئاً..

بين القول والعمل: البقيع وسامراء مثالاً

وإن القول بذلك وإدعاء ذلك، أمر سهل، ولكن في مقام العمل، كم من عاصٍ هناك في الكون؟ هذا معناه أنه لا يحب ولا يودّ أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام) حقيقةً: عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان.. وقال الإمام عليه السلام: (كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم)[٣] وقال:

---

(١) وقد أشرنا نحن إلى التحليل المعنوي لذلك كما أشار هو.

(٢) راجع مفردات الراغب الأصفهاني..مادة (ود)..

(٣) الكافي: ج٢، ص٧٧، ح٩.

لـــو كـــان حـــبـك صـــادقـــاً لأطـعـتـه
إن الــمــحـــب لــمــن أحـــب مطيع

وكمثال؛ الآن قضية (البقيع الغرقد) و(سامراء المقدسة) وهدم قبابها الشامخة.. وأسأل: هل أنا حقيقة أودّ الإمام الهادي، والإمام العسكري (عليهما الصلاة وأزكى السلام)، وأرى هذه الفاجعة الرهيبة هنالك، ولا أحرك ساكناً؟

وكُنَّا ولا نزال نشهد الفاجعة، والمأساة المؤلمة في (البقيع)، منذ خمسة وثمانين سنة،[1] فهل أنا (أود) أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام) حقيقةً؟ أم أنا رجّحتُ أموري الشخصية، وحياتي العائلية، ونومي، ومأكلي، ومشربي على أهم قضية في الكون كله وفي مقاييس عالم الغيب والشهود حيث قد جعلها الله سبحانه وتعالى أجراً للرسالة، فـ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؟ المودّة: هي تلك الحقيقة الراسخة في الأعماق، وهي المتجلية على الجوارح، بحيث لو لم تتجلَّ على الجوارح لكانت كذباً، لو لم تكن حقيقة وواقعاً..

والحاصل:

إن مَن يحب الأئمة الأطهار عليهم السلام ويودهم، يجب أن يتحول (الدفاع عنهم) إلى (هاجس) يقض مضجعة ليل نهار، وأن تكون تلك هي أولويته المطلقة، ثم تأتي شؤونه الشخصية وشجونه، وإلا كانت (مودته)

---

(١) لأن خوارج القرون المتأخرة، أو من يسمون أنفسهم بالوهابية، ابتعاداً عن الإسلام، هدموا قبور أئمة البقيع، في الثامن من شوال عام ١٣٤٤ للهجرة، الموافق ١٩٢٥/٤/٢١ للميلاد .. فيا ويلهم مما كسبت أيديهم.. المحقق.

لذاته سابقة على مودته لأهل بيت الرسول وأقوى.. قال تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾.(١)

قصة جابر الثائر

كان هناك شخص اسمه جابر من قبيلة بكر بن وائل، هذا الإنسان كان في مجلس ابن زياد، عندما جيء بالسبايا إلى مجلس ابن زياد ـ هذا المنظر المهيب، المفجع والرهيب: السيدة زينب (عليها الصلاة وأزكى السلام) مَنْ الكون يخضع لعظمتها تُهدى أسيرةً إلى واحد من أسوأ خلق الله، هذا المنظر لا يتحمله إنسان له بعض الشعور، فكيف لو كان له كل الإدراك والشعور ـ هذا الرجل (جابر) كانت له مودّة حقيقية..

في ذلك المجلس، وعندما رأى هذا المنظر قرر، وعاهد الله سبحانه وتعالى على الخروج والثورة ضد إمبراطورية بني أميَّه، رغم أنها كانت إمبراطورية واسعة شاسعة، تضم ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، وعادةً الناس لا يثورون ضد (حكومة صغيرة)، فكيف بدولة عظمى؛ فكيف بأكبر دولة، ومن أقوى الدول في التاريخ على الإطلاق وهي دولة بني أمية، ثم دولة بني العباس ـ هذا الرجل في هذا المجلس عاهد الله سبحانه وتعالى؛ بأنه لو أنضم إليه لو وجد عشرة أشخاص فقط لثار ضد هذه الدولة ـ تصوروا: فقط عشرة!! ـ وهذا ليس بمنطقي أنه في مقابل دولة عظيمة، ثلاثة أرباع الكرة الأرضية تحت سلطتها لو وجد عشرة فقط فإنه سيخرج عليها؟!

ولكن هكذا نوى الرجل، وعاهد الله سبحانه وتعالى، على أنه لو

---

(١) آل عمران: ٣١.

وجد عشرة فقط لثار ضد بني أميه.. وبعد ذلك بدأ يحرّض الناس هنا وهناك، ويشوّق على الثورة، ويتحرك حتى عام ٦٦ للهجرة فثار المختار الثقفي[1] فكان (جابر) في طليعة جيش المختار، إذ كانت محبته حقيقية، وقد تجلّت على جوارحه أيضاً، كان من المخططين للثورة طوال هذه الفترة، ثم كان من المنفذين أيضاً، وبعض المؤرخين يذكر: بأن الذي كَمَنَ لأبن زياد، ثم برز إليه وقاتله فقتله هو هذا جابر، هذا قول مذكور في التاريخ..

والقول الآخر هو: أن قاتله هو إبراهيم بن الأشتر النخعي.. فعلى أي تقدير كان من طليعة المجاهدين الذين عملوا في الخفاء ضد بني آمية طوال هذه الفترة، ولم يهدأ له بال لا ليلاً ولا نهاراً، هو هذا الرجل البكري (جابر)..

هل نحن حقيقة هكذا؟ لا يهدأ لنا بال، ونحن نُشاهد مَشاهد أئمتنا في البقيع (عليهم الصلاة وأزكى السلام) مُهدَّمة، وأحياناً يمكن أن يمرّ أسبوع ولا يخطر هذا المعنى في بالي، أو شهر!! أو إذا خطر، أمرّ عليها مرور الكرام! فـ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أين هي إذن؟.

شاهدان ودليلان من البخاري ومسلم:

ذكرنا سابقاً: أن الإنسان لو لم يدفع هذا الأجر فهو عاصٍ، وغاصب، ونقلنا رواية مذكورة في صحيح البخاري حيث ذكر: بأن الله سبحانه

---

(١) هو المختار بن أبي عبيدة الثقفي الذي ثار في الكوفة، وقتل كل مَنْ اشترك في معركة كربلاء، لاسيما الرؤوس والقادة.. راجع أحواله وظروف ثورته التي مدحها أئمة أهل البيت(عليهم السلام) كثيراً، البحار للشيخ المجلسي :ج٤٥ ص٣٤٣ وما بعدها.. المحقق.

وتعالى، سيكون خصماً لذلك الذي لا يدفع الأجر للأجير الذي استوفى منه.. والرواية الظاهر كانت هي ٢٢٢٧ من الطبعة التي لدّي الصفحة /٤٤٣/ لكن المقياس هو رقم الحديث ٢٢٢٧ الباب ١٠٦ باب: أثم من باع حرّا.. حيث ذكر البخاري أن الله سبحانه وتعالى قال: (**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة.. ويذكر منهم: ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره..**)

اللهم إني أحبه فأحبه، وأحبب من يحبه

والآن نضيف رواية أخرى من صحيح مسلم ـ ولنستحضر الرواية التي افتتحنا بها بحثنا هذا، وهي (**...ثم لم يدرك محبتنا، أكبه الله على منخريه في النار**) والمذكورة في تفسير الصافي الشريف وغيره، ـ فلنستشهد بكتاب هو من أصحِّ الكتب عند أهل السنة ويمكن أن نستدّل بها على ما ذكرنا، وعلى المدّعى:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في الحديث ٢٤٢١ /٢٢ على حسب ترقيم بعض الطبعات، وحسب ترقيم آخر: الحديث ٦٣٣٦ / ٥٦ وعلى أي تقدير راجعوا باب ٨ / ٥٨ باب فضائل الحسن والحسين (رضي الله عنهما)ـ على حسب تعبيره ـ.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما شاهد الإمام الحسن (عليه الصلاة وأزكى السلام)، ـ وهذا صحيح مسلم المعروف ينقل عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ـ: اللهم أني أحبه فأحبه وأحبب من يحبه.. هذه الرواية التي ذكرها مسلم في صحيحه.

البخاري يحذف الشطر الثاني

والغريب إنه: كان في بالي؛ أن الرواية في البخاري، ثم بحثت في البخاري فلم أجد الرواية فاستغربتُ، وسألتُ نفسي، أين رأيت هذه الرواية، وأنا متأكد أنني قد رأيتها؟ إلى أن وجدتها في صحيح مسلم، واكتشفت أن البخاري ذكر الرواية لكنه حذف الشطر الثاني منها.. لاحظوا (النصب الحقيقي)، فأي مكان يصل فيه إلى رواية ترتبط بأهل البيت عليهم السلام فإما أن يحذفها بالكامل، أو يقصقصها إذا لم يستطع حذفها، فيحذف بعضها، فالموجود في البخاري نصف الرواية فقط: اللهم أني أحبه فأحبه.. وأما الشطر الثاني والبقية فإنه قام بحذفها (وأحبب من يحبه).

(لماذا كل هذا العناد؟ لماذا كل هذا النصب؟)، إن الرواية موجودة في كثير من مصادر أهل العامة، فليست هي رواية نادرة، وقد خفيت عليه، ولكنه معاند فأي رواية تذكر فضائل أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام) فإنه يحذفها بالكامل، أو يحذف بعضها، والأمثلة على ذلك بالعشرات، إن لم تكن بالمئات.

من فقه رواية (وأحبب من يحبه)

ولنعد إلى نص رواية مسلم وهي: اللهم أني أحبه فأحبه وأحبب من يحبه..

ودعنا نتوقف قليلاً عند هذا الكلام: اللهم إني (من هو المتكلم؟)

إنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. أفضل خلائق الله على الإطلاق، سيد العقلاء، سيد الحكماء، حسب الرواية الموجودة في البخاري، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سيد ولد آدم إلى يوم القيامة.. هذه الرواية في البخاري موجودة، الرسول يقول: أنا سيد ولد آدم إلى يوم القيامة[1].. هذا الإنسان العظيم الذي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾، يقول: (إني) وحتى نعرف ما معنى هذا مرجع الضمير (إني) هنا..

(اللهم إني أحبه) فإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو قائل هذا القول، وهو الذي (لا ينطق عن الهوى) إني أحبه فأحبه.. فإن هذا الحب هو (محض الحق)، هذا الحب (محض الحقيقة)، لا تشوبه شائبة هوى أو أي شيء، من هذا القبيل، فحبه إذن كاشف عن حب الله، وهو عين الحب لله وفي الله: اللهم إني أحبه فأحبه.. ودعاء النبي مُستجاب أم لا؟ دعاء النبي مستجاب ليس فيه كلام.. فأحبه وأحبب من يحبه.

وهنا نريد أن نتوقف قليلاً، ونعرف ما الذي نستوحيه ونستنبطه من الرواية الواردة في كتاب مسلم (وأحبب من يحبه) فما هو معنى هذا المقطع؟

إن معناه (أن من لا يحبه، فلا تحبه) وإلا فالكلام يصبح لغواً، أيعقل أن يكون المعنى (أحبب مَنْ يحبه، وأحبب مَنْ لا يحبه؟)، هذا الكلام لغو..فأحبب من يحبه له عقد إيجاب وهو منطوق الكلام وله عقد سلب وهو مفهوم الكلام، يعني (مَنْ لا يحبه لا تحبه يا رب) ودعاء النبي كما

---

(١) التاريخ الكبير للبخاري: ج٧، ص٤٠٠ وفيه (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر)، بحار الأنوار: ج٩، ص٢٩٤، ح٥.

أشرنا إلى ذلك مُستجاب، وقلنا بأن الأمر جداً واضح، ولا يحتاج إلى استدلال، ولكن مع ذلك نستدل بأن معنى ذلك مَن لا يحبه فلا تحبه يا رب، والذي لا يُحبُّه الرب هل يعقل أن يدخل الجنة؟!

(الغضب) هو السر في استحقاق فاقد المحبة للآل الأطهار، النار

ونرجع إلى رواية الكافي، برواية الصافي: لو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام، حتى يصير كالشن البالي ثم لم يدرك محبتنا أكبه الله على منخريه في النار.. لماذا؟

والظاهر إرادة العمد أو التفسير في عدم إدراك محبتهم، أما القاصر فإنه يعاد امتحانه يوم القيامة فإن (أدرك محبتهم) هنالك دخل الجنة وإلا فالنار حيث عاند رغم مشاهدته الحق.

لأنه لو لم يدرك محبة الرسول وأهل بيته الأطهار (عليهم الصلاة وأزكى السلام) لم يدرك محبة الله، ولم يحبه الله سبحانه وتعالى، والذي لا يحب الله، ولا يحبه الله لا يُعقل أن يدخل إلى الجنة كما هو واضح، ومن فلسفة ذلك هذه الآية القرآنية الكريمة التي أستدل النبي بها ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، فإن الله تعالى اعتبر أن أجر الرسالة هو المودّة في القربى، فلو لم يؤد الأجر فهو مغضوب عليه، جاحد لأعظم نعمة عليه[1]، غير مرضي لله، لا في ذاته ولا في أعماله.

وبعبارة أخرى: هو بمنزلة الغاصب؛ إذ أخذ (المثمن) ولم يدفع (الأجر والثمن).. وهل تنفعه عندئذ العبادة، ولو لألف ألف سنة؟

---

(١) وهي (الرسالة) حيث لم يؤد حقها وأجرها.

وتدل على ذلك رواية البخاري عن رسول الله ﷺ **(ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة.. ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره)**[1] وهل يدخل من خصمه رسول الله شخصياً، الجنة؟ وقد فصلنا وجه الاستدلال بها سابقاً وفي محاضرة أخرى أيضاً فليراجع.

كلا.. ثم كلا.. لأن الله تعالى يقول له: ما دام لم تدفع أنت أجر الرسالة، فهذه العبادة ليست مرضية لي، مثل الشيء المغصوب، مثل أحدهم غصب برتقالة، وأهداها لشخص هل هذا العمل مرضي ومقبول؟ أم إنه باطل ومرفوض؟

مثل ذاك الصوفي الذي رآه الإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام) يسرق متخفياً ثم يتصدق بما سرقه فسأله: لِمَ؟ قال الله عز وجل يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[2]، فإذا أنا أسأت سيئة فحسنة تحبط تلك السيئة، وتبقى لي تسع حسنات، فقال له الإمام عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[3]

ولأن المقياس إطاعة الله لا حجم العبادة

هذا هو المقياس، الله سبحانه وتعالى يُريد منا أن نكون مطيعين، ولا يهمه (حجم العبادة) وسنين الركوع والسجود إذ (إنما يتقبل الله من المتقين) فسبعين سنة عبادة مع رياء أو عجب، لا تسوى ثانية عبادة لوجه الله الكريم، بل تلك السبعون سنة مصداق الآيتين الشريفتين ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ

---

(١) الحديث: ٢٢٢٧، الباب ١٠٦، بابا إثم من باع حراً.

(٢) (الأنعام:١٦٠)

(٣) (المائدة:٢٧)

يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[١] و﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾.[٢]

وكذلك الأمر في (العبادة) بدون (مودة) الرسول الأعظم وأهل بيته الأطهار عليهم صلوات الملك الجبار، وذلك لأن (العبادة) بدون (المودة) ظلم بمنزلة الغصب.. بل هي أجلى مصاديق الظلم والغصب..

نحن كيف نفهم معنى الغصب العادي؟.. إن هذا أجلى مصاديق الغصب، لاحظوا شخصاً يغصب أرضاً، أو لباساً ويصلي فيه فهل صلاته صحيحة مقبولة؟ واضح أن هذا الشيء مبغوض وغير مقبول، فكيف لو غصبت أجر الرسالة؟ وأنت أصبحت مسلماً ولكنك لست مسلماً حقيقة إن لم تود أهل البيت عليهم السلام، لأن الإسلام هو التسليم.

ولنذكر الآن آية أخرى كريمة توضح ذلك ـ وأحاول أن أختم لأن الحديث طويل في هذا الحقل لكن نستثمر آخر الكلمة من كلامنا ـ يقول الله سبحانه وتعالى لإبليس ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[٣] لماذا لم تسجد لآدم؟ إن الإسلام هو التسليم، وإبليس يقول: أنا أسجد لك يا رب خمسة آلاف سنة الله.. يقول له الرب: كلا.. أريد سجدة واحدة لآدم.[٤]

وأضيف توضيحاً: ولعله كانت تكفيه سجدة واحدة من ثانية واحدة،

(١) النور: ٣٩.
(٢) الفرقان: ٢٣.
(٣) (الأعراف:١٣)
(٤) راجع البحار للشيخ المجلسي :ج٢٧ ص ١٧٥،فيه تفصيل جميل..

لأن الكلي الطبيعي يصدق وينطبق بتحقق أحد أفراده.

وبذلك يظهر أن المقياس عند الله التسليم لأمره لا (حجم العبادة).

فأنت يجب أن تكون مُطيعاً لله ولرسول ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[1] وقد قال رسول الله ﷺ: (أحبب من يحبه) والذي لا يحبه لا تحبه يا رب حتى لو عبد ألف سنة، حتى لو عبد مليار سنة، المقياس هو أمر الله ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ إبليس عالم، وكان مُعلم الملائكة، وقف مقابل الله وأراد أن يُبيِّن عضلاته العلمية، وكفاءاته الذاتية! ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي﴾ (وكأن الله لا يدري) ﴿مِن نَّارٍ﴾ (أنا أشرف منه) ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾..

الله يقرع إبليس بالتعبد قبل الاحتجاج

واللطيف أنني كنت أتأمل في الآية، فالله سبحانه وتعالى لا يجيبه بشكل احتجاج يعني لا يقرِّعه ببرهانٍ مقابل، لأن الطرفين يعلمون الحقيقة ما هي، بل يُقرِّعه بالتعبد، يقول له: مَنْ أنت حتى تتكلم، أنت عبدي، أنت يجب أن تسمع كلامي فقط، لا حاجة لنا للبرهان، وإن كان البرهان موجوداً، بل قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لاحظوا (التعبد): ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فإذا كان الله هو الآمر، فعليك بالإطاعة دون تردد أو تأمل أو نقاش واستفهام فكيف بالاعتراض؟ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (الله ماذا يقول له) (قال: فأهبط منها) أنت عبد يجب أن تسمع الكلام، وانتهى الكلام، فلا يحق لك أن تستدل أصلاً، لأنه قال: (فأهبط منها) وبعد ذلك يعّلمه الله بالتعبد، وإن كان الدليل العقلي و(التعقل)

---

(١) النساء: ٦٥.

أيضاً، موجوداً ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ بل إن ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ تعبدي أيضاً في مقابل ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

وجوابه غير التعبدي هو: أن آدم (بروحه) والروح من (أمر الله) ومن (النور) و(النور) خير من النار.. فكيف بما كان من أمر الله.

وجوابه الآخر أن آدم كان يحمل في صلبه أنوار المعصومين وهم مَن خلق الله الكون لأجلهم.. فمن إبليس عندئذ؟ ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (تتكبر في الجنة على ربك)؟ الله يقول لك أسجد لآدم، فأنت ماذا تقول؟ إنه تعالى لا يريد منك ولا تريليون سنة عبادة.. إذ إنه ليس بحاجة إلى عبادة العابدين وسجدة الساجدين.. بل كله اختبار وابتلاء وامتحان الله يقوم باختبار عبده، يمتحنه، يبتليه ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[1]..

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ هذا (المقياس) هو (المقياس)؛ ولا غير... إنه (إطاعة الله) سبحانه وتعالى، وليس عبادة مليون سنة.. أو أكثر أو أقل..

وبذلك يظهر أنه يمكن أن نعد هذه الرواية من البديهيات، إذا لاحظناها بهذا المنظار الموضوعي ـ الإلهي.. إنها جداً واضحة وليست شيئاً عجيباً.. إن عبادة مليون سنة مثلاً ليست هي المقياس، ولا المناط لرضى الله وقبوله ومثوبته، وليس عليها (المدار) ولا عليها (المعوّل).. بل المقياس هو: إن الله تعالى ماذا أراد منك؟ وإلا فلأحدهم أن يصلي

---

(١) (الإنسان:٢)

صلاة الظهر عشرة ركعات، ويقول مستدلاً: عشر ركعات أفضل من أربع ركعات!! فالمقياس أن تطيع أمر الله كما قال: (فأهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها).

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يختبر عبيده، فإذا نجح الإنسان في هذا الامتحان (امتحان المودّة في القربى)، حيث قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، إذا دفعنا الأجر فكل عملنا مقبول من صلاة، وصيام، وحج، وزكاة، وخمس، وغيرها، وإذا لم ندفع هذا الأجر فذلك هو حال الغاصب، وكل هذا العمل غير مقبول.. فالرواية جداً واضحة، لذا نجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذيل هذه الرواية، يستدل بهذه الآية الشريفة، بل أن الآيات الدالة على ذلك ليست بالقليلة.. ـ ولتفصيل ذلك مجال آخر ـ.

لمحة من عبادة الإمام السجاد عليه السلام

والإمام السجاد (عليه الصلاة وأزكى السلام) وهذه الليلة ليلة شهادته (عليه الصلاة وأزكى السلام) وكي نعرف بعض عظمة القربى الذين دعانا الله سبحانه وتعالى، إلى مودتهم نكتفي برواية واحدة نظراً لضيق الوقت إلا أن بها كل الدلالة وأعظم الفائدة، والرواية تقول:

إن الإمام السجاد (عليه الصلاة وأزكى السلام)، كان ينتخب عندما يريد أن يسجد، (الحجارة الخشنة)، ونحن نسجد على تربة صافية ما فيها ألم، ومع ذلك نحس بالإرهاق والتعب والضغط لو طال السجود دقائق، أو تكررت الصلوات والسجدات لكن أن يسجد الإنسان على حجارةً خشنة، ألف ركعة في اليوم يعني ذلك ألفين من السجدات فلذا

كان صلوات الله عليه يلقب بـ(ذي الثفنات)،[١] (عليه الصلاة وأزكى السلام).

بل الرواية تقول بأن الإمام (عليه الصلاة وأزكى السلام) خرج إلى جبل من جبال المدينة، صعد فوق الجبل، وأنتخب الحجارة الخشنة المحرقة نص الرواية (المحرقة) تصوروا: كم السجود على الحجارة المحرقة مؤلم؟ ولعل ذلك كان في النهار.. وإذا كان كذلك.. فأضف إلى حرارة الحجارة المحرقة، حرارة الشمس الحارقة حجارةً خشنةً محرقة وهناك سجد سجدة طويلة وعندما رفع رأسه من السجود كان وجهه المبارك قد أبتّل من الدموع كأنه غمس في الماء..[٢] هكذا كان الإمام السجاد (عليه الصلاة وأزكى السلام) وهذا غيض من فيض، وهؤلاء الأطهار هم الذين طلب الله سبحانه وتعالى، منّا أن نودّهم.

جعلنا الله وإياكم من الذين يودّون بجوانحهم وجوارحهم أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام) إنه سميع الدعاء..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد الطاهرين.

---

(١) راجع البحار للشيخ المجلسي: ج ٤٦ ص ٦..

(٢) البحار للشيخ المجلسي:ج٤٦ ص١٠٨..

[٦]

أجر الرسالة الخاتمة

بحوث في (الأجر) و(المودة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

شَكُورٌ﴾.(١)

الحديث حول آية المودة حديثٌ مُتشعِّب الأطراف، ودقيقٌ، وعميقٌ فلنقتطف بعض الورد من روض، ورياض هذه الآية القرآنية الشريفة، ولنتوقف عند محطات.

استخدام القرآن مصطلحات التجار

المحطة الأولى: لماذا استخدم سبحانه وتعالى كلمة (الأجر)؟ ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، مع أن المودة أمر معنوي، وأمر قلبي، ولا يقبل المعاوضة والتبادل، كما أن الرسالة أمر تشريعي، وأمر معنوي، وروحي وروحاني، لا يقبل التبادل والمعاوضة، ولا يصح في بادئ النظر إطلاق كلمة (الأجر)، و(الثمن)، و(المثمن) أو ما يستدعي معنى الثمن، أو المثمن، أو ما يتوقف على الثمن والمثمن، فإن (الأجر) هو الثمن والطرف الآخر هو المثمن..

والإجابة على هذا السؤال: هي إجابة مفيدة، ولطيفة، وعامة، وتوضِّح لنا أيضاً الفلسفة من استخدام مصطلحات (التجار) و(الكسبة) وهي: أن الله سبحانه وتعالى ـ عندما نتتبع القرآن الكريم ـ نجده كثيراً، وفي مواطن عديدة يستخدم عبارات التُجار، يستخدم مصطلحات السوق، يستخدم ألفاظاً تُستخدم في الأسواق، وفي المعامل، والشركات، والدكاكين عادةً، وإذا دققنا نلاحظ أن القرآن الكريم هكذا يخاطبنا الآية الأولى، تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم

---

(١) (الشورى: ٢٢ ٢٣)

وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[1]

هذا اصطلاح يرتبط بالبيع، والشراء، بالتجار، بالكسبة، بالسوق لكن الله استخدمه في أثمن شيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، هذه آية قرآنيةٌ كريمة.

أما الآية الثانية في هذا الحقل، فتقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.[2]

إذن ههنا نجد تصريحاً بكلمة (التجارة)، وتفصيلاً لمفرداتها، حيث ههنا طرفان للتجارة هما (يَتْلُونَ كتابَ الله) هذا طرف من أطرف التجارة، هذا هو المثمن ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ والطرف الآخر هو (الثمن): ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.[3]

الآية الثالثة: قوله تعالى في آية أخرى ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[4] فـ(الضلالة والهدى) ثمن ومثمن احدهما بيعَ، والآخر أشتُريَ، وكذا العذاب والمغفرة، وهنالك عملية شراء (اشتروا).

---

(١) (هود :١١١)

(٢) (فاطر :٢٩)

(٣) (فاطر :٣٠)

(٤) (البقرة :١٧٥)

الآية الرابعة: قوله سبحانه تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1] وهنا نجد التعبير الصريح بكلمة ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ﴾.

الآية الخامسة: و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.[2]

فالمثمن أي البضاعة هو ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ و﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ﴾، والثمن هو: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ من جهة، وهو جزء الثمن والأجر ومن جهة ثانية، فإن الجزء الآخر للثمن هو: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾..

إذن الله سبحانه وتعالى خُلُقه أو أسلوبه أو دأبه - إن صحَّ هذا التعبير- في القرآن الكريم استخدام مصطلحات رائجة (وسيّالة) في الأسواق، وربما وردت كلمة (أجر) في القرآن في ثلاثين، أو أربعين موضعاً، وكلمة (الأجر) هي موطن الشاهد في الآية الشريفة ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

كلمة (أجر) مُكررة في القرآن الكريم في مواطن عديدة في هذه الأمور المعنوية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ

---

(١) (هود :١١١)

(٢) (الصف : ١٠ ١٢)

﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾[١]

وكقوله جل اسمه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[٢] ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾ فالأيمان أمر معنوي، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أمر معنوي، ﴿فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

هذه المحطة الأولى للتوقف، وهي: إن الله سبحانه وتعالى يستخدم هذه المصطلحات في القرآن الكريم، في مواطن كثيرة ـ ربما بالعشرات ـ أي مصطلحات الأسواق، مصطلحات التجار، مصطلحات التبادل التجاري، وما أشبه ذلك.

الحكمة في استخدام مصطلحات التجار

والسبب في ذلك يحتاج إلى بحث طويل، لكننا نشير هنا إشارة بالمقدار الذي يرتبط بالآية القرآنية الكريمة فنقول: لعل السبب في ذلك يعود إلى مجموعة من النقاط:

١. الأدب التصويري أوقع في النفس

السبب الأول: أن الله سبحانه وتعالى يستخدم في كتابه ما نعبر عنه في الأدب بـ(الأدب التصويري)، أي أنه تعالى يستخدم ما يثير القوة المتخيلة والقوة المتوهمة ويدغدغهما ويفعّلهما كثيراً، وهذا نوع راقٍ من الأدب وهو الأدب التصويري.

---

(١) (فصلت :٨)

(٢) (آل عمران :١٧٩)

والأدب التصويري أكثر وقعاً في النفوس، وأدعى للانقياد.

وإذا تأملتم القرآن الكريم تجدونه يستفيد من (قوة الخيال) إضافة لاستفادته من القوة المتعقلة في المئات من المواطن، وهكذا نجد أن (الأدب التصويري)، في كثير من آيات القرآن الكريم، يستخدم بشكل عجيب، لأن ذلك أدعى للانقياد.. ونفس هذه النقطة تحتاج إلى ساعات من الحديث، لكن نكتفي الآن بمقدار الإشارة هذه.

٢. أتمُّ للحجة، وأدعى للعقوبة

السبب الثاني: إن ذلك أدعى للعقوبة، وأكثر إتماماً للحجة، لأن الله سبحانه وتعالى، عندما يُجسد المعنى المعقول، في المعنى الملموس؛ وهو ما يعبر عنه بـ(تشبيه المعقول بالمحسوس) ونحن نعبر بـ(قولبة المعقول، بالمحسوس) ـ والمصطلح المعروف في البلاغة هو تشبيه المعقول بالمحسوس ـ لكننا نعبر هنا بـ(قولبة) و(تأطير) المعقول بالمحسوس، أي المعقول نعطيه إطاراً حسيًّا، ونجسده في شكل يمكن أن يرى أو يُحس ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾.. ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ وهكذا وهلمَّ جراً..

إن قولبة وتأطير المعقول، في إطار المحسوس، أدعى لقوة الحُجة، وأتم للحجة على الطرف لو خالف ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، و(نحن نعرف أن أحدهم إذا لم يدفع الأجر فهو خائن، ومجرم، فهو يستحق العقوبة)، الله سبحانه يستخدم هذا المصطلح المأنوس في أذهاننا لكي تنعكس هذه الظلال والأبعاد، التي نحن نأنس بها، ونألفها، ونعرفها، ونعاشرها، على الآية الشريفة، فنعرف فداحة الجريمة، لو

تخلينا عن دفع هذا الأجر، ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، فالذي لا يدفع الأجر هو خائن، ساحق لضميره، ووجدانه، فكيف بمن لم يدفع الأجر الذي طلبه الله سبحانه وتعالى؟

هذه هي العلة الثانية وهي: إن الله سبحانه وتعالى يريد أن تكون الحجة أتم، وأن تكون الحجة ادعى للعقوبة، وأكثر تأثيراً أيضاً.. أي أن يكون (التهديد بالعقاب) ذا مفعول أقوى ويكون أكثر تأثيراً، فهذه إذن هي من العلل التي يمكن أن تذكر لهذا النوع من التعابير الكثيرة في القرآن الكريم..

٣. أن ترتبط الفكرة بحياتنا اليومية

السبب الثالث: هي أن تتشابك حياتنا، وتترابط مع هذه المفاهيم السامية التي صيغت في قوالب وأشكال نواجهها يومياً؛ فالأجر مما نتعامل معه يومياً، فالبقال، والعطار، والخباز وكذا الطبيب والمهندس والمحامين وكذا الأب والأم والطفل والشيخ، كلهم يواجهون يومياً أو يرون أو يسمعون عملية (بيع وشراء) أو (أجر وثمن) أو (تجارة) أو ما أشبه، فكأن الله يريد أن يذكرنا آناء الليل، وأطراف النهار: بأنه يطالبنا بالأجر الذي أراده منا وهو ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ مقابل عظيم ما منحنا إياه ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وذلك كالمالك البائع الذي يطالب المشتري بالأجر، فالله سبحانه وتعالى قد ربط هذا المفهوم النظري ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، بمعنى يتجسد يومياً أمامك، ربما عشرات المرات أو للبعض: مئات المرات، فقد ربط ذاك المعنى بشيء متجدد باستمرار أيضاً، وقد تكون هذه من الحِكم - والحديث طويل- ولكن

هذا المقدار يكفي في أتمية الحجة علينا، وفي أن نكون أسلس قياداً لله سبحانه وتعالى فيما طلبه منا من الأجر وهو ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هذه المحطة الأولى للتوقف..

فلسفة استخدام (في) دون (اللام) في آية المودة

المحطة الثانية: وقد حيَّرتني قليلاً، وراجعت بعض التفاسير (مجموعة منها) فلم أجد لها جواباً، فبقيتُ أفكر، لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى حرف (في) ولم يستخدم (اللام)؟ ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾، و المفروض حسب الاستخدام المتداول عادةً هو استخدام (اللام) (إلا المودة للقربى) وليس ﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

نحن نقول عادة: مودتي لك، ولا نقول: مودتي فيك.. أقول: مودتي لابني، مودتي للعالم، محبتي لك؛ ولا أقول: محبتي فيك، عادةً..لماذا؟ لنكتة دقيقة جداً سنشير لها إن شاء الله..

واللام هنا في قولنا: مودتي لك تفيد الاختصاص فإنها وإن كانت تأتي لمعاني عديدة إذ:

والـــــــلام لـــلـــمـــلـــك وشـــبـــهـــه

وفـــي تـــعـــديـــةٍ أيـــضـــاً وتـــعـــلـــيـــلٍ قُفي

إلا أن قرينة الحكم والموضوع تشهد بأنها للاختصاص.

ولكن (في) هي (ظرفية) حسب الظاهر، مثلاً تقول: زيد في الدار.. وكان المفروض حسب الاستخدام المتداول أن يكون التعبير هكذا ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هذا مختص بهم، هذا حق لهم فلماذا قال: (المودة في

القربى)؟ وأؤكد موضحاً مرة أخرى إنك تقول: مودتي لك، أو للملائكة أو للسماء، أو للورد مثلاً بدلاً من أن تقول: مودتي في الورد، أو في السماء، أو مودتي في العشيرة.. عادةً تقول مودتي (لـ) وليس (في)، أي تقول مودتي لعشيرتي، مودتي لابني، مودتي لولدي، أو (لبلدي مودتي) مثلاً.. لا أقول مودتي (في)، فلماذا استخدم في هذه الآية حرف الظرف (في) مع أنه في آية قرآنية أخرى ـ تأملوا فإن الله سبحانه وتعالى دقيق جداً في تعابيره ـ استخدم (اللام) فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.(1)

فـ(ولذي القربى) ولم يقل (في القربى)، الآية هكذا ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وليس (في القربى) لكنه تعالى يستخدم في آية المودة حرف (في) على خلاف المتعاهد المعروف ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ﴾ (ليس) للقربى، وإنما ﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

فبقيتُ ليومين، ثلاثة، أفكر، بشكل متقطع، أثناء فواصل المطالعة او الكتابة، وأثناء المشي وبحثتُ في التفاسير الموجودة عندي، فلم أجد تطرُّقاً لهذا السؤال، لذلك استخدمتُ طريقة (التفكير المتقطع) ـ وهذه طريقة مهمة في التفكير ـ وعادةً أفكر بهذه الطريقة، عندما أريد استجلاء سرّ ما قد استغلق علي، أي لا أتوقف عند مسألة أفكر فيها لساعة أو ساعات، بل أفكر دقيقتين ثلاثة، ثم أتركها إلى الليل، ثم أفكر دقيقتين ثلاثة، أتركها للغد، دقيقتين ثلاثة وهكذا..هذا الأسلوب أثبت جدواه بشكل غريب في أي عمليةً للتفكير الإبداعي فإنه يستدعي وقتاً أقل،

---

(1) (الأنفال:٤١)

وانجازه الإبداعي أكثر بكثير- إلى أن فتح الله سبحانه وتعالى بمعنى دقيق نعرضه بخدمة السادة الأفاضل، ونستفيد منهم أيضاً في الجرح والتعديل أو الإضافة:

(المودة) لأناس داخل دائرة القربى فقط

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، التعبير دقيق إلى أبعد الحدود (ليس) للقربى، إذ الله لا يريد المودة (للقربى) بقول مطلق، بل يريد المودة (في) القربى فقط، إذ (القربى) كمجموع وكجميع[1] لا موضوعية لهم، وإنما الذين لهم الموضوعية هم مجموعة معينة داخل إطار القربى، فَهُم ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فلذا قال الله تعالى ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ولم يقل (للقربى).

وبتعبير آخر هناك دائرة اسمها دائرة (القربى)، الله بقوله هذا في الواقع، يثبت شيئاً أي المودة في داخل الدائرة، ولا يثبت ذلك الشيء لكل الدائرة، كما أن مَن هو خارج الدائرة كأزواج النبيﷺ أجنبي عن الآية بالمرة..

توضيح ذلك: إن كل (الدائرة) بما هي هي، ليست هي المطلوبة، وكما أنها ليست (بما هي) مرفوضة، هي حياد في هذا البحث، فالله سبحانه وتعالى، يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾.. (هذه المودة أين ظرفها؟) ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.. وبذلك نعرف أولاً: إن كل دائرة القربى ليست هي المطلوبة، وثانياً: إن مَن هم خارج دائرة القربى ليس المطلوب مودتهم

---

(١) الفرق بين (الجميع) و(المجموع) أن (الجميع) يراد به كل واحد واحد و(المجموع) يراد به مع لحاظ الهيئة الاجتماعية.

أيضاً.

(نساء النبي ﷺ) لسن من القربى

فأبو بكر، عمر، عثمان وأشباههم، أجانب عن هذه الآية القرآنية الكريمة، وعن مفاد أجر الرسالة، وهو المودة ﴿فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فإنهم خارج دائرة ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وكذلك نساء النبي ﷺ ليس لهن ربط بالموضوع، هنَّ أجنبيات عن الآية وعن طلبه، المودة ﴿فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وهنَّ خارج دائرة القربى، فالآية فيها جانب إثبات ليس للدائرة نفسها، وإنما لجمع مبارك هم في داخل الدائرة، وهم أهل البيت عليهم السلام كما سنوضِّح لاحقاً؛ كما أن مَن هم ليسوا من ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ كنساء النبي ﷺ ليسوا في داخل هذه الدائرة قطعاً، وهو أمر بديهي، ولكن ومِن هوان الدنيا على الله أنه صار البعض ويا للأسف يُشكك في البديهيات، كما شكك الشيوعيون في أصل وجود الله سبحانه وتعالى أيضاً، وكما يحاول أناس تشكيك الموالي في ولاية أمير المؤمنين (عليه الصلاة وأزكى السلام)، وكونه هو الخليفة الأول بلا فصل وذلك مما لا ريب فيه ولا شكٌّ يعتريه كما أن الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء بدون ريب، لكن الزمان، والجهل المطبق، يلجأ الإنسان لأن يستدل على البديهيات بأدلة..

ويشهد لذلك صحيح مسلم

هذا صحيح مسلم المعروف، وفي بحث فضائل الصحابة، والرواية على حسب هذا الترقيم/ ٦٣٠٧، قال رسول الله ﷺ: **(ألا وإني تارك فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وحبل الله، من أتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة، وفي الرواية فقلنا: مَنْ أهل بيته؟**

نساؤه.. قال: لا..)

هذا ليس راوياً شيعياً بل (صحيح مسلم) يقول: قلنا مَنْ أهل بيته، نساؤه؟ قال: لا؛ وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها.. أهل بيته أصله وعصبته الذين حُرِّموا الصدقة بعده..

كلا؛ فالمرأة أجنبية، وقد ارتبطت بالإنسان بارتباط سببي وليس نسبياً، ثم يطلقها فتنفصل، وأما القريب فلا يمكن أن ينفصل، (ابن عمك)، ابن عمك مهما صنعت، و(ابنك)، ابنك مهما صنعت، لكن الزوجة امرأة أجنبية من حيث (القرابة)، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها (أهل بيته أصله وعصبته الذين) استشهاد آخر (حُرموا الصدقة بعده).. وفي رواية أخرى: هل نساؤه حُرمنَّ الصدقة؟ الجواب: كلا؛ هذه الرواية أيضاً موجودة في صحيح مسلم..

فبناءً على هذا: الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ﴾ في هذه الدائرة.. أي دائرة القربى و﴿فِي﴾ ظرفية وأما خارج الدائرة، فكلا.. نساء النبي، كلا، أصحاب النبي، كلا، المطلوب كأجر للرسالة: هو ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ هذا النفي.

ثم ننتقل للإثبات في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، ونفهم من ﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أنه يوجد في داخل هذه الدائرة ناس تجب مودتهم! لا كل قريب، وإلا أبو لهب أيضاً قريب، أبو جهل أيضاً قريب، فإذا قلت مثلاً: محبتي لقبيلتي، صارت للقبيلة موضوعية، أما في المودة فليس الأمر كذلك.. فإن محبتنا لقربى الرسول ليست بما هم

قربى الرسول حتى لو كانوا كفاراً فجاراً كأبي لهب كلا.. المحبة لهم ليست بهذا اللحاظ بما هو هو، مع قطع النظر عما اتصفوا به من قيم، ومبادئ، ومُثُل عليا..

تقول: محبتي (لعشيرتي) هذا جهل، لكنك لو قلت: مودتي (في عشيرتي) وكان فيها أناس أخيار فإن ذلك صحيح إذ يعني أن هناك أناساً في عشيرتي أودهم وأحبهم، هذا صحيح، الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يقول: ﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

والآن يجب علينا أن نسأل: هذه المودة التي فرضت لثلة محدودة داخل (دائرة القربى)، هؤلاء الناس مَنْ هم؟

مودة مَنْ، في داخل دائرة القربى، واجبة؟

في آية ثانية وهي آية التطهير، يُجيبنا ربنا سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]

أهل البيت عليهم السلام هم داخل (دائرة القربى) دون شك، فإنهم ابنته الزهراء وسبطاه الحسن والحسين وابن عمه علي بن أبي طالب ثم سائر الأئمة عليهم السلام وصولاً للمهدي المنتظر عجل الله فرجه؛ وهؤلاء الأطهار هم الذين طلب الله سبحانه وتعالى مودتهم كأجرٍ للرسالة بالبرهان كما سيأتي أو لأنهم القدر المتيقن على أقل الفروض، فـ(أهل البيت) مِن القربى، وهم في القربى، هؤلاء هم المقصودون في هذه الآية القرآنية الشريفة، كما سنوضح ذلك أكثر أيضاً.. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ ليس للقربى

(١) (الأحزاب:٣٣)

وإنما ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المودة.. هنا نسألُ الله سبحانه: ولكن ما وضَّحتَ لنا يا رب مَنْ هم الذين يوجدون في داخل دائرة القربى، وأجر الرسالة هي مودتهم؟

ونتلقى الجواب: بأنهم أولئك المطهرون من كل رجس ودنس.. أي إنهم هم أهل البيت.. ولكن لماذا خصوص أهل البيت؟ نجد الإجابة الآية القرآنية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ هؤلاء هم الذين يمكن ويعقل أن يكون أجر الرسالة مودتهم، هذا في القرآن الحكيم..

(حديث الكساء) في صحيح مسلم

ونسأل صحيح مسلم أيضاً، نقول: يا صحيح مسلم، ويا بقية الصحاح الذين تنكرون أو تتغافلون عن ذكر أكثر فضائل أهل البيت عليهم السلام إلا أن الله أبى إلا أن يُجري الحق على لسان الذين يكابرون ويعاندون نسأله ونقول: من هم أهل البيت؟ ونجد الجواب في صحيح مسلم حسب الطبعة التي عندي/ ١١٧٩ / وفي باب فضائل أهل بيت النبي، رقم ٩/ ٥٥ ورقم الحديث حسب ترقيم، هو / ٢٤٢٤/ حسب ترقيم آخر ٦٣٤١ / ٦١..

(قالت عائشة: خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم غداةً وعليه مِرط مرحّل (نوع من الكساء، أفرض مثل البطانية مثلاً أو ملحفة لكنها كبيرة، وعليه مرط مُرحّل أي مثل الرحّل) لونه من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله ـ تأملوا فلسفة التمثيل الخارجي لهذا المعنى ـ ثم قال

رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

هؤلاء هم الذين طلب الله مودتهم، إلا المودة ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لا (للقربى)، وهم الموجودون في داخل (دائرة القربى) الذين طلب الله سبحانه وتعالى مودتهم، كما تبيِّن الآية الشريفة الثانية، وعلماء العامة، وكتبهم تُصرِّح بأن المقصود بأهل البيت عليهم السلام: هم محمد ﷺ وأهل بيته الأطهار (عليهم الصلاة وأزكى السلام)، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى﴾ داخل دائرة ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾، الذين هم أهل البيت الأطهار (عليهم الصلاة وأزكى السلام) الذين جعلت الرسالة متوازنة مع (مودتهم) إذ عُدّت مودتهم هي (الأجر) الذي طلب من الناس.

هذه المحطة الثانية، ولها أيضاً إضافات لكن نقتصر على هذا المقدار..

آية المودة دليل على أفضلية أهل البيت من كل الخلائق

المحطة الثالثة: وهي مهمة جداً؛ إن هذه الآية الشريفة تقدم دليلاً واضحاً على أن ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الذين هم خصوص أهل البيت عليهم السلام هم أولاً:

أفضل خلائق الله سبحانه وتعالى على الإطلاق.

وهم ثانياً: المعصومون دون شك وريب، لكن كيف نستنبط من هذه الآية القرآنية الكريمة ذلك؟

أما أنهم أفضل الخلائق على الإطلاق فإن استنباطه من آية المودة واضح جلي، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ عليه،

على أيِّ شيء؟ على (الإبلاغ) لكل أوامر الله، على (البلاغ) لرسالات الله، على (الذِّكر) الذي هو القرآن الكريم، على (الرسالة)؟ فالله سبحانه وتعالى أراد ـ حسب إجماع المفسرين ـ من (عليه) أي (الرسالة)، أي (البلاغ)، أي (القرآن الكريم)، أي كل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فـ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ﴾..

وعلى ذلك نقول: بأن مرجع الضمير في (عليه) أي المشار إليه بالضمير المتصل (الهاء) وهو الرسالة هو أحد الطرفين وهو المثمن وأما الطرف الآخر فهو الأجر، والطرف الأول هو أكمل ما يمكن في عالم التشريع، أي القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، فيجب أن يكون الطرف الآخر هو الأكمل أيضاً.

وبعبارة أخرى: القرآن الكريم هو قمَّة الكمال في عالم التشريع، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يطلب أجراً على (قمَّة الكمال في عالم التشريع)، فلا يُعقل بالنظر إلى حكمته، إلا أن يكون الأجر (قمَّةً في الكمال في عالم التكوين) وهم أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام)، وهذان هما (الثقلان) كما في الرواية الأخرى والتي تعضد هذا المعنى، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله (هذا قمة عالم التشريع) وعترتي أهل بيتي.. قمة عالم التكوين.. ولو كان هنالك ما هو أفضل منهما، لكان اللازم أن يعبر عنه بالثقلين وأن يتركهما الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله فينا..

وبعبارة أخرى: لو كان جبرائيل، وميكائيل، وأسرافيل، ومن أشبه من ملائكة الله العظام، لو كانوا أعظم من (علي، وفاطمة، والحسن،

والحسين وسائر الأئمة الأطهار عليهم السلام)، لكان من اللغو، ومن خلاف الحكمة، أن يطلب الله سبحانه وتعالى أجراً على أعظم ما أنزله على الإطلاق وهو القرآن الكريم، أن يطلب أجراً إلا مودة جبرائيل، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا﴾ ماذا؟ (إلا أعظم شيء) طبعاً، فالمقابل هو (على هذا أي على فرض كون جبرئيل ونظائره هم الأعظم من علي والأئمة عليهم السلام) إلا محبة جبرائيل، إلا محبة ميكائيل، إلا محبة إسرافيل، وما أشبه ذلك من عظام ملائكة الله..

والله سبحانه وتعالى لقاعدة (التناسب)، ولقاعدة (التجانس)، ولقاعدة (الحكمة) في التوازن بين المثمن والثمن، ولضرورة (علم الله) سبحانه وتعالى بالفاضل والأفضل، جعل الأجر خصوص (المودة في القربى) فكيف يُعقل أن يكون (المثمن) أفضل شيء على الإطلاق، ويطلب عليه أجراً لا يتناسب معه، أي أجراً مفضولاً؟ فهذا مما لا يُعقل، لأن قاعدة التناسب، قاعدة السنخية، قاعدة التجانس، قاعدة التوازن بين المثمن والثمن، تقتضي وتدل على أن (المثمن) كما كان أشرف شيء، وأكمل شيء، وأعظم شيء، وأجمل شيء، في عالم التشريع؛ فإن (الثمن) هو أيضاً مما يوازنه أي إنه أعظم شيء، وأشرف شيء، وأجلّ شيء، وقد حدد الله تعالى الثمن والأجر وهو مودة محمد وأهل بيته (صلوات الله عليهم جميعاً)..

آية المودة دليل على عصمة أهل البيت عليهم السلام

وهذه الآية تدل أيضاً على عصمة أهل البيت عليهم السلام أيضاً، وذلك من وجهين:

أولاً: لقاعدة التوازن والسنخية

الوجه الأول: لقاعدة (التجانس) و(التوازن) و(السنخية)، فإذا كان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكان الأشرف، والأكمل من كل الجهات، فالثمن والأجر ينبغي أن يكون الأشرف، والأكمل من كل الجهات، ومن أجلِّ مصاديق الكمال (العصمة) بدون شك.. فيمكن أن نستدل على العصمة بهذه الآية الشريفة، من باب التوازن والتجانس والسنخية بين الذي لا يأتيه الباطل، من بين يديه ولا من خلفه أي بين القرآن الكريم والرسالة المحمدية وهي الأشرف، والأكمل من جميع الجهات، وبين المعصوم من جميع الجهات أيضاً، والفرض: أن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يخلق المعصوم أي إن يخلق في عالم التكوين ما يوازن القرآن في عالم التشريع فإنه كما كان القادر على أن يخلق كتاباً وينزل ذكراً بذاك الكمال، فإنه القادر على أن يخلق عباداً جعل مودتهم أجراً على هذا الكتاب والرسالة، بذلك المستوى من الكمال..هذا الوجه هو وجه (التناسب).. و(السنخية)..

نعم لو ذهب جاهل إلى أن الله تعالى غير قادر على خلق معصومين يجعل مودتهم الأجر على الكتاب والرسالة، فإنه سيكون مضطراً حينئذ لقبول أجرٍ أدنى وهو مودة غير المعصوم فيجعلها أجراً للرسالة والإبلاغ والذكر الحكيم، وحيث إنه من البديهي قدرة الله تعالى على خلق المعصوم، فلا مجال لهذا التوهم بتاتاً.

ثانياً: للإطلاق الأحوالي والأزماني

الوجه الثاني في الاستدلال بآية المودة على (العصمة): هو (الإطلاق)

في الآية الشريفة؛ الأحوالي والأزماني ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الذين هم أهل البيت عليهم السلام فهل تودّهم في حالة دون حالة؛ وفي زمن دون زمن؛ أو الآية مطلقة؟

الآية الشريفة مطلقة، بل هي شديدة الإطلاق ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ في كل الأزمنة وكل الحالات، وإذا كان الواجب مودته يعصي الله، أو يسهو، أو يخطئ في بيان الحكم الشرعي، فكيف أوده في تلك الحالة؟ من هذه الجهة وفي ههذه الحالة لا يحق لي أن أوده ولا يعقل أن يطلب الله تعالى مودته عندئذ لكنه تعالى أطلق بقوله ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فلم يقيد بحالة دون أخرى، فدل ذلك على أن المودة مطلوبة في كل حالاتهم، في كل الأزمان، في كل البقاع، وحيثما كانوا، وأنَّا كانوا، وحيث كانوا.. وذلك يعني عصمتهم في كل الأزمنة وفي كل الحالات وهو المطلوب، فهذه الآية أيضاً تعد من الأدلة على عصمتهم (عليهم الصلاة وأزكى السلام) وبهذين الوجهين..

وتبقى محطة أخيره في المقام في حديثنا المستعجل نظراً لتعدد النقاط، ولذا نختصر في استعراض البراهين، أو الأدلة، أو الإيضاحات، لتلك المعاني ونكتفي بحكمة، وعلم الأفاضل، والأعلام..

ما الطريقُ لمودة أهل البيت عليهم السلام؟

المحطة الأخيرة: في هذا السياق هي الإجابة على التساؤل الكبير وهو ما هو الطريق لمودة أهل البيت عليهم السلام؟ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وإننا نقتبس الجواب من آية قرآنية ثانية، توضح ذلك، وترشدنا لطريق المودة.. كما أن هنالك رواية شريفة توضح الطريق.. فأنا

أريد (أن أود) أهل البيت عليهم السلام، لكن ما هو الطريق إلى ذلك؟ المودة التي هي أجر الرسالة ما هو الطريق إليها؟ آية قرآنية، مع رواية تشرح هذا المعنى..

الآية تقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[١] و(الود) هو المصدر، والمودة هي اسم المصدر، فالود يساوي المودة بشكل عام[٢]، مثل الحب والمحبة، الحب هو المحبة، والمحبة هي الحب، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾..أي مودة، فالطريق إلى (المودة) هو نفس الطريق إلى (الود) والطريق إلى (الود) هو الإيمان والعمل الصالح، فهذه الآية تشكل الإجابة على السؤال عن الطريق للوصول للمودة التي أرادها الله منا وسألها منا في آية المودة.

وإذا اتضح لنا أن (الود) هو (المودة) اتضح لنا معنى (المودة) على ضوء تفسير الإمام لـ(الود).

(المودة) هي ولاية محمد وأهل بيته عليهم السلام

إن واحداً من الوجوه التي فسرت بها هذه الآية الكريمة ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[٣] أذكره لكم وسينفع في إيضاح معنى (المودة) و(الطريق

---

(١) (مريم:٩٦)

(٢) التقييد بشكل عام يعني: إن جوهر المعنى واحد وإن الخصوصيات كلها واحدة إلا في الفارق الشهير بين المصدر واسم المصدر فإن (اسم المصدر) يطلق على الحاصل من الفعل والمصدر يطلق على الفعل كالغسل والاغتسال والتجارة والاتجار فإن الغسل والاتجار هما المصدر والآخران هما اسمه.

(٣) مريم: ٩٦.

إلى المودة).. إذ يُسأل النبيﷺ: عن الآية فيقول: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، أي ولاية علي وأهل بيتهﷺ[1]..

وجاء في الكافي الشريف أيضاً عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله (عليه الصلاة وأزكى السلام) قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾..قال عليه السلام: (ولاية أمير المؤمنين، هو الودّ الذي قال الله)، تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[2] يعني ولاية علي (عليه الصلاة وأزكى السلام).

فـ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، يعني ولاية علي (عليه الصلاة وأزكى السلام)، وذلك لما سبق من اتحاد (الود) مع (المودة) فإذا كان (وداً) هو الولاية فإن (المودة في القربى) المطلوبة أجراً للرسالة، هي الولاية أيضاً والطريق إليها هو نفس الطريق (للود).

ثم إن (الولاية) تعني (الإتباع) لا مجرد الحب فإن (تولاه) أي (اتبعه) لا مجرد (أحبه).

الطريق للود والولاية هو: الإيمان والعمل الصالح

هنا نقتصر على بعض الإشارات؛ فإذا أراد الإنسان أن يُدرك ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وإذا أراد أن يُدرك ودّ محمد وعلي والأئمة الأطهار (عليهم الصلاة وأزكى السلام) ومودتهم، فالطريق إلى ذلك: الإيمان، والعمل الصالح.. إذ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

(١) بحار الأنوار: ج٢٤، ص٣٣٣، ح٥٨.

(٢) الكافي الشريف للشيخ الكليني: ج١ ص٤٣١..

ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾.

ثم إن الإيمان على درجات فكلما ازداد الإنسان إيماناً، ازداد مودّةً وولاية لأمير المؤمنين (عليه الصلاة وأزكى السلام) والإيمان الحقيقي، هو ذلك، وكلما ازداد الإنسان عملاً صالحاً، ازداد قرباً ووداً وولايةً لأمير المؤمنين (عليه الصلاة وأزكى السلام) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾، أي ولاية لمحمد وأهل بيته عليهم السلام مما يدل على أن الإيمان والعمل الصالح من العلل المعدة لولاية محمد وأهل بيته عليهم السلام وودهم ومودتهم.

وبعبارة أخرى إن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هم المهيئون لإفاضة الله تعالى عليهم الود والولاية والمودة.

لا تناقض بين التفسيرين

والحاصل أن ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ أي (وداً لمحمد وأهل بيته) فمتعلق ﴿وُدّٗا﴾ محذوف وهو (لمحمد وأهل بيته).

وتدل على الوجه الذي ذكرته الروايتان لتفسير آية الود، روايات أخرى تفسر الآية بطريق آخر لكنه يؤكد هذا التفسير لأنه الوجه الآخر له، فقد روى العياشي[1] عن الصادق عليه السلام قال: (دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السلام في آخر صلاته، رافعاً بها صوته، يسمع الناس، يقول: (.. اللهم هب لعلي عليه السلام المودة في صدور المؤمنين، والهيبة والعظمة في صدور المنافقين فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(١) كما روى القمي والكافي روايات قريبة المضمون من هذه الرواية.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾.[1]

وأما التفسير للآية الشريفة بـ(سيحدث لهم في القلوب مودة) مما ظاهره أن المؤمنين العاملين للصالحات كافة سيكونون محبوبين أي سيجعل في قلوب الآخرين، لهم، مودة، فإنه لا ينافيه، بل يؤكده إذ أمير المؤمنين علي عليه السلام هو أجلى المصاديق إذا جمدنا على معنى (الود) من كونه المحبة مع إضافة ما.

وأما على كونها تعني (الولاية) فلا مانعة جمع بين المعنيين (وهما (سيجعل لهم أي لنفعهم وصالحهم الرحمن وداً) في قلوب الآخرين و(سيجعل لهم أي في قلوبهم ولاية لأمير المؤمنين).

إذ **أولاً**: لا مانع من استعمال اللفظ في (أكثر من معنى لا على أن يكون كل منهما تمام المراد)، بل لا استحالة حتى مع (كون كل منهما تمام المراد) كما فصلناه في (فقه التعاون على البر والتقوى) وفي (مباحث الأصول).

وثانياً: قد يقال بعدم كونه استعمالاً للفظ في أكثر من معنى، بل قد استعمل في الجامع.

وثالثاً: قد يكون أحد المعاني ظهراً والآخر بطناً، هذا.

وقد ذكرنا في الأصول مباحث القطع، وجوهاً أخرى ربما بلغت الثمانية للإجابة عن مثل هذا الإشكال فليلاحظ.

هذه الرواية الشريفة قد يستغربها البعض لأنها خلاف المتداول في

(١) نقلاً عن الصافي: ج٢، ص٤٣١ رأس آية (المودة).

بعض التفاسير، ولكن: إضافة إلى صدورها ممن نزل القرآن في بيوتهم فإن التحقيق اللغوي يقودنا إلى أن (الولاية) من مصاديق (الود) فإن الود أشمل من (الحب) وقد فصلنا ذلك في محاضرة أخرى.

ولعل مما يدل على اتحاد (الود) و(المودة) إضافة إلى ما ذكرنا من اتحاد المصدر واسم المصدر أن الطريق المذكور في الآيتين لنيل (الود) و(المودة) واحدة فإن آية (المودة) الشريفة التي ذكر فيها في أجر الرسالة تبدأ بهذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ (لاحظوا إن نفس الصفتين ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ تتكرران وبنفس الترتيب)، ففي تلك الآية آية الود ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ وفي آية المودّة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ (بعد هاتين المقدمتين والتي أكد فيهما على مفهوم الإيمان والعمل الصالح قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مما يستنبط منه أن (الإيمان) و(العمل الصالح) من العلل المعدة لـ﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي هما سبب التوفيق لأداء أجر الرسالة وهو ﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ والتي تعني بلحاظ تفسير الرواية لـ(وداً) بـ(ولاية محمد وأهل بيته) ولاية محمد وأهل بيته عليهم السلام

(آية المودة) خطاب للعموم لكن بالتفاتٍ للخواص

وهنا نقطة التوقف: وهي دقيقة ورائعة فإن الله سبحانه وتعالى يجمع بين العامِّ والخاص في لفتة بديعة جداً فإن ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ هو خطاب

للعموم، وهو خطاب للخصوص، بنفس الوقت وبنفس اللفظ، فكأنه

أ. يخاطب الخاص بشكل خاص،

ب. ويخاطب العام بشكل عام،

ج. ويخاطب العام وهو يلتفت إلى الخاص،

د. وبالعكس.

توضيح ذلك بالمثال: أنت إذا كنتَ تريد الاستنجاد بالناس، المئات من الناس من أنصارك، في مقابل عدو أراد أن يقضي عليك، فأنت تستنجد بالناس: أيها الناس أنجدوني، أغيثوني، ولكن أنت تدري أن الذين سيغيثونك أربعة، خمسة فقط، فعينك عليهم؛ فالخطاب عام، وهو في الوقت نفسه خاص، عام كي لا يستطيعوا أن يتملصوا من التكليف ولأنهم مكلفون حقاً، وخاص لأنك تدري أن هؤلاء سوف يستجيبون لك، لا غير..

فعندما يقول: أيها الناس أغيثوني، أدركوني، هو يرى هؤلاء الثلاثة، أو الأربعة، فجمع بين (العامة) للتكليف، و(الخاصة) للأمل، التكليف للكل، والأمل بالبعض، وفي هذه الآية القرآنية الكريمة ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ التكليف عام أو خاص؟

إننا نلاحظ تجلياً لتلك اللفتة الدقيقة فإن التكليف عام، وهو خطاب لكل البشر على مدى التاريخ، ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، ولكن مَنْ الذي سيعمل بذلك؟ مَنْ الذي سيدفع الأجر؟ مَنْ الذي يعقد به الأمل؟ إنه هو الذي مُهَّد له في الآيتين السابقتين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ هؤلاء هم الذين سوف يدفعون الأجر لا غيرهم، فالخطاب هو عام، وهو خاص.. حقيقة جمال، وروعة إلى أبعد الحدود، التكليف عام، والخطاب خاص، في عين كونه عاماً هو خاص إذ أنه في الوقت نفسه مزيج تكليف، وأمل.

المودة فطرية واكتسابية

وهنالك نقطة أخرى هامة نشير لها إشارة وتفصيلها يطلب من مظانه وهي أن (المودة) على قسمين: قسم فطري وقسم اكتسابي.. كما أنها على درجات: درجة فطرية ودرجات أخرى اكتسابية وإن روايات (الطينة) وغيرها، كروايات (عالم الذر) و(عالم الظلال).. تشير إلى القسم الفطري منها، وإلى الدرجات الفطرية منها وقد ذكرنا بعض تفصيل ذلك في كتاب (فقه التعاون على البر والتقوى) وفي كتاب (شعاع من نور فاطمة)عليها السلام كما تحدث عنها العلامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه في بحار الأنوار وغيره من أعاظم الأعلام.

وأما القسم الاكتسابي والدرجات الاكتسابية فهو: الذي طالب به الرسولصلى الله عليه وآله وسلم كأجر للرسالة ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ نظراً لأن (الفطري) تحصيل للحاصل إلا بلحاظ العلة المبقية وهذا القسم الاكتسابي هو الذي أشارت إليه الآية الأخرى وتضمنت طريقين لتحصيله وهي ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ و﴿وُدًّا﴾ كما سبق أي (ولاية لمحمد وأهل بيتهعليهم السلام) فتكون ﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بنفس المعنى أيضاً لاتحاد معنى (الود) و(المودة) كما سبق.

فبناء على هذا إذا أردنا دفع أجر الرسالة، فلا يتوهمن متوهم أنه

بمجرد حب علي وسائر الأئمة الأطهار (عليهم الصلاة وأزكى السلام) بدون تجلي ذلك على جوارحه بأن يكون لهم موالياً وناصراً وعن حريمهم مدافعاً ومن أعدائهم متبرئاً قد أدرك الولاية، أو قد أدرك المحبة، أو قد أدرك المودة..كلا.

نعم إنه أدرك درجة من (المودة) و(المحبة) لكنه لم يدفع الأجر كاملاً، ولم يرض أهل البيت عليهم السلام كما طلبوا وكما أرادوا وكما أحبوا: أن يكون عبداً لله مطيعاً له في كل الحالات متجنباً كافة المعاصي والآثام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾

الشيخ عباس القمي يعمّر المساجد

ونختم حديثنا بقصة قصيرة عن المرحوم الشيخ عباس القمي (رضوان الله تعالى عليه) الذي كان من المصاديق الجلية لهذه الآية القرآنية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾، الشيخ عباس القمي ينقل في أحواله أنه كان فترة في طهران، وكان مشغولاً كما تعلمون بالتأليف، والبحث والتنقيب، في روايات أهل البيت عليهم السلام وآثارهم وسيرتهم وقد بارك الله في عطائه حيث كان من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لكنه إضافة إلى ذلك فكّر مع نفسه ذات مرة؛ بأن ذلك لا يكفي، وكانت توجد مساجد كثيرة في طهران ـ في ذلك الزمن ـ كانت مُتداعية الأركان، ومهجورة..

فكر في أن يعمّر هذه المساجد، ولم يكن يمتلك مالاً لكنه كان يملك ماء الوجه، ففكر في طريقة مبتكرة، بسيطة وصعبة في الوقت

نفسه؛ وهي أن يرى أي مسجد مهجور ومتروك، فيذهب ويُصلي هناك جماعة..

وكما تعلمون فإن الشيخ عباس القمي كانت له منزلة كبيرة عند الناس وكان محبوباً، فلذا عندما كان يذهب ليصلي في إحدى تلك المساجد، كان يتوافد جمع من الناس للصلاة خلفه، والمسجد خالٍ من المصابيح، والبُسُط أو السجاجيد أو كان الموجود منها بالياً، ثم لعله كان متداعي الجدران ولو بدرجة ما فقام الشيخ عباس بتحريضهم على ترميم المسجد وعلى إعداده وتأثيثه بشكل مناسب فبدأ الناس يتبرعون لذلك.. وهكذا عمّر المسجد في فترة قصيرة.. ربما شهر، شهرين، ثلاثة.. الله أعلم، بعد ذلك وبعد إصلاح المسجد عين الشيخ عباس إمام جماعة لذلك المسجد، وانطلق إلى مسجد ثانٍ أيضاً، متداعي، ثم إلى مسجد ثالث ورابع وخامس وهكذا.. وهذا أمر في غاية الصعوبة.. إذ كما تعلمون فإن في ذلك الزمن لم تكن سيارات بل كان الوضع مصداق ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[1]، كما أن الأزقة كانت مظلمة في الليالي، وموحلة في الشتاء، وغير ذلك من المصاعب والمشكلات التي كانت في تلك الأزمنة.. فالشيخ قدس سره ولعله كان كبير السن حينذاك كان ينطلق إلى مساجد متعددة ومتباعدة، ليصلي فيها يومياً، وهكذا نجده قدس سره عمر المسجد الأول، وهكذا انطلق إلى المسجد الثاني بهذه الطريقة فعمّره، وانطلق إلى المسجد الثالث وعمّره، واستمر فترة من الزمن على ذلك ولعل عشرات من المساجد، عمّرها

---

(١) (النحل:٨)

الشيخ عباس القمي (رضوان الله تعالى عليه) بهذه الطريقة..

وختاماً فلنتذكر دوماً قوله تعالى ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ ولنتذكر وعلى مدار الساعة آيتنا الشريفة، آية المودة ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

وأن علينا أن نجند كل طاقاتنا لتسديد هذا الأجر العظيم للرسول الكريم ﷺ أجر المودة.. والتي تتجلى على (الجوارح) عبر العمل الصالح، وفي (الجوانح) عبر المزيد، ثم المزيد، من تقوى الله سبحانه وتعالى، ومن الورع والإيمان..

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم لكي نكون ممن يخلص المودّة لمحمدٍ وأهل بيته ﷺ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

[٧]

لمِنْ الولاية العظمى؟

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.[١]

---

(١) (المائدة: ٥٥-٥٦)

التاريخ على شفير زمزم

ينقل لنا التاريخ وتوثقه لنا الروايات أن عبد الله بن عباس كان جالساً على شفير زمزم،[1] وما أقدس، وأروع هذا المكان، وأنتم الآن ارجعوا بفكركم إلى ١٤٠٠ سنة تقريباً، أو أكثر للوراء وتصوروا أنفسكم في محاضرةٍ، وعظةٍ، وكلمةٍ يُلقيها ابن عباس المفسّر المعروف (بحبر الأمة الإسلامية) بقرب الكعبة المشرفة، فعبدُ الله كان جالساً على شفير أي على حافَّةِ بئر زمزم، ويقول: قال رسول الله كذا...وقال رسول الله كذا... قال رسول الله كذا... وإذا برجل مُعتمٍّ، ومُلثَّم؛ ربما لا تظهر منه إلا عيناه، اقتحم الجمع الحاضر، حتى جاء وجلس، فكان كلما يقول ابن عباس (قال رسول الله)، كان هذا الغريب الملثم المجهول، يقول: قال رسول الله كذا... أي أنه يؤكد كلام ابن عباس ويكرره، وكان يظهر من كلام هذا الإنسان الغريب المجهول محيّاه وحركاته وسكناته إنه بحر علم، وبحر أدب، وخلق، ومعرفة، وفضيلة، إذ حديثه كان يكشف عن شخصيته..

ابن عباس استغرب من هذا الإنسان المجهول الذي يكشف منطقه عن مخبره، فقال له ـ لأنه متلثم، واضح أنه لا يريد أن يكشف شخصيته ـ فقال له: سألتك بالله مَنْ أنتَ؟

ولعله لم يكن بدافع حب الاستطلاع فقط بل كان يريد أن يكشف عن شخصيته أمام الناس ليتعرفوا على شاهد آخر على صحة رواياته وتمامية أحاديثه.[2]

---

(١) راجع الرواية بعمدة ابن البطريق: ص١٢١ وغيره من أمهات المصادر الإسلامية..

(٢) ويحتمل أن يكون باتفاق مسبق بينهما، والغرض تأكيد أحاديث رسول الله ﷺ، التي أعرض

أماط الرجل اللثام، ثم قال: مَنْ عرفني فقد عرفني، ومَنْ لم يعرفني فأنا جُندبُ بنُ جُنادةَ، البدري، أبو ذر الغفاري ـ الشخصية الإسلامية المعروفة ـ وهذه المقدمة كانت تمهيداً لكي تكون الشهادة أقوى، والوَقْعُ أشد، والحُجَّةُ أتمّ.

ثم قال أبو ذر الغفاري: سمعت من رسول الله ﷺ بأذنيَّ هاتين وإلا صمّتا، ورأيته ﷺ وهو يتكلم بهذا الكلام بعينيَّ هاتين وإلا عميتا ـ الآن لندقق ونلاحظ ماذا يقول رسول الله بشهادة أبي ذر الغفاري، وبمحضر المفسر المعروف، عند شفير زمزم، عند الكعبة، البيت الحرام ـ قال أبو ذر: سمعته بأذنيَّ هاتين وإلا صمّتا، ورأيته بعينيَ هاتين وإلا عميتا، يقول: عليٌّ قائد البررة وهو يشير إلى الآية الشريفة ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[1]

عليٌّ قائد البررة ـ والبررة قمَّة البشرية فعلياً، وقمَّة القِمَّة ـ عليٌّ قائد البررة، وقاتل الكفرة، منصورٌ مَنْ نَصَرَهُ، فالناصر له منصور لأن الله ناصر هذا الشخص، مخذول من خذله.

سائل قليل الصبر، وإمام عظيم الكرم

بعد ذلك نقل أبو ذر الغفاري هذه القضية، قال: دخلتُ المسجد ـ مسجد رسول الله ﷺ ـ وإذا بنا نشهد هذا المنظر: رأينا سائلاً كان قد دخل المسجد من قبل، والرسول ﷺ يُصلي، (الآن انتقلوا من زمزم

عنها قسم من الناس وأنكروها.

(١) (الإنسان:٥)

إلى المسجد النبوي الشريف، وتصوروا الرسولﷺ يُصلي، وأميرُ المؤمنينعليه السلام، وجمع من المؤمنين خلفه يُصلون، منظر يُقرِّب الإنسان أكثر فأكثر إلى الله سبحانه وتعالى) نعم دخل سائل فاستعطى الناس في الصلاة (أنت أيها السائل انتظر قليلاً، هذا تعليقي، لكن يبدو أن هذا السائل كان قليل الصبر ربما لذلك غضب) فرغم أنه شاهد الناس يصلون ورأى الرسول في حالة الصلاة وكذلك كان علي يصلي، إلا أنه أثار غضبه مما يبدو منه إنه كان قليل الصبر من سياق الرواية، ويمكن أنه كان غضوباً وعصبياً ـ فرفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم أشهد أنني سألت في مسجد رسول الله، فلم يعطني أحدٌ شيئاً كان من المفروض أن يتحلى السائل بشيء من الصبر، من غير أن يتوقع أن يطعى طلبه رأساً، خاصة أن صلاة الرسولﷺ كانت سريعة كما تعلمون، فقد كان يصلي بصلاة أضعفهم، نعم.. رفع هذا السائل رأسه إلى السماء، وقال: اللهم أشهد أنني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً، فهنا أشار إليه عليعليه السلام بخنصره، وفيها خاتم؛ أن خُذها، فأخذه ذاك الإنسان الفقير المستعطي.

وتعليقي بين قوسين إضافة إلى ما ذكرناه من أن الفقير مبدئياً، كان المفروض واللازم عليه أن ينتظر هو، إن الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام لم يعطه الخاتم من قبل لأنها مسألة طبيعية أن ينتظر السائل انتهاء الصلاة ولا يقطع عليهم انقطاعهم لله سبحانه، انتظر قليلاً بعد ذلك نُعطيك فلماذا تقاطع الناس في انقطاعهم إلى الله؟

ولكن الإمام عندما رأى ماء وجه مسجد رسول اللهﷺ في

معرض الخطر، لأن هذا الرجل يشتكي إلى الله (اللهم اشهد أنني في مسجد رسول الله أطلب ولا أجد أحداً يعطيني شيئاً) ولعل الخبر كما هو كذلك كثيراً ينقل للآخرين ويسجل تاريخياً بدون قرائنه وتفاصيله أي ينقل مجرد أنه دخل المسجد فاستعطى منهم فلم يعطه أحد شيئاً فاشتكى الفقير إلى الله، بدون ذكر أن الرسول وأصحابه كانوا في الصلاة.. وتعلمون أن أعداء الرسول والمغرضين ومحرِّفي الحقائق والتاريخ كانوا ولا يزالون كثرة، لذا هنا الإمام عليٌ عليه السلام أشار بيده لأنه حدث عنوان ثانوي جديد فأمير المؤمنين أشار بيده هكذا للسائل.. أي: أن خذ الخاتم..

فالسائل أخذ الخاتم، هذا المُستعطي الفقير أخذ الخاتم.

لاحظوا الرواية مَن هو ناقلها؟ وعند من؟ وأين؟ وكيف؟.. إنه أبو ذر الغفاري في محضر ابن عباس، قرب البيت الحرام، وهم جالسون على حافة زمزم، والرسول الأعظم سائل لكن ما الذي سأله؟ نعم.. الصلاة انتهت، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أحكم الحُكماء، وأشد الناس علماً، ومعرفةً، وذكاءً، وفطنة وكمالاً، فأنتهز الفرصة السانحة، فالتفت إلى الله سبحانه وتعالى ـ (لاحظوا أن السائل ذكي بمقدار يستعطي الشيء المادي من عرض الحياة الدنيا، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً سائل يسأل الله، لكن يسأله سؤالاً يتناسب مع عظمته وعقله، وحكمته، وهو أعقل العقلاء ـ فالنبي التفت إلى السماء، وقال: اللهم إن موسى بن عمران سألك، ـ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينقل عن موسى بن عمران هذا الكلام ويستعطي الله سبحانه وتعالى في أمره ـ فقال: اللهم اشرح لي صدري، ويسِّر لي أمري، واحلل عقدةً من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به

أزري وأشركه في أمري.. هذه طلبات موسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الأنبياء، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ينقل كلام موسى، ثم يلتفت إلى الله ويُقدم هذه المقدمات، يقول: يا رب وأنا محمد ـ ذاك موسى قد طلب على قدر عظمته، وطلب الرسول على قدر عظمته، الرسول وهو أعظم من موسى، وهو أعظم الخلائق، والكائنات، والممكنات على الإطلاق ـ يسأل ويقول: اللهم وأنا محمد نبيك، وصفيك، رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي، علياً أشدد به ظهري..[1]

لاحظوا سلسلة الأحداث هذه: ذاك السائل يأتي المسجد يستعطي على قَدرِ حاله، يطلب عَطيةً، وموسى عليه السلام على قدر عظمته وبمستوى عقله وإدراكه الرفيعين، وهو من أعظم خلائق الله، ولكن طلب الرسول سوف يكون أعظم طلب على الإطلاق، لذا طلب من الله سبحانه وتعالى: أن يجعل علياً ظهيراً له، وظهراً له، وأن يُشركه في أمره، ويُيسِّر له أمره فنزلت عندئذ هذه الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾..

هذه الرواية هي شأن نزول هذه الآية القرآنية الكريمة، وهذه الرواية مُجمَعٌ عليها بين أعلام الأمامية، وعليها الشُهرة القطعية للمخالفين وأهل العامة، فهذه الرواية منقولة في العشرات من مصادرهم، وذكرها الكثير منهم يقول السيد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله المرجع المعروف

---

(١) وهذا الطلب جاء في آيات بينات من سورة طه ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه: ٢٥ ـ ٣٦)

في كتابه (مواهب الرحمن في تفسير القرآن)[1]:

(لقد أجمعت الإمامية على هذه الآية ونزولها في هذا الشأن، وعليه أكثر الجمهور من العامَّة، بل يمكن دعوى تواتر الأخبار في ذلك، فقد نقلها أئمة الحديث، والحفّاظ في كتب الأخبار، واشترك في نقلها جمع، وجمهرةٌ من الصحابة كابن عباس، وأبو ذر، وأنس بن مالك، وعمّار، وجابر، وسلمة، وأبي رافع.. إلى آخره..

ونقلها أئمة التفسير بالمأثور كأحمد، والنسائي، والطبري، والطبراني، وأوردها المتكلمون في الكتب البيانية، وتسلموها بالقبول، وكذلك نقلها، وتلقى ذلك بالقبول جميع الصحابة في عصر النزول، والتابعون، وأئمة الأدب، وفحول المفسّرين، كالزمخشري في الكشاف، وأبي حيان في تفسيره، وغيرهم..) إلى آخره والحديث طويل..

احتمالات ثلاثة في المراد بـ (والذين آمنوا)

هذا كان شأن نزول هذه الآية القرآنية الكريمة، هنا نتوقف عند بعض المباحث الهامَّة، والدقيقة، لهذه الآية المباركة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾..

فما هو المقصود بـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: هو ما أشرنا إليه في شأن النزول، إن هذه الآية

---

(١) تفسير مواهب الرحمن/ السبزواري/ ج١١/ ذيل تفسير سورة المائدة الآية ٥٥.

نزلت في الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ بإجماع الإمامية، وشبه إجماع من السُّنة إلا الشاذ النادر المتعصب، المغالي في تعصبه منهم[١].. على ذلك.. فهذا الاحتمال الذي انعقد عليه الإجماع هو:

أن هذه الآية نزلت في الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ..

الاحتمال الثاني: وهذا ما ذكره هؤلاء الشُّذاذ من المتعصبين، بأنها نزلت في عامَّةِ المؤمنين، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعني كل المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها..﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، هذا الاحتمال الثاني..

الاحتمال الثالث: و(هو الأصح) هو أن هذه الآية نزلت في/ ١٢ / شخصاً جعلهم الله تعالى أولياء على خلقه وخلائقه ولم تنزل في شخصٍ واحدٍ فقط، بل نزلت في الإمام علي بن أبي طالب، والإمام الحسن المجتبى، والإمام الحسين الشهيد بكربلاء، ثم زين العابدين علي، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرِّضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، والحجة المنتظر المهدي (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وعَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)..وهؤلاء هم أئمة المسلمين المعروفون، وهم عِدل القرآن والثقل الثاني بعد الكتاب، كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ **(إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتما بهما لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)**.[٢]

---

(١) ولا يخفى أن خروج الشاذ من المتعصبين لا يضعف الإجماع ولا يوهنه بل يؤكده فإن (الحق مع جماعة المسلمين) وأن (الشاذة للذئب) و(يد الله مع الجماعة) و(دع الشاذ النادر فإن المجمع عليه لا ريب فيه).

(٢) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص٣٤، ح٩.

هذا الاحتمال الثالث؛ هو الأصحُّ، وهو لا ينفي الأول، ولا تضاد ولا تدافع بينهما إذ أنه يتضمن الأول ويؤكده ويزيد عليه، ونحن سوف نتطرق إلى هذا الاحتمال إنشاء الله ونقيم البرهان عليه من نفس الآية الشريفة، وسوف نستدلُّ من نفس الآية الشريفة على أنه ليس المقصود بها الإمام علي بن أبي طالبعَلَيْهِالسَّلَامُ فحسب، وإنما المقصود كل الأئمة من بعد رسول الله، من قريش، أي الأئمة الاثنا عشر بدءً من الإمام علي وصولاً إلى الإمام المهدي (عليهم الصلاة وأزكى السلام)، نستدل بالآية الشريفة، ونستدل أيضاً بروايات عديدة على هذا المطلب، إنشاء الله..

أدلة ستة على عدم عموم (والذين آمنوا) لكل المؤمنين

أما الاحتمال الثاني فنبدأ بنسفه نسفاً، وإن كان بيِّنَ البطلان في ذاته، ولكن مع ذلك نستدلُّ بالآية على إبطاله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، قالوا: بأن الذين آمنوا هم عامَّةُ المؤمنين.. والإجابة على ذلك واضحة من وجوه:

الوجه الأول: وهو المشهور بين المفسرين، والذي ذكروه بشأن النزول.

ولكن فكرتُ، فخطر بالبال إضافة خمسة أدّلة أخرى على الوجه الأول فتصبح ستة أوجه، وربما هي أكثر، إذا تأمل الواحد منا أكثر، وهي:

الوجه الثاني: المعروف هو كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ وهي أداة الحصر ﴿وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ﴾، إذن الله سبحانه يحصر الولاية في ناس معدودين، وإلا

فلا معنى ولا فائدة من الحصر بل سيكون لغواً وباطلاً فإنه إذا كان يُريد أن يقول: أن الولاية لكلكم، فكيف يحصر؟

مثلاً إذا كان يوجد في المسجد عشرة أشخاص، وكان زيد فقط هو العالم فيصح أن تقول: إنما العالم زيد منهم، أما إذا كانوا كلهم علماء وقلت: إنما العالم زيد فهذا غلط، فـ﴿إِنَّمَا﴾ تكون ههنا لغواً.. إذ ليس لها معنى.. لأن ﴿إِنَّمَا﴾ تفيدُ السلبَ، والإيجابَ أي تحصر الحكم في شخص، وتنفيه عن أشخاص آخرين..

فقولك؛ ﴿إِنَّمَا﴾ زيد عالم، يعني أن غيره ليس بعالم، و﴿إِنَّمَا﴾ جاءني زيد، أي أن عمراً ما جاءني، وإلا إذا جاءك زيد، وأيضاً عمر، فتقول (إنما جاءني زيد) فهو خطأ، وتناقض، وتهافت بالقول..

فأداة الحصر بَيِّنةُ الدلالة على أن هؤلاء قِلة، هؤلاء قادة، والبقية هم أتباع ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، فأداة الحصر﴿إِنَّمَا﴾ جداً واضحة الدلالة، على أن هؤلاء الأشخاص، أو هذه المجموعة التي أثبتت لها الولاية، هي مجموعةٌ مُتميزةٌ، هي مجموعة خاصَّة، نعبّر عنها بمجموعة القادة، أو مجموعة الأئمة، هذه هي القرينة والدليل الثاني بعد الوجه الأول المعروف..

الوجه الثالث: (المضاف)، إذ إننا نعرف بالبداهة أن المضاف غير المضاف إليه (إنما وليكم) (ولّي) أضيف إلى (كم)، فإذن (ولي) شيء و(كم) شيء آخر، مثلما نقول: خالقكم الله، فالخالق شيء، والمخلوق شيء آخر، مالكك زيد، فالمالك شيء، والمملوك شيء آخر..

فالمضاف غير المضاف إليه: (عبدك)، (صديقك)، الصديق غير

الضمير المضاف إليه أي (الكاف)، أي المضاف غير المضاف إليه، (صديقك زيد) فالصديق هو شيء والكاف الذي هو المضاف إليه شيء آخر.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ (الولي) هو المضاف، والضمير أي (كم) هو المضاف إليه ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فكيف يعقل أن يكون المضاف هو عين المضاف إليه؟! ويكون الولي هو جميع المؤمنين والمولى عليه هو جميع المؤمنين أيضاً؟!

هذه هي القرينة الثالثة، وهي معادلة المضاف والمضاف إليه..

الوجه الرابع: (مفهوم الولي والمولىّ عليه)؛ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ ماذا يُستفاد من هذه الآية؟

يوجد (ولّي)، ويوجد (مُوَلّى عليه)،و (الولّي) غير (المولّى عليه) بالبديهة، فالمفهومان متغايران ـ بقطع النظر عن الإضافة ـ مفهوم (الولّي)، مثل مفهوم (المالك)، ومفهوم (المملوك)، فالمالك غير المملوك، الرازق غير المرزوق، المعلم غير المتعلم..

عندما تقول (مُعلم) ماذا يعني؟ يوجد مُتعلم، ومُعلم،والمتعلم غير المعلم، فمفهوم (المولى)، هو غير مفهوم (المولّى عليه) كما أن مفهوم (السيد) غير مفهوم (العبد)، وفي قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ يوجد (ولّي)، ويوجد (مُولّى عليه)،و هذه هي القرينة الرابعة والوجه الرابع.

الوجه الخامس: (الحصر بالصفات)؛ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وعلى كلامكم كان يجب أن يقول: (والمؤمنون) فقط، لكننا نلاحظ أن الله

تعالى يجعل الدائرة تضيق باستمرار ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لم ينته الأمر لوجود قيد ثاني ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾، ليس كل مؤمن يُقيم الصلاة، إذ (إقامة الصلاة) غير (أداء الصلاة)، (إقامة الصلاة) معناها أسمى من (الإتيان بالصلاة)، كما هو واضح وموضَّح في محله، وربما أشرنا إلى ذلك سابقاً، وفي المستقبل نتكلم حول الإقامة ما معناها (أشهد أنك قد أقمت الصلاة)[1] وكثير من الناس يُصلون ولكن لا يقيمون الصلاة.. فإقامة الصلاة شيء آخر غير أدائها..

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ضُيّقت دائرتها بـ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾، ثم ضُيّقت الدائرة أكثر فأكثر بـ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾، ثم ضُيّقت الدائرة ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.

إذن ليس من المعقول أن يكون المقصود كل المؤمنين، أو كل المسلمين بأنه هو ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ أي ولي المؤمنين، أي كلكم ولي لكلكم؟! ثم هذا المعنى جداً بعيد عن معنى الذوق السليم، وعن الفطرة السليمة، بأن تقول: (إنما وليكم كلكم) فهذا لا معنى له.. وهذه القرينة الخامسة أيضاً..

الوجه السادس: (نسبة الولي إلى الله) سبحانه وتعالى؛ لاحظوا: الله سبحانه لماذا بدأ بإثبات الولاية لذاته ثم لرسوله فقال ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؟

إنه تعالى يريد أن يقول: هذه الولاية شيء خاص، متميز واستثنائي، أعطيها للرسول، والذين آمنوا، وإلا لم يكن بحاجة لكي يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ إذ هذا بديهي وكل مسلم يقبل ذلك..

---

(١) وردت في معظم الزيارات الشريف لأئمة المسلمين(عليهم السلام)..

فكان اللازم أن يبتدأ بما بعد ذلك فيقول: إنما وليكم رسوله والذين آمنوا، لكنه قال جل اسمه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أين أنه بدأ بنفسه القدسية لماذا؟

لأنه تعالى يُريد أن يقول: هناك شيء مُتميِّز، وهذا المتميز والمنسوب لي أعطيه للرسول والذين آمنوا الذين... وهو (ولايتي)، فقد أعطيت امتداد ولايتي للرسول والذين آمنوا الذين... أي بالطولية بالمعنى الحقيقي.. هذا الشيء الثابت لي أعطيته أيضاً لهذه السلسلة النورية[1]..

إذن كلمة (الولي) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ عندما أسندت إلى الله فأفادت هنا تميُّزاً خاصّاً لمعنى (الولي) ولمعنى (الولاية)، هذا التميُّز أعطي امتداده للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأعطي للذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ومن غير أخذ هذا الوجه بالاعتبار، يكون الكلام لا وجه له ولا معنى؛ إن الله سبحانه وتعالى يقول؛ أنا وليكم، وبعد ذلك كلكم مثلي في هذا الشأن.. وكلكم أولياء لكلكم!!

إذن القول الثاني واضح البطلان.

وها نحن وصلنا الآن إلى القول الثالث وهو الصحيح لأن في هذه الآية شواهد من داخلها، إضافة إلى الروايات على أن المقصود (هم الأئمة من بعدي إثنى عشر، كلهم من قريش)[2] كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) وبديهي أن الله عندما يعطي شيئاً فإنه لا يفقده فلو أعطاك العلم فهل سيفقد ما أعطاكه؟ ولو أعطاك المال فهل سيفقد هذا المال؟ ثم إن المراد ليس إعطاء ذات الولاية التي له تعالى للرسول وللأئمة بل إعطاء شعاع منها أي امتدادها أي الولاية الطولية وذلك كالوكيل الذي يعطيه الموكل مثلاً صلاحية إجراء العقود فإنها امتداد ولايته لا أنه فقدها وقد أعطاها بعينها.

(٢) راجع البحار للشيخ المجلسي: ج٣٦، ص٢٣١، ففيه روايات عديدة ومفيدة في الباب..

في روايات نقلها الفريقان عامة وشيعة..

لماذا أفردت صيغة (وليكم)؟

وقبل ذلك نتساءل: لماذا أفرد الله سبحانه وتعالى صيغة ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ وجعلها مفردة؟ لماذا لم يقل أوليائكم؟ هناك حِكَمٌ عديدة نذكر بعض التي توصلنا إليه.. وإلا فهي عديدة وقد تكون ملايين من الحكم موجودة في كل كلمة كلمة من كلمات الله عَزَّ وَجَلَّ ، لأن كلام الله بحرٌ عميقٌ، والإنسان حسب ما أوتي من علم يكتشف أكثر، فأكثر، فأكثر.. ولا تنفد خزائنه ولا عجائبه (لا تفنى غرائبه ولا تنقضي عجائبه)[1] والأمير (عليه الصلاة وأزكى السلام) شرح نقطة باء ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لابن عباس ليلةً للصباح ولم ينتهِ[2]، وربما لو تكلم لسنين متعددة ما كان ينتهي.. لأن القرآن بحر لا ينفد ونقول: بعقلنا القاصر القاصر توصلنا إلى بعض الحِكم، ولعله توجد كثرة كاثرة من الحِكَم في إفراد وليّكم، مما لم تصل إليه عقولنا.

أولاً: لبيان أن الولاية طولية:

الحكمة الأولى: وهي بحاجة إلى إعمال الدقة فإن هذا البحث دقيق ومفيد إن شاء الله تعالى لعل من الحكم في إفراد ﴿وَلِيُّكُمُ﴾: الإشارة إلى أن هذه هي ولاية واحدة فقط، ولكنها طولية، وليست ولايات عرضية، وأفقية، أي الخط ليس أفقياً بل هو امتداد أي أنه عمودي.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٥٢..

(٢) الإمام علي عليه السلام في القرآن؛ للإمام السيد صادق الشيرازي (حفظه الله) ج١، ص١٣، عن ينابيع المودة للقندوزي الشافعي..

ويُستفاد منها أيضاً كما سيظهر امتداد سلسلة الأئمة إلى يوم القيامة، وأن الأرض لا تخلو من حُجة، وبيانُ ذلك يتضح عند ملاحظة أن الأشياء، تعرف بأشباهها كما تُعرف بأضدادها..

ولاية المراجع: (عرضية)

لاحظوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: (**اللهم ارحم خلفائي**)، لماذا لم يقل خليفتي، لأنهم أي خلفاؤه وهم العلماء ومراجع التقليد بعضهم في عَرَضِ البعض الآخر، (اللهم أرحم خلفائي.. قيل: مَنْ خلفائك يا رسول الله؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي).[1]

إذن عندما استخدم الجمع، (**اللهم أرحم خلفائي**)، دلَّ ذلك على أن خلفائه في عرض البعض الآخر، ففي كل زمن هناك جمهرة من الذين جمعوا الصفات من مراجع التقليد الذين هم خلفاء رسول الله وهذه الرواية من الروايات التي تدّل بوضوح، على أن الولاية لكل الفقهاء الجامعين للشرائط، وليس لفقيه واحد: اللهم أرحم خلفائي، وذلك كما لو قال شخص: (هؤلاء وكلائي) فإن الوكلاء في عرض واحد، وليس أحدهم في طول الآخر أي ليس أحدهم تابعاً للآخر أو محكوماً له، مادامت الكلمة التي أعطتهم الوكالة كلمة عامة..

لاحظوا أنفسكم، فمثلاً لو وكلتم خمسة وكلاء وليس وكيلاً واحداً، بعبارة عامة فهل لأحدهم أن يتسلط على الآخرين ويدعي أنه الولي عليهم؟

(١) راجع وسائل الشيعة للحر العاملي :ج٢٧ص٩١..

وإذا الإنسان يلاحظ كل أدلة ولاية الفقيه المذكورة، ومنها: الفقهاء حصون الإسلام..[١] يجد اللسان نفس اللسان، (الفقهاء) وليس فقيه واحد، (حصون) وليس حصن واحد، كل فقيه جامع للشرائط هو حصن من حصون الإسلام..

وعلى أيِّ تقدير فالحديث في محله طويل[٢]؛

اللهم أرحم خلفائي ماذا تُفيد (خلفائي)؟

إنها تفيد العرضية؛ ولكن ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ وليس (أوليائكم)، تفيد أنه ليس بعض منهم بعرض البعض الآخر، فالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ليس في عَرَض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل في طول رسول الله، أي ولايته في طوله ومستمدة منه، والإمام الحسن، في طول الإمام علي بن أبي طالب (عليهم السلام أجمعين)، وهكذا فالإمام القائم منهم هو واحد (عليهم الصلاة وأزكى السلام)، والثاني يكون في ظله، وبعد ذلك هو الذي يتصدى للأمر..

وعليه فتوجد ولاية واحدة لله سبحانه وتعالى، هذه الولاية الواحدة طولياً لله بالأصالة، ولهؤلاء بالتبع واحداً أثر آخر وكابراً بعد كابر.. فالآية تصرح ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ وليس أوليائكم، وإلا كان الرسول شريكاً لله والعياذ بالله وليس لله شريك، ليس في عرض الله شيء بل في طول الله، وكذلك كل واحد منهم، وحتى الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

إذن أفرد ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ بالذكر لأن المُراد إفادة؛ أن هذه ولاية واحدة،

(١) الكافي للشيخ الكليني :ج١ص٤٦..

(٢) وقد فصلناه في (شورى الفقهاء دراسة فقهية أصولية)، فليراجع.

ولكنها طولية، مثل الموكِّل، والوكيل.. فالوكيل شُعبة، وشعاع من الموكِّل، من ولايته، من سلطته، من سلطنته.. هذا هو الوجه الأول أو الحكمة الأولى لاستخدام كلمة (ولّي) كمفرد..

ثانياً: لكي تفسرها سائر الآيات

الحكمة الثانية: والحديث طويل، وسنوجزه بقدر ما تسمح به هذه العجالة إن الله تعالى استخدم مفردة (ولي) فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ ولم يقل (إنما أولياؤكم) لأن نفس مفردة (ولي) بما هي مفردة، أي بصيغة المفرد مُستخدمة في القرآن الكريم في أماكن ثانية، بمعنى عميق ذي دلالة فكأنّ الله تعالى يوضح لنا بهذا التطابق الدقيق في الاستخدام: تفسير كلمة (ولي) في هذه الآية الشريفة، فيريد أن يقول: أن معنى (الولي) هو نفس المعنى المراد به في آيات أخرى ذكرت مفردة (الولي) وهذا المعنى ليس هو (الناصر)، ولا (المُحب)، ولا نظائرها التي اختلقوها في إدِّعائهم تفسير هذه الآية، بل معنى أوسع وأشمل بكثير؛ وذلك لأن الله يُرجِعُكَ إلى القرآن الكريم؛ و(القرآن يفسر بعضه بعضاً).[1]

كلمة (الولي) جاءت في القرآن الكريم، في أماكن أخرى عديدة فما هو معناها؟ هو نفس المعنى الذي يراد ههنا.

الله سبحانه وتعالى، يقول: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، ماذا يعني الولي هنا؟

يعني هو المالك الأولى بالتدبير، الأولى بالتصرف، هو الولي بما

---

(١) تفسير الصاف،للفيض الكاشاني :ج١ ص٧٥..

(٢) (الشورى:٩)

للكلمة من معنى، وبكل معاني الولي، فالله أولى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؟ الذين هم الأصنام، يقول تعالى: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، وما هو معناه هناك؟

إنهم لا يكابرون هنالك ولا يحاولون صرف ﴿الْوَلِيُّ﴾ إلى معاني ثانوية.. لماذا؟ لأنه لا يرتبط بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، حتى يُحاولوا، ويُطاولوا، ليدفعوا حقه؛ ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، وأسألُ المفسر السني، والشيعي، والملحدّ، والناصبي الملحدّ، إذا كان يريد أن يُفسِّر لُغويّاً وعرفياً، أسأله، ما هو معنى، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾؟

﴿الْوَلِيُّ﴾: ماذا يعني؟ فإنه سيقول: هو الأولى بالتصرف والأولى بالتدبير، مثل ما تقول (ولي الأمر)، مثل ما تقول (ولي الطفل)، وما أشبه ذلك.

بل نقول: يمكن الاستدلال بـ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أيضاً، إذ ما الذي كانوا يعتقدونه في الآلهة: من أصنام وغيرها؟ هل هو صرف المحب؟ أو الناصر؟ كلا.. بل كانوا يعتقدون أنها الأولى بالتصرف والتدبير، وأنها المهيمنة عليهم، وأن بيدها خيرهم وشرهم، وأنها وسائط للرزق أو هي الرازقة لهم.

وكذلك نجد كلمة (ولي) في آية أخرى، في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾[1]

فللنصير معنى آخر إذن، ولم يقصد بـ(ولي): النصير، وهكذا فإذا

(١) (النساء:٤٥)

تتبَّع المرء الآيات القرآنية الكريمة يجد أن كلمة (الولّي) قد شرحها الله سبحانه، وههنا استخدم الرب تعالى كلمة (ولي) وأسندها إلى الله، فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾، فعندما يقول (إنما وليكم الله...) فكأنه يقول: لا تتصور معنى ثانياً للولي في ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ بل إن نفس معنى (ولي) الذي يُسند إلى الله في ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ أو ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جاء لـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، وهذا المعنى أي هذه النقطة الثانية استفدناها من السيد السبزواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير (مواهب الرحمن في تفسير القرآن)[1]، وهو تفسير جيد حاولوا أن تقتنوه، ويذكر أيضاً آيات عديدة ويدفع بعض الشبهات التي يمكن أن ترد على ما ذُكر في هذا الوجه الثاني..

إذن في آية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ الله تعالى أفرد كلمة وليكم بالذكر لماذا؟ لكي تفيد أن المعنى المقصود لكلمة (الولي) هو نفس المعنى الذي قُصد به (الولي) في الآيات القرآنية الأخرى التي أسندت فيها (الولي) إلى الله سبحانه وتعالى، وتوجد هنالك نقاط أخرى حول كلمة (الولي) ربما في محاضرة قادمة نتحدث عنها.

لماذا عبر الله بـ (الذين آمنوا) ولم يقل (والذي آمن)؟

لنتجاوز إلى المقطع الآخر.. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

ونسأل؛ أما كان من الممكن أو من الأولى أن يقول الله سبحانه وتعالى: (إنما وليكم الله، ورسوله، والذي آمن، الذي أعطى الزكاة وهو

---

(١) تفسير مواهب الرحمنالسبزواريج١١ص٣٩٩ذيل تفسير سورة المائدة الآية٥٥

راكع)؟

إذ قد ذكرنا أنه بالإجماع عند الشيعة، وشبه الإجماع عند السنة: أن شأن النزول هي حادثة مُعينة ذكرناها آنفاً وهي تصدّق أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام، بالخاتم، في مسجد رسول الله، وهو راكع فالمفروض أن يقال ـ كما قد يتساءل البعض ويتوهم ـ هكذا: (إنما وليكم الله ورسوله والذي آمن الذي آقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع)..

وهنا لاحظ فكلام الله الخالق، غير كلام المخلوق.. المخلوق لا يفهم، وإذا كان يفهم فإن فهمه محدود، والله غير محدود.

وهنا استفادتان تُستفادان من الآية الشريفة وكلتاهما لطيفتان الأولى من كلمة (يقيمون... يؤتون) أي من صيغة المضارع في هاتين الكلمتين والثانية من كلمة (الذين آمنوا) أي من صيغة الجمع في هذه الكلمة:

١ . هل كانت حادثة يتيمة؟

الاستفادة الأولى: بخصوص هذه الحادثة، ونجيب عن شُبهة وتُوهم كونها حادثة واحدة يتيمة إذ يستظهر من نفس الآية الشريفة ـ وتدل عليه الروايات المتعددة أيضاً ـ: أن هذه الحادثة، لم تكن حادثة واحدة يتيمة، ذلك لأن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لم ينفق ولم يزكّ مرة واحدة فقط، وهو راكع، بل كان ذلك في مواطن عديدة، والآية الشريفة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مراراً عديدة، كلما تكررت الزكاة من أمير المؤمنين في الصلاة تكريساً لمقام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام..

ذلك أن بعض الآيات كانت تنزل على رسول الله ﷺ مُكرراً، ربما عشر مرات، أو أكثر أو أقل، وهذه القضية منها..

ولنستخرج تعدد الحادثة، وتعدد الزكاة في الركوع من علي ابن أبي طالب عليه السلام، من نفس الآية الشريفة وذلك عن البحث عن سر استخدام صيغة المضارع في قوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وفي قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي صيغة دالة على التجدد والاستمرار؟

لاحظوا أننا إذا رأينا أحدهم عمل شيئاً، لا نقول عنه: يفعل كذا، بل نقول فعل كذا.. فإذا ضرب رجل زيداً، نقول: إنما الظالم هو الذي ضرب زيداً، مثلاً أو ما أشبه ذلك، ولا نستخدم صيغة المضارع، لمرة واحدة فقط.. والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ (ماذا) يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، هذه القضية ما كانت مرة، مرتين، وإنما كانت مرات كثيرة، وسنذكر بعد قليل رواية ثانية، من جملة الروايات، فصيغة المضارع الواردة في الآية الشريفة يستظهر منها إن هذه الحادثة وقعت أكثر من مرة، هذه هي الاستفادة الأولى.

٢. آية (الذين آمنوا..) يقصد بها كل الأئمة عليهم السلام

الاستفادة الثانية: الوجه في استخدام الجمع في ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قد يقال: إن من الوجوه أن الله تعالى يريد أن يقول: ليس فقط الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ بل (الأئمة الاثني عشر) على مرّ الزمن هم أولياؤكم، وإلا لكان الأنسب أن يقول (والذي آمن)؟ فلماذا قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ألا نفرّق بين المفرد والجمع؟

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ لاحظوا هذه القرينة العامة، ﴿وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾، ومع قطع النظر عن الروايات، وقبل أن أطالع الروايات كنتُ أفكر فخطر هذا المعنى على بالي؛ ثم اطمأننت عندما وجدت الروايات دالة على ذلك، وضعوا في بالكم أن الله كلامه لكل البشر على مرّ التاريخ فلماذا يقول الله عندما يتحدث عن (الولي): ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ولم يقل (والذي آمن)؟

لأن الله يريد إفهامنا أن ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ هم مجموعة متسلسلة على مر التاريخ وليس واحداً ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾.. وإذا كان الخطاب لكل الأجيال على مر التاريخ، فمن الطبيعي أن يكون لكل جيل أو جيلين أو أجيال (ولي) حي قائم بتدبير شؤونهم والتصرف فيها علموا أم لم يعلموا.

هذا ما خطر ببالي وبعد ذلك - والحمد لله - رأيتُ أنه توجد رواية دالة عليه، بل روايات، إذ كنتُ مُتردِّداً أن أقول ذلك، ولو بعنوان الاحتمال ولكن رأيت روايات، وتوجد في الكافي وغيره، تدل على ذلك، فـ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هم كل الأئمة، وهم بأجمعهم تأسوا بجدهم أمير المؤمنين عليه السلام وقد انطبقت عليهم تلك الصفات أي أن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كان (يؤتي الزكاة وهو راكع)، والآية تنطبق عليه كمفهوم كلي هو لها ذلك المصداق الخارجي، ثم الإمام الحسين عليه السلام كذلك وصولاً إلى المهدي المنتظر عجل الله فرجه، كلهم كانوا كذلك؛ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فكلهم هكذا صنعوا، وكلهم هكذا يصنعون، وليس مرة، أو مرتين، وإنما مراراً

عديدة، وهنالك تفصيل أكثر سنؤجله إلى محاضرة قادمة، بإذن الله تعالى، فهذه الاستفادة الثانية..

تكرر (التصدق) وتعدد نزول الآية:

ولنعد الآن إلى الاستفادة الأولى؛ فنؤكد أن قضية التصدق في الصلاة تكررت مراراً عديدة من الإمام أمير المؤمنين (عليه الصلاة وأزكى السلام) وأن آية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ نزلت عدة مرات عند كل حادثة من تلك الحوادث، وعندما تتضح لنا هذه الحقيقة وهذا الإطار العام، يتضح لنا أن لا تعارض بين الروايات المختلفة، في شأن النزول، ذلك أن الإجماع انعقد على أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو المقصود بالآية وهو شأن نزولها، ولكن الروايات في التفاصيل مختلفة..

فما الذي نستنبطه من ذلك؟

إننا نستنبط بعد قطعية نزول الآية في شأن تصدق الأمير عليه السلام وهو في الصلاة في المسجد وكونه إجماعياً وبعد لحاظ اختلاف الروايات في التفاصيل أن الحادثة لم تكن يتيمة، بل تكررت مراراً عديدة، لاحظوا مثلاً أن بعض الروايات تقول: أن علياً تصدق بالخاتم وهو في خنصره..

رواية ثانية: حلة النجاشي

وهناك روايات أخرى تقول: كانت عليه (صلوات الله عليه) حلّة قيمتها ألف دينار أهداها النجاشي لرسول الله فأهداها الرسول لأمير المؤمنين عليه السلام، ومن الواضح أن الأمير عليه السلام كان متقشفاً وزاهداً، لكن

هذه الحلّة كانت إهداءً من الرسول الأعظم له فاحتراماً، وكرامةً لرسول الله ﷺ، ـ إذ ليس من المحبذ للمرء أن يردّ الكرامة والهديَّة، فكيف بهدية رسول رب العالمين؟!ـ فاحتراماً وكرامةً لرسول الله ﷺ، لبس الإمام علي عليه السلام هذه الحلّة التي كانت قيمتها ألف دينار في ذلك الوقت وكانت القوة الشرائية للدينار هي (شاة) أي كان يمكن أن تشتري به شاة، وقيمة الشاة حالياً ستة آلاف ليرة، فألف دينار يساوي في الوقت الحاضر ستة ملايين ليرة سورية أي ما يقارب مائة وثلاثين ألف دولار ستة ملايين ليرة قيمة حُلّة أهداها النجاشي إلى رسول الله ﷺ والرسول أعطاها للأمير عليه السلام، والأمير ارتداها وجاء للمسجد وعندما جاء السائل مستعطياً أعطاه الحلّة دون تردد.

هذه الرواية موجودة في الكافي،[1] وفي غيره ولها تفصيل.

وهناك روايات أخرى عديدة تختلف في تفاصيلها فقد يتوهم متوهم وقوع تعارض بينها وتضاد، لكن إن هذا التعارض الظاهري المتوهم، يندفع إذا عرفنا أن القضية لم تكن حادثة واحدة، بل كانت عدة حوادث وقضايا، وأن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام تصدق مراراً عديدة وهو في الصلاة وبأشياء مختلفة، فمرة تصدق بالخاتم، وأخرى بالحّلة وبغيرها، وكان مرة في صلاة الظهر، وأخرى في النافلة، إذ تصرح رواية بأن ذلك كان في النافلة، ورواية ثانية تقول تصدق وهو في الفريضة، وكل ذلك صحيح إذ ليست هي حادثة واحدة حتى يتوهم التناقض وإنما هي عدة حوادث..

(١) الكافي الشريف، للشيخ الكليني: ج١، ص ٢٨٩.. والوسائل، وتفسير الصافي، والبرهان، ونور الثقلين.. وغيرها كثير من المصادر الهامة..

ورواية ثالثة: في مقابل اليهود

وهذه إحدى الروايات: أن مجموعة من اليهود منهم ابن صوريّا، ومنهم ابن يامين، ومنهم ثعلبة، ومنهم أسد أسلموا فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله أن موسى قد أوصى ليوشع بن نون فجعله وصياً له، فمَنْ وصيك؟ فنزلت الآية.. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وهذا شأن النزول الآخر للآية هذه القضية حتى الآن حدثت خارج المسجد، الرسول خارج المسجد، مجموعة يهود أسلموا وطالبوا الرسول بأن يعرِّفهم وصيه كما عرف موسى وصيه، فنزلت الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾..

فالنبي قال: قوموا إلى المسجد ـ والنبي يعلم حقيقة الأمر فهو مخطط إلهي، والنبي مطّلع على المخطط، ولكن البشر قاصرون، ومقصرون، وجاهلون، وبعضهم معاند، ومتكبر، ومكابر ـ فالنبي قام إلى المسجد مع الجمع الذي معه وإذا بسائل يخرج من المسجد، فقال له الرسول ﷺ: هل أعطاك أحدٌ شيئاً؟ وهو أعلم بالجواب إلا أنه أراد أن نطلع عليه من لسان السائل قال: نعم أعطاني هذا الخاتم، مَنْ؟

علي بن أبي طالب عليه السلام،

في أي حالة؟

قال: في حالة الركوع..

فكبّر الرسول، وكبّر الجمع معه كلهم، قالوا: الله أكبر، لكن لماذا كبّر النبي ﷺ وماذا تعني (الله أكبر) هنا؟

إنها تعني فيما تعني: (الله أكبر من أن يجهل ضرورة أن يُعّين لنبي آخر الزمان وصيّاً) إذ هل يعقل أن يُعين لكل الأنبياء، وهم أدنى مرتبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصياً، وأوصياء، وفترتهم محدودة ولا يعّين للنبي وهو الرسول حتى نهاية العالم؟ كيف؟ أيعقل ذلك؟[1]

ما عدا مما بدا ـ والعياذ بالله ـ والله حكمته بالغةٌ.

إن هذا التكبير له دلالات كثيرة، منها: هذه الدلالة؛ الله أكبر من أن يوصف بالجهل، إذ رموه ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ بالجهل لأنه لا يعرف ضرورة أن يُعّين وصياً لنبي آخر الزمان، وهو أفضل الأديان، وأسمى الأديان، والدين الخالد إلى آخر الزمن، فالنبي كبّر ودخل إلى المسجد، وقال لهم: عليٌ وليٌّ من بعدي.. بعد نزول هذه الآية، فقالوا: رضينا بالله ربّا، وبمحمد نبيّا، وبعلي وليّاً، فنزلت بقية الآية، وهي الآية الثانية: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2]

انظر إلى هذا التسلسل اللطيف، من بداية القصة وإلى سؤالهم عن الوصي، مَنْ وصيك؟ وإلى مجيء الجواب: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، وبعد ما جاؤوا إلى المسجد وشاهدوا هذه الحادثة، وقد أشهدهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الحادثة، ليطابق الخُبر الخَبَر، قالوا: رضينا بالله ربّا، وبمحمد نبيّا، وبعلي وصيّا، فنزلت بقية، الآية ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾..

---

(١) راجع وسائل الشيعة للحر العاملي: ج٩، ص٤٧٨، ومعظم كتب التفسير بالمنقول عن أهل البيت عليهم السلام..

(٢) (المائدة:٥٦)

نسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم للمزيد من التدبر في القرآن الكريم والاهتداء بأنواره إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

[٨]

(الولاية)؛ حقيقتها، فلسفتها، ولوازمها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين الذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطهَّرهم تطهيرا، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين.

يقول الله سبحانه وتعالى، في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.[1]

بمناسبة مولد الإمام الرؤوف، الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في الحادي عشر من ذي العقدة.. نتكلم بعض الشيء عن (الولاية) ومفهومها ومكانتها وفلسفتها...

---

(١) (المائدة:٥٥)

بني الإسلام على خمسة أشياء

جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام، في رواية زرارة أنه (عليه الصلاة وأزكى السلام)، قال: (بني الإسلام على خمسة أشياء، على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية)[1]..

وفي رواية أخرى: (ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية)[2]..

وسوف نتوقف قليلاً عند كلمة (نودي)، ثم عند كلمة (كما)، ثم عند كلمة (الولاية) بإذن الله تعالى..

الدلالات العميقة لكلمة (وما نودي)

(وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية)، علينا أن نتدبر في كلمة (نودي) وأن نتسائل: (النداء) ماذا يعني؟

عندما نتتبع كتب اللغة نجد: أن اللغويين ذكروا للنداء معاني عديدة، لكن الجامع بين المعاني المذكورة في كتب اللغة هو معنيان:

المعنى الأول: للنداء هو (صوت أو صرخة باستغاثة)، فإذا أنت ناديتَ واحداً مُستغيثاً به، فتقول: ناديته، أو أناديه، أو أناديك، أو نادى فلانٌ فلاناً.. فـ (ناداه) أي (صاح به مستغيثاً).

المعنى الثاني: (الطلب)؛ وهو مطلق الخطاب الموجه للغير حتى إذا لم تكن هناك استغاثة، أو لم يكن هناك صراخ، أو نداء بصوت عال.

(١) الكافي للكليني :ج٢، ص١٨، باب دعائم الإسلام، ح١.
(٢) الكافي للكليني :ج٢، ص١٨، باب دعائم الإسلام، ح٣.

وقد يقال: إن مجرد الطلب لا يطلق عليه النداء، وأما الاستعمال فهو أعم من الحقيقة، ولعل (الطلب) هو جزء الموضوع له فقط، واللغوي شأنه بيان موارد الاستعمال، لا الموضوع له.

فإذا ناديتَ شخصاً بصوتٍ عالٍ، فهذا يسمونه نداءً، وإلا فالحديث الطبيعي والطلب العادي لا يسمونه نداءً، نعم يمكن أن يقولوا: سأله، طلب منه، تحدَّث معه، خاطبه، لكن لا يقولون: (ناداه)، إذا لم تكن هناك استغاثة، أو لم يكن هناك صوت عال..

وإننا هنا نريد أن نركز على (مفهوم الاستغاثة) المتضمن في كلمة (نودي) الموجودة في الرواية، نريد أن نركِّز عليه بعضَ الشيء.. (وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية).

دلالات (النداء) في القرآن الكريم

فلنرجع أولاً للقرآن الكريم، ولنتأمل المعاني المتضمنة في كلمة (نادى) في موارد عديدة في الاستعمالات القرآنية، فإن الآية الشريفة تقول: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.[١]

إننا نجد أن (نادى) تعني هنا: نداءً باستنجاد، باستغاثة، و(النداء) يتضمن مفهوم الاستغاثة بوضوح.. لاحظوا: (أصحاب النار) أين؟ و(أصحاب الجنة) أين؟ فيجب أن يصرخوا بصوت عالٍ حتى يصل صوتهم لهم ثم إننا نجدهم وهم يستغيثون في نفس الوقت..

(١) (الأعراف:٥٠)

وفي آية أخرى، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.(١)

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ ماذا يعني؟ وعلى ماذا يدل؟ يعني أنه يستغيث، لأن ابنه سيغرق ويعذب، وأيضاً تجدون أن مفهوم النداء بصوت عال متضمن هنا، كما في الآية الأولى أيضا ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، وبذلك نعرف بعض معنى (نودي) في الرواية الشريفة: **(وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية)**..

وللتأكيد نذكر لكم آيات أخرى ذات دلالة فقد قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢)، تلاحظون أن (فنادى) هنا تعني نداءً باستغاثة، واستنجاد، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٧) فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٣).

وعلى أي تقدير وسواء أقلنا بأن (المنصرف) من النداء هو ما ذكرناه، وأن (الاستغاثة) هي جزء المعنى الموضوع له، وكذا (الصوت العالي) وأن (الطلب باستغاثة وبصوت عال) هو المعنى الحقيقي وأما المجرد عنهما فهو مجاز، أم قلنا: بأنه يطلق عليهما بالاشتراك اللفظي، أم قلنا بأن الاستغاثة والصوت العالي هما أيضاً من شأن الاستعمال لا من قيود الموضوع له فإنه لا شك في دلالة قرائن المقام في تلك الروايات وفي هذه الرواية عليهما أي على الاستغاثة والصوت العالي وذلك بلحاظ السياق،

(١) (هود :٤٢)
(٢) (الأنبياء :٨٧)
(٣) (الأنبياء :٨٨).

والغاية، وقرينة الحكم والموضوع، وبقرينة سائر الروايات.

وهكذا نجد في روايتنا أن مفردة (النداء) قد استخدمت فقيل: (وما نودي) ولم يقل الإمام (وما طلب من أحد) أو (وما سُئل)، وذلك لأن في هذا النداء هنا يوجد مفهوم استغاثة واستنجاد.

لماذا يستغيث بنا الرسول والأئمة عليهم السلام لنتولاهم؟

ولكن ماذا يعني ذلك؟ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ينادي (بالولاية)، أي (يستغيث) بنا لكي نتولاه، ونتولى علياً، والأئمة من بعده؛ لماذا يستغيث؟ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الإمام الحسن عليه السلام يستغيث بنا، يستنجد بنا، لكي نتولاهم، ماذا يعني ذلك؟

السر في ذلك نكتشفه في رواية أخرى حيث ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

(يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة)[1]

فماذا نستفيده من هذا التعبير الرائع (أبوا هذه الأمة)؟

الذي نستفيده: أن النبي والإمام (عليهما الصلاة وأزكى السلام) حيث كانا للأمة بمنزلة الأب الرحيم، فإنهما أحرص الناس على مصالح الأمة، وعلى حفظهم وهدايتهم وإرشادهم، إن الأب لا يريد لابنه أن يضلَّ، لا يريده أن يضيع، لا يريده أن ينحرف، لا يريد أن يسلك طريق النار، فإذا رأى ابنه أنه سيخرج عن الجادة، يناديه مستغيثا به،لكي يعود، لماذا؟ لأن الضرر الذي يلحق بالابن يلحق بالأب، لأنه قطعة منه، بَضْعَة منه، جزء منه، يحبه، يخاف عليه الهلاك..

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص١٢٨، ب٧، ح٥٩.

وإن هذه الرواية الواردة: (**أنا وعلي أبوا هذه الأمة**)[١].. تمتد من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، لتلفّ بدلالتها الأئمة واحداً أثر آخر وصولاً لـ: الإمام الحجة المنتظر عجل الله فرجه الشريف، فإنهم جميعاً بمنزلة الأب الرحيم، وذلك لأنهم نور واحد وامتداد واحد.

إن هذا الإحساس السامي إذا تولَّد فينا، فإن كثيراً من الأمور سوف تتغير حقيقة.

الأب الرحيم لا يريد لأبنائه أن يَضِلوا، لذا يستغيث بنا، تأمل هذا النداء الرحيم: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾، إنه يستغيث به كي لا يهلك ويغرق ويخلد في النار.

وبتعبير آخر: النبي والإمام يحبنا حقيقة، كحب الأب أبنائه، بل لعله أكثر، وأنتم سمعتم بأن الإمام الحسين عليه السلام بكى يوم الطف على أعدائه، لماذا؟ لأنه يحبهم بما هم خلق لله، حتى عدوه كان يحبه بالعنوان الأولي أي: لا يريد أن يذهب عدوّه إلى النار، بل يريد أن يدخل إلى الجنة، هذا عبد من عبيد الله، لكنه بسوء اختياره يريد أن يدخل النار وبالقوة، فالإمام يبكي عليه، وعيسى المسيح عليه السلام، يقول: (**أحبوا أعداءكم**)[٢]، لان هذا العدو عبد من عبيد الله وخلق من خلائقه، فأحبوهم بذواتهم، لا بصفاتهم، أحبوهم بالعنوان الأولي.

فأنت تحب هذا العدو وهو بالحقيقة أي في جوهره ليس بعدو، ولكن سوء اختياره جعل منه عدواً لكي تجذبه، لكي تجره إلى طريق

---

(١) علل الشرائع للصدوق :ج١ ص١٢٧..

(٢) الكتاب المقدس ص٥٠..

الجنة، وأما إذا أصرَّ وذهب إلى طريق النار، وبقي على هذا الدرب الشائك الموبِق المهلك، فإن من الواضح أن الواحد منا يجب عليه أن يتبرأ من أعداء الله، ولا يحبهم بما هم أعداء الله، لكن المحبة بالعنوان الأولي، أو في المحطة الأولى، أو في المرحلة الأولى، أو هو مقتضى الطبع الأولي، وليس بالعنوان الثانوي، أي بملاحظة انه دنّس فطرته، وفي الرواية: (**كل مولود يولد على الفطرة، إلا أن أبويه يهودانه أو ينصرانه**).(١)

وبعبارة أخرى: المحبة له (لا بشرط) عن صفاته، إن لم نقل أنها (بشرط لا) عن صفاته، والبغض له (بشرط صفاته).

(**وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية**)(٢)، الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ينادينا بالولاية لكي نتولاه، لماذا؟

لأنه هو القائد الذي يُنْجِحُ هذه المسيرة في الدنيا وفي الآخرة أيضاً، فالقائد إذا كان قلبه يحترق على الرعية، يستصرخهم: (يا جماعة تعالوا، تمسكوا بي، أنا القائد والمنقذ، العدو سيدهم البلد، وسيقضي عليكم) يستنجدهم، لماذا يستنجدهم؟ لأنه يحب رعيته، يحب الناس، يعرف أنه القائد الكفء، وأن غيره ليس بكفء، سيسلك بهم مسالك الردى والضلال، ويوقعهم في أسفل الوادي فيتحطمون أشد تحطم.

(**وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية**)، هنا نجد بوضوح أن

---

(١) تصحيح الاعتقاد للمفيد :ص٦١ وفيه (وإنما أبواه..)

(٢) الكافي/ الشيخ الكليني/ ج٣/ باب دعائم الإسلام/ ح١ ، ٣، ورد بهذا اللفظ: ولم يناد نبي كما نودي بالولاية.

معنى الاستغاثة متضمن في هذه الكلمة، وما أرقُّ هذا المعنى، وما أدقّه.. إذا الواحد منا عرف هذا المعنى؛ وعرف والده ووالدته، وعرف قدرهما، وإنهما كم يحبانه، إذا عرف من هو أبوه، من هو قائده، من هو إمامه، من هو نبيه، فإنه سيبادله المحبة، والشوق، والرغبة، والطاعة، وسيسلس له قياده ويكون له أطوع من بنانه.. هذه كلمة مختصرة حول كلمة نودي.

الموازنة بين (الولاية) وبين الصلاة والصوم والحج والزكاة

بعد ذلك نتوقف عند كلمة (كما)، (وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية)، لماذا؟

(الصلاة)؛ أليست هي أهم الأركان؟ وعلينا أن نفكر بهذه المقاطع الخمسة، ونتساءل ما هو الرابط بينها؟ (بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والجهاد، والولاية)، وتوجد إضافة: (وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية) في الرواية الأخرى.

ما هو الرابط بين الأربعة الأولى؟

ربما تكون الإجابة أن العنوان الأول:

وهو (الصلاة) يحدد علاقة الإنسان مع ربه بالأساس، ويتحكم بها ويوجهها ويؤطرها، ذلك أن الإنسان له (علاقة بربه)، وله (علاقة بنفسه)، وله (علاقة بمجتمعه)، وهذه (العلاقة) لها شعبتان أيضاً، و(الصلاة) تُجسِّدُ علاقة الإنسان بربه،

و(الزكاة) تجسد علاقة الإنسان بمجتمعه في وجهها الاقتصادي.

ذلك أن الحياة تبتني فيما تبتني عليه على الاقتصاد كما هو واضح، (مَنْ لا مَعاشَ له لا مَعادَ له)[1] حتى الآخرة، في الجملة تبتني على الاقتصاد..

و(**الصوم**) يُجسِّدُ علاقة الإنسان بنفسه، إذ عليه أن يمتنع عن (الأكل والشرب والمفطرات المعروفة)، فهو يضبط نفسه، ويُسيطر عليها، ويتحكم فيها، فيكون هو الذي يسيّر سفينته في لُجج البحار، ليس هي مَنْ تأخذ به يمينا وشمالاً، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.[2]

فهو يسلك بها سبيلَ الرشاد والهدى؛ بدل سُبُل الضلالة والردى.

وأما (**الحج**) فإنه يُجسِّدُ علاقة الإنسان بالمجتمع، فإنَّ واحداً من ابرز وجوه الحج هو الوجه الاجتماعي.

وإن من الصحيح: أن هذه الأركان الأربعة كلها ذات أبعاد مُختلفة، لكن قد يقال إن الوجوه الأبرز لها هي هذه، أو أنها من أبرز الوجوه.

إذن علاقة الإنسان بربه، تجسدها (الصلاة)، وعلاقة الإنسان بنفسه، يهذبها (الصوم)، وعلاقة الإنسان بمجتمعه في الوجه الاجتماعي، يوجهها (الحج)، وعلاقة الإنسان بمجتمعه في وجهه الاقتصادي، تتحكم بها (الزكاة)، والزكاة تشمل الخمس أيضاً..

والوالد قدس سره كان يقول: قد يتساءل المرء: لماذا توجد في القرآن آيات كثيرة حول الزكاة؟ كقوله تعالى: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا

(١) أعيان الشيعة للسيد الأمين :ج٤ ص٢١٦..
(٢) (الشمس:١٠)

دُمْتُ حَيًّا﴾.[١] لكن الخمس لم يذكر بهذا اللفظ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾[٢]..وفي الروايات (أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة)[٣]؟

كان يجيب: الزكاة تشمل الخمس أيضاً، فإنها أعم وهو من مصاديقها.

فهذه إشارة لهذا الجانب الاقتصادي المهم، والحديث في هذا الحقل حديث فقهي لا نريد أن ندخل فيه الآن.. فلنعد إلى الرواية الشريفة

السر في أرجحية الولاية على الصلاة وغيرها.. (لأنها مفتاحهن)

(**وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية**)، ماذا يعني ذلك؟ ولماذا (ولم يناد أحد بشيء كما نودي بالولاية)؟

الإمام (عليه الصلاة وأزكى السلام) في تتمة رواية زرارة يجيب على هذا السؤال عندما سأله زرارة: أي شيء من ذلك أفضل؟ فأجاب: الإمام الباقر عليه السلام: الولاية، لأنها مفتاحهن.[٤]

و(الولي) هو الدليل عليهن.. هذا هو المفتاح.. ولكن كيف أن الولاية هي المفتاح لهذه الأربعة؟ وكيف أنها المفتاح لعلاقة الإنسان بربه؟ مما يعني: أنه لولا الولاية تكون علاقة الإنسان بربه علاقة غير مَرضيَّة لله سبحانه وتعالى، وكذلك علاقته بنفسه غير سليمة، كما أن علاقته

---

(١) (مريم :٣١)

(٢) الأنفال : ٤١.

(٣) راجع زيارات الإمام الحسين عليه السلام، في كتب الدعاء والزيارة..

(٤) الكافي للكليني :ج٢ ص٤٣..

بمجتمعه في وجهيها الاجتماعي والاقتصادي، ستكون مختلة مضطربة.

ونكرر السؤال: فلماذا (ما نودي)؟، ولماذا (ولم يناد احد بشيء كما نودي بالولاية)؟

ونجيب:

لأن الولاية هذه يُراد بها (الولاية العظمى).. ذلك أنه توجد (ولاية صغرى)، وهي ولاية تجزيئية، وولاية مُبعَّضة، مثل ولاية الأب أو الجد، على الابن، أو ولاية المولى على العبد، أو ولاية الوصي أو ما أشبه ذلك، وتسمى ولاية القيِّم..

وتوجد (ولاية عظمى) عامة شاملة، وإن (وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية) تُشير إلى (الولاية العظمى)، وهي التي أشير لها في الآية القرآنية الكريمة، التي ابتدأنا بها البحث: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، فأية ولاية هي الثابتة لله سبحانه وتعالى؟

إنها الولاية العظمى، المطلقة، هذه الولاية جعلها الله سبحانه وتعالى للرسول ﷺ، وجعلها للإمام عليه السلام من بعد الرسول.. أي أنها من المراتب الطولية لولايته جل اسمه.

الاستدلال بآية الولاية على العصمة الكبرى

فكروا ولاحظوا، فقد كنتُ أفكرُ بالأمسِ بهذه الآية الشريفة، فرأيتُ أنه توجد أدلة عديدة يمكن أن نستنبطها من هذه الآية، في الاستدلال على عصمة الرسول والأئمة (عليهم الصلاة وأزكى السلام)، أشير فقط

لاستدلالين:

الاستدلال الأول: بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾..

الاستدلال الثاني: بكلمة ﴿وَلِيُّكُمُ﴾..

الاستدلال الأول:

أما كلمة ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ فدلالتها ظاهرة، لأن الولاية التي جُعلت لله سبحانه وتعالى، ولاية مطلقة، ونفس هذه الولاية أعطيت للرسول، والإمام، فالآية هكذا تقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، نفس الوزن، ونفس السِّياق، وليس أكثر، ومنتهى الأمر أن هذا بالذات، وذاك بالعرض، وإلا فمن حيث الصلاحية فإنها هي صلاحية مطلقة، إلا أن هذا بالذات، وذاك بالعرض، والله هو الأصيل والمعطي، والرسول والإمام هو الخليفة والنائب والوكيل والمعطى.

هذه مرتبة الخالق، وتلك مرتبة المخلوق، لكن في مرتبة صلاحية التصرف، والسلطة، والولاية على الناس، هي صلاحية مطلقة من جميع الجهات، فالآية مُطلقة، والله سبحانه دقيق في كلماته، ولن يُطلق الكلام ـ والعياذ بالله ـ على عواهنه.

ولا دليل على تقييد هذه الولاية المطلقة الممنوحة للرسول والإمام بنص هذه الآية الشريفة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾، وواضح أنه تعالى هو الولي بقول مطلق. هذه الولاية التي هي لله، جُعلت بنصِّ الآية القرآنية الكريمة للرسول الأعظم ولـ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، الذي هو بالإجماع علي بن أبي طالب عليه السلام ولا كلام في ذلك..

(وليكم) دليل العصمة

والآن لننطلق إلى التساؤل الآخر

هذه الولاية بقول مطلق هل يعقل أن تُجعل لغير المعصوم؟

كلا؛ فلا يُعقل أن تُجعل هذه الولاية، لشخص غير معصوم، أي بما للولاية من معنى، بما للسلطة من معنى وشمول، هل يعقل أن يجعلها الله الحكيم، لشخص غير معصوم؟ لشخص جائز الخطأ، أو الاشتباه؟ إن هذا غير معقول، وهو خلاف الحكمة..

نعم؛ خلاف الحكمة من الله سبحانه وتعالى؛ أن يجعل ولايته المطلقة لشخص من الأشخاص، يمكن أن يخطئ، أو يشتبه، أو يزلَّ في أيِّ موقع من المواقع كان، وفي أية قضية كانت.. وبذلك نعرف أن هذا العيار الثقيل والوزن الكبير، أي جعل الولاية الموجودة له سبحانه وتعالى وهي بلا شك ولاية مطلقة من كل الجهات للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وللإمام عليه السلام، دليل على عصمته وإلا كان خلاف الحكمة، وخلاف العقل أيضاً.

الاستدلال الثاني:

﴿إِنَّمَا﴾ دليل الولاية المطلقة

وأما كلمة ﴿إِنَّمَا﴾، فهل هذه الكلمة يَصُحُّ استخدامها لو كان المراد الولاية الجزئية؟

الأب له ولاية أيضاً، فلماذا الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، والحال أن الآباء، والأجداد، والقيمون على الأيتام ومن أشبههم، أيضاً

لهم الولاية التجزيئية. هذه ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، فلنفكر: الله تعالى يَحصرُ ماذا في ذاته القدسية وفي رسوله وإمامه؟

إنه يحصر مفهوماً استثنائياً، وليس مفهوماً عاماً.. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وليس إلا (الولاية العظمى والمطلقة).

والحاصل إن هذه الولاية المجعولة للنبي، وللإمام ـ والتي هي في طول ولاية الله سبحانه وتعالى ـ هذه هي (الولاية العظمى)، هذه هي المحصورة في الله، والرسول، والإمام، وإلا فإن غيرها غير محصور في الله، والرسول، والإمام، ولا يُعقل الحصر أيضاً إلا بالعصمة.. والحديث عن العصمة طويل، ولكن تكفينا في هذه العجالة إشارة فقط.

(وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية)، لماذا؟ لأن هذه الولاية هي الولاية العظمى، التي هي ولاية الله، والرسول، والأئمة، والنتيجة أن الإنسان إذا ابتعد عن هذه الولاية، تكون صلاته باطلة.. والصوم كذلك يكون باطلاً.. وعلى أحسن الفروض والصور، تكون غير مقبولة.

هل صلاة غير الموالي باطلة؟

وقد تسأل: لماذا صلاته تكون باطلة؟

وأجيب:

لأن الرسول ﷺ يقول: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[1].. فالصلاة تكون باطلة أو غير مقبولة، إذا لم تطابق صلاته ما أمر به رسول الله، ولم يقتد به ﷺ أي صلى على غير ما صلى عليه رسول الله، أي: لم يصل

(١) البحار للمجلسي :ج٨٢ص٢٧٩..

مسبلاً يديه واضعاً جبهته على التراب مثلاً، لأن مسجد الرسول لم يكن مفروشاً بشيء، وكان ﷺ يصلي على التراب. وقال ﷺ: (جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)[١] والملفت أن هذه الرواية موجودة في الصحاح وفي صحيح البخاري بالذات[٢].

إذن (الولي) وهو الرسول والإمام، هو بتصريح الإمام الباقر عليه السلام (إنها مفتاحهن) والوالي الدليل عليهن.. والله، يقول: صل كما صلى رسول الله ﷺ.. فإذا صليت بطريقة ثانية أي إذا لم يكن المأتي به مطابقاً للمأمور به تكون صلاتك باطلة في الجملة.. فعلاقتك مع ربك ليس لها مُصحِّح، فإنّ تلك العلاقة مع الرب، يجب أن يُحددها الله وليس أنتَ..

الله يقول هكذا صل، ويأتي مَنْ يقول مثلاً: أنا أصلي خمس ركعات!! أنا إنسان عابد صالح فأصلي خمس ركعات!! أصلاً أصلي ألف ركعة متصلة!! هل صلاته مقبولة؟ كلا.. إن صلاته باطلة.

الله يقول: صلِ مثل ما أنا قلت وأمرت، وليس بطريقة أخرى، سواء في الأجزاء أم الشرائط وبدون الموانع والقواطع.

كذلك (الصوم)، فإذا الإنسان أفطر قبل المغرب، أفطر مع الغروب، فإن صومه باطل.. وذلك أن (علاقته مع نفسه)، أيضاً رسم حدودها وشرائطها وموانعها، الله تعالى، الخالق للعباد والمشرع للأحكام والعبادات.

كذلك (الحج) فإنه إذا لم يطف طواف النساء، ثبوتاً زوجته تحرم

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٧، ص١٤٧، ب١٢، ح١، عن أمالي الصدوق ص١٣٠.

(٢) صحيح البخاري: ج١: ص١١٣.

عليه، وإن كان من الناحية الظاهرية له حكم آخر، ومن الواضح أن مرتبة الاقتضاء والإنشاء والفعلية ثابتة، لكن الكلام في مرتبة التنجيز وهل ترتفع العقوبة بالتزامه بمذهب آخر؟ إن ذلك يرتبط بكونه قاصراً أو مقصراً، ولهذا البحث مجال واسع يترك لمظانه من مباحث كيفية الجمع بين الحكم الظاهري والواقعي.

وهكذا وهلمَّ جراً من الأمور.. فالزكاة، إذا لم يكن هناك ولي من قبل الله تسلّم له، فإن الزكاة سوف تذهب إلى جيوب الإرهابيين التي تنتج ماذا؟ تنتج هذه التفجيرات، وهذا التلويث لسمعة الإسلام، وسمعة المسلمين، هذا من الناحية الظاهرية، والشكلية، والقانونية.

ومن الناحية الواقعية، فإن الولاية ـ مع قطع النظر عن الشروط الشرعية ـ هي شرط القبول لكل الأعمال، فمثلاً الإنسان يُصلي وهو لا يعتقد برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل صلاته مقبولة؟ كلا، وإذا لم يعتقد بالأئمة عليهم السلام أيضاً صلاته ليست مقبولة، هذا من الناحية الجوهرية.

(وما نودي أحد) ولهذا المقطع كلام مفصَّل ربما في وقت آخر نتطرق له إنشاء الله تعالى، وسنكتفي بقاعدة الميسور

ونتساءل لماذا (وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية)؟

الجواب:

أولاً: لان المراد بالولاية: (الولاية العظمى) وهي العمود والعماد والجوهر، لسائر العبادات وهي سر القبول للأعمال وملاك الصحة.

الولاية سرُّ السعادة في الدارين

ثانياً: أن هذه الولاية هي سرُّ سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، لاحظوا، الإنسان لابد له من مولى، وكل إنسان يحتاج إلى مولى، ولي، قيّم، رئيس، حاكم، سلطان، لكن هذا السلطان مَنْ هو؟

هل هو الشهوة؟ هل هو حب الرياسة؟ هل هو المال؟ أو سلطانه ووليه هو رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أو سلطانه الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف؟

فالإنسان بذاته وتركيبته يحتاج إلى مولى وقائد[1]، وأن ذلك من وجوه ضرورة هذه الولاية (ما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية)؟ ذلك أن هذه الولاية هي سرُّ السعادة في الدنيا والآخرة..

وأؤكد أن الإنسان يحتاج إلى وليٍّ، إلى قيّم، إلى مرشد، إلى سلطان بالمعنى اللُغوي، وإلى دليل ومرشد وهادي، فلو المرء كان عبداً لله، ولرسوله، والذين آمنوا، أي كان حقيقة عبداً لهم، لتحرر إذن من كل سلطان، من سلطان الأهواء والشهوات، وعندئذ ستجد أن الشهرة ليست مهمة عنده، والرياسة ليست مهمة عنده، والمال ليس مهماً عنده، وليست بذات قيمة لديه، ولا تشكل مقياساً عنده، وعندئذ يكون السعيد حقاً، وإن كان معدماً ذلك، أنه حر يستنشق عبير الحرية.. ويحلق في هوائها.. ويحبه ربه قبل ذلك أيضاً.

لا أدري هل أنتم لاحظتم أم لا؟ إن حياتكم هي سلسلة من التحديات المستمرة مع الشيطان، تصوروا إنساناً يمشي في الشارع فيقع بصره على امرأة أجنبية، فيغضّ طرفه، فإنه بمجرد أن يغض طرفه، يُحِسُّ بلذة

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: (لابد للناس من أمير برٍ أو فاجر)، نهج البلاغة: ج١، ص٩١، ح٤٠.

لا توصف وسيستشعر قيمته وقيمة إرادته وسموه، بل ويستشعر رضى الله تعالى عنه، وفي الرواية: (أن الله يخلق له في نفس اللحظة حورية تنتظره في الجنة)[1]، فإذا تعرض المرء مائة مرة في اليوم الواحد لهذا المأزق، وخرج منه بسلام فإن مائة حورية تنتظره في الجنة، وتزداد كل يوم وهكذا وهلمَّ جراً..

إن حياة الإنسان سلسلة من التحديات، إذ إنه يريد أن يكذب، فإذا أمسك نفسه، فإنه يحسُّ عندئذ بقيمة لنفسه، ويستشعر عندئذ أنه أصبح سيد نفسه، وعبداً حقيقة لربه ورسوله وإمامه، وإذا كذب فإنه يحسُّ بمهانة، وإن حاول أن يَدفن ضميره ويُسكت صوته المجلجل في داخله، لكن ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[2].

ولكن وفي المقابل فإن مَنْ يُريد أن يغتاب مثلاً، فإذا أوشك على الغيبة، أو التهمة، أو النميمة، أو الحسد، أو الكبر، أو العجب، ولكن أمسك نفسه، يُحسُّ بارتفاع رصيد معنوياته، وبأنه حقيقة صار ذا قيمة، ذلك أن قيمة الإنسان كل القيمة بأن يكون معناً حرفياً بالنسبة للعبودية..

ولأمثّل لكم مثالين من وحي المناسبة في اتجاهين متعاكسين:

معاوية وعشرة آلاف عصفور!

المثال الأول عن معاوية: يروى أن أحد الأشخاص نزل ضيفاً عنده، يقول: أتوا بسفرة ما أفخمها، وأعظمها، وأشملها لصنوف الطعام، وكان

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٠، ص١٩٣، ح٩، وفيه (من نظر إلى امرأة فرفع بصره إلى السماء أو غمض بصره لم يرتد إليه بصره حتى يزوجه الله من الحور العين).

(٢) (القيامة: ١٥)

من جُملتها طعام لذيذ جداً، لم أرَ ولم أسمع بمثله، فسأل معاوية: ما هو هذا الطعام؟

فقال: هذا الطعام مادته الأساسية هي مخ العصافير، ويمزج بـ(عسل) و(سَمن) وكذا وكذا.. وأضاف معاوية: إن لنا صيادين شأنهم صيد العصافير وهم يصيدون عشرة آلاف عصفور لكل وجبة واحدة من هذا الطعام!! (مسكينة هذه العصافير!! يصيدها ليأخذ مخها فقط، لاحظوا مخ العصفور كم حجمه؟ كم يبلغ وزنه؟عشرة آلاف عصفور يصيدونها، يذبحونها، ويأخذون مخها ليطبخوه مع العسل وغيره، حتى هذا الرجل يتمتع بوجبة لذيذة تنتهي في دقائق، ويبقى عليه وزرها، ووزر من ساهم فيها، حيث أتلف أموال المسلمين بهذه الصورة الفاحشة).

صدق ربنا حيث يقول: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾[1]

إن معاوية وأشباهه، هم حقاً ممن يصدق عليهم (عبيد أذلاء بل حقراء للبطن)، كما هم عبيد أذلاء للشهرة والمال وأعراض الدنيا الزائلة: ولقد تأخَّر ذات مرة على الرسول ﷺ، الرسول كان قد بعث يطلبه، لكنه كان مشغولاً بالأكل، المرة الثانية، المرة الثالثة، الرسول قال: لا أشبعه الله[2]، هذا عبد ذليل حقير للبطن.. فهل أنا قيمتي أن أكون عبداً للبطن، أو للفرج، أو للرياسة، أو للشهرة، أو ما أشبه ذلك؟

---

(١) المؤمنون: ١٠٠

(٢) صحيح مسلم: ج٨، ص٢٧ وسير أعلام النبلاء للذهبي: ج٣، ص١٢٣ ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج١، ص١٤٠.

إن سعادة الإنسان هي بأن يكون ولياً لله، ورسوله، والإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف طائعاً لهم، مهتدياً بهديهم، سائراً على دربهم..

فإذا استشعر الإنسان هذا المعنى، وأن وَليَّه حقاً وصدقاً كما هو كذلك هو الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف، فإن معادلة الحياة كلها سوف تختلف، وسيكون كما قال تعالى (عبدي أطعني تكن مثلي، أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون)[١] و(من خاف الله أخاف الله منه كل شيء)[٢].. ولذلك قال الإمام الباقر عليه السلام: (وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية)..

الموازنة بين (الولاية) وبين (الدنيا بحذافيرها)

المثال الثاني: وأختم به الحديث، وبرواية لها أبلغ الدلالة حقيقة، عن يونس بن عبد الرحمن الذي قرأنا بعض رواياته في فرائد الأصول للشيخ الأنصاري، كما توجد في كتب الحديث كوسائل الشيعة وغيره (يونس بن عبد الرحمن ثقة آخذ منه ما أحتاج إليه من معالم ديني..)[٣] هذا العظيم، يونس بن عبد الرحمن، قال للإمام الصادق عليه السلام (لولائي لكم وما عرَّفني الله من حقكم، أحبُّ إليَّ من الدنيا بحذافيرها)[٤].

يقول لأبي عبد الله عليه السلام: (لولايتي لكم)، يعني ولائي لكم وكونى مولاً، تابعاً، عبداً لكم (وما عرفني الله من حقكم)، وهو بذلك يرجع الفضل لرب الأرباب فكما أنه الرازق للعلم والعقل والسمع والبصر،

(١) بحار الأنوار: ج١٠٢، هامش ص١٦٤.
(٢) الكافي: ج٢، ص٦٨، باب الخوف والرجاء، ح٣.
(٣) وسائل الشيعة: ج١٨، ص١٠٧، ح٣٣.
(٤) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٢٦٥، ح١٧٧.

كذلك هو الرازق (لمعرفة حق أهل البيت عليهم السلام)، (أحبُّ إليَّ من الدنيا بحذافيرها).

لاحظوا هذا المعنى السامي والرفيع والدقيق، ولنتأمل في أنفسنا، فهل هذا المعنى متوفر فينا؟ (الدنيا بحذافيرها)، أم ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، أيهما الأحبُّ إلينا؟

إن هذا في (القول) وفي عالم (الشعارات) سهل، ولكن في مقام العمل تجدونه في غاية الصعوبة..

لاحظوا: أن الإنسان إذا خسر مبلغاً من المال، أو أهانه شخص في المجلس، تصوروا الآن أنكم إذا دخلتم إلى مجلس، وأحدهم حقيقة، أهانكم، كم تتألمون؟ وربما لا تنامون الليل، وقد يقعدكم ذلك عن العمل لأيام، أو تتخذون مواقف تمتد آثارها لأشهر وسنين، وفي المقابل: أما نسمع في الإذاعات والفضائيات؟ وألا نرى في الكتب والجرائد، هضماً وبخساً عجيبين لحق أمير المؤمنين ومولى الموحدين عليه صلوات المصلين فهل نتألم بتلك الدرجة؟

إذا شخص أهاننا وطعن فينا كم نتألم؟ لكن أمير المؤمنين عليه السلام لا يزال حقَّه مجهولاً على مستوى العالم.. ولا نتألم ذلك التألم! ولا نُحرك ساكناً، هذه الكلمة جداً عظيمة (لولايتي لكم وما عرفني الله من حقكم أحب إلي من الدنيا بحذافيرها)[1] يعني بشهرتها، بمالها، برياستها، بكل شيء فيها، بحذافيرها، وكان يونس صادقاً..

---

(١) المصدر.

فهل نحن صادقون؟! هل أحدنا يضحي كل يوم بساعة من نومه لنصرة الدين والذب عن حياض عترة رسول رب العالمين؟ للكتابة عنهم، أو لهداية مخالفيهم، أو شبه ذلك.

وهل يضحي بنصف ثروته لذلك؟! وتعبيرنا بـ(يضحي) من ضيق التعبير وإلا فإن من يدفع واحداً ليربح المليار ليس بمضحي بل هو أكبر تاجر، إذ يربح الواحد منا بكل دقيقة جهاد في سبيل الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام، المليارات بل وأكثر.. بل المضحي حقيقة هو من لا يفعل ذلك!!

وهناك رواية أعظم، وأشد وقعاً، يقول مولانا الإمام الصادق عليه السلام، كلمة يجب أن تكتب بالنور على صفحات القلوب والصدور: (ولايتي لعلي بن أبي طالب عليه السلام أحب إليَّ من ولادتي منه، لأن ولايتي لعلي بن أبي طالب فرض، وولادتي فضل..).[1]

ونحن لكي نصل إلى المرتبة التي كان قد وصل إليها يونس بن عبد الرحمن، لعلنا نحتاج إلى مليون سنة ضوئية من السعي الحثيث المتواصل! والله العالم.

عتاب الإمام ليونس لأنه فضّل ولايتهم على الدنيا!

والغريب مع ذلك كله نجد أن الإمام عليه السلام غضب من قوله هذا لأنه بمستوى جداً رفيع، فالإمام لا يغضب عليَّ لأنني مَنْ أنا؟ ما قيمتي وكم هو مدى إدراكي وشعوري؟ أما يونس فله قيمة سامية، رفيعة جداً،

---

(١) البحار للشيخ المجلسي :ج٣٣ ص٢٩٩..

والإمام يعرفه، فينبهه إلى خلط كلامه وخطأه، وإنه عيب عليك أن تقول هذا الكلام أصلاً!!. يقول يونس فتبينتُ الغضب فيه، وقال عليه السلام: (يونس! قستنا بغير قياس..).

ولم يستخدم معه كُنية، وما أشبه، فهناك علاقة محبة، وأخوة كانت له، وكان جليلاً جداً، شأن يونس بن عبد الرحمن هو هذا، قال له: (يونس! قستنا بغير قياس، وما الدنيا وما فيها حتى تقاس بمحبتنا؟)

مثل واحد يقيس الذرة بالمجرة! أو يقيس بعلي عليه السلام معاوية.. بل هل تقاس البعرة بالمجرة؟! بل الفاصل بين علي ومعاوية أبعد... فأبعد... فأبعد... ما هذا القياس؟ (يونس قستنا بغير قياس وما الدنيا وما فيها، وهل هي إلا سد فورة)، مثل فورة الجوع، الواحد يسدها، يأكل قليلاً فيشبع، يأكل خبزاً، أو يأكل دجاجاً، ما هو الفرق؟ المعدة تمتلئ بطعام قليل مهما كان، ثم هو الحساب والعقاب، أو الجزاء الأوفى والثواب.. فلماذا هذا التكالب على حطام الحياة الدنيا؟ (وهل هي إلا سد فورة، أو ستر عورة، وإن لك بمحبتنا الحياة الباقية).

ماذا تقول يا يونس؟ توازن بين الدنيا بحذافيرها، وبين معرفة حقنا، والولاية لنا، وتقول هذا أحب إليك من ذاك؟، وكم هي قيمة الدنيا؟ مثل أحدهم يقول: المليار أحب إلي من الدرهم، أو رضوان الله والجنة أحب إلي من قطعة من الحامض حلو!! لا يوجد قياس بين الأمرين.. بل إنه قد يعد نوعاً من التفكير الطفولي.

ونحن الآن الكثير منا، في المرتبة الأولى والأدنى، وقلتُ: لعلنا نحتاج إلى مليون سنة ضوئية من السعي ومن الركض ليصل إليها! فكيف

المرتبة الثانية، والحديث عنها طويل.. (يونس قستنا بغير قياس وما الدنيا وما فيها، وهل هي إلا سد فورة أو ستر عورة). الدنيا ليست أكثر من هذا، سواء الغني، أو الفقير فبالنتيجة الكل يعيشون، ويأكلون ويموتون وانتهى الأمر..

ولكن؛ (وإن لك بمحبتنا الحياة الباقية)، مليارات من السنين، ترليونات من السنين، بل أكثر من ذلك لنا بسبب محبتهم، هكذا يريدنا الإمام عليه السلام: أن نفهم، وأن نكون، وأن نسمو.. ونسمو.. ونسمو.. ويدل على ذلك إضافة لكلام الإمام عليه السلام وهو حجة الله على الأنام، القرآن الكريم أيضاً، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾[1]

فأجر الرسالة ما هو؟ محبة رسول الله، وعلي، والأئمة إلى المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف ومن الواضح أن لا يوجد في الكون أعظم من (الرسالة) فلابد أن يكون (أجرها) متناسباً معها، كماً وكيفاً وجهة، وما الدنيا بحذافيرها في مقابل الرسالة؟! وهل يعقل وزن الرسالة، بالدنيا؟ إنما الأجر الذي يوازن الرسالة هو محبة حملتها آل البيت الأطهار عليهم السلام.. فهل من موازنة بين محبتهم وبين الدنيا بحذافيرها.. كلا.. وألف كلا..

ولاحظوا ماذا يقول القرآن الكريم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾، ولكن في آية أخرى، يقول ربنا سبحانه: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾[2]، أنا لا احتاجكم، هذا

---

(١) (الشورى:٢٣)

(٢) (سبأ:٤٧)

الأجر لكم، (فهو لكم)، وأنت (لك بمحبتنا الحياة الباقية)، لذلك نعرف بعض السر في قوله عليه السلام: (وما نودي أحد بشيء كما نودي بالولاية).

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يزيدنا وإياكم من ولاية محمد وأهل بيته عليهم السلام، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

[٩]

الخط الفاصل بين الأديان والحضارات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]

---

(١) (الكافرون:٦)

العلاقة بين الحضارات؟

ما هي (المعادلة) التي ينبغي أن تحكم (العلاقة) بين الحضارات، وبين الأديان، وبين الامم؟

هل المعادلة هي:

أ ـ معادلة (صراع الحضارات)..

ب ـ أم المعادلة هي معادلة (تعايش الحضارات)..

ج ـ أم المعادلة التي ينبغي أن تتحكم في العلاقة بين الحضارات هي علاقة (اندماج الحضارات)..

د ـ أم العلاقة هي علاقة (حوار الحضارات)..

هـ ـ أم أن هنالك مساراً آخر ترسمه لنا هذه الآيات القرآنية الشريفة، في سورة الكافرون؟

سورة (الكافرون) أو (الجَحد)؛ تلقي الضوء على المعادلة التي ينبغي أن تتحكم في العلاقة بين الأديان والحضارات المختلفة، وسنتطرق على ضوء هذه الآيات القرآنية الشريفة، لبعض الحديث عن ذلك في هذا البحث والأبحاث المقبلة ـ بإذن الله سبحانه وتعالى ـ لكن قبل ذلك فلننظر كيف كان يتعامل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع هذه الآيات القرآنية الكريمة من سورة الكافرون؟

التزام الرسول فجراً وليلاً بقراءة (الكافرون)

في الرواية: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (لم يأتِ فراشه قط إلا وقرأ قل يا أيها

الكافرون حتى يختم).[١]

وفي رواية أخرى يقول أحد المراقبين: كنت أرمق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك ـ كان يراقب النبي كيف يتحرك؟ وماذا يصنع؟ وماذا يُظهر أو يبطن؟ ويبدو من الحديث أن رقابته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ربما كانت على مدار الأربع والعشرين ساعة، فيقول على حسب تعبيره: كنت أرمق ـ أراقب وألاحظ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ـ أربعين صباحاً أو أربعين يوماً، وفي رواية ثانية شهراً وفي لفظ ٢٥ مرة ولعله يظهر من الرواية أنه كان يراقب النبي من السحر إلى الليل فوجدته يُصلي نافلتي الفجر وفي رواية (صلاة الفجر) بـ(قل هو الله أحد) و(قل يا أيها الكافرون).. توحيد وبراءة، تولي وتبري.. يفتتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومه بالبراءة وبالولاية، كما نشاهد التجلي الأكبر للتبري والتولي في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فكان يبدأ صلاته (الفريضة أو نافلتها حسب الروايتين، ولعلها كان في زمنين أو بالتناوب)

في إحدى الركعتين، بالتوحيد بعد الحمد، وفي الركعة الثانية يقرأ الكافرون، وكان يختتم صلى الله عليه وآله وسلم يومه بذلك النمط أيضاً في صلاة المغرب وفي رواية في نافلتي المغرب بعد صلاة المغرب فكان يقرأ بعد الحمد في ركعة (التوحيد)، وفي ركعة أخرى (الكافرون)[٢]، وكما كان صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) الدر المنثور: ج٦، ص٤٠٥.

(٢) بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٨٩ ص ٣٤١ ح٧

عن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرء في المغرب قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد.

وعن ابن مسعود: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرء في الركعتين بعد صلاة المغرب قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد.

وعن ابن عمر قال: رمقت النبي صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين مرة، وفي لفظ شهرا فكان يقرء في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد.

لا ينام آخر الليل كما تحدثنا في الروايات الأخرى، كان لا ينام إلا ويقرأ الكافرون، وهناك روايات أخرى عديدة في هذا الحقل..

إذن النبي ﷺ كان شديد الالتزام قولاً، وفعلاً، جوارح، وجوانح، بهذه السورة الكريمة، وبهذه الآيات القرآنية الكريمة، وكان يُحرّض ويُشدد في التحريض على قراءة هذه السورة المباركة.

وقبل أن ندخل في عنوان البحث (ما هي العلاقة التي يجب أن تحكم الحضارات؟ هل هي علاقة صراع الحضارات، أم تعايش الحضارات والأديان، أم اندماج الحضارات بعضها ببعض، أم علاقة حوار الحضارات، أم علاقة أخرى سنشير لها لاحقاً إن شاء الله، قد تأخذ من بعض هذه شيئاً وتضيف لها أشياء أخرى وترفض أشياء).

مقايضة قريش للرسول ﷺ وسياسة الحل الوسط

قبل ذلك علينا أن نلاحظ شأن النزول في هذه الآيات القرآنية الكريمة، هذا كتاب تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن حيث يذكر في شأن النزول:

إن هذه السورة نزلت في نفر من قريش منهم الحارث بن قيس، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب بن أسد، وأمية بن خلف، أن هؤلاء خاطبوا رسول الله ﷺ

وعن ابن عمر قال: رمقت النبي ﷺ أربعين صباحا في غزوة تبوك فسمعته يقرأ في غزوة تبوك قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويقول: نعم السورتان تعدل واحدة بربع القرآن، والأخرى بثلث القرآن.

وورد أيضاً كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، ويقول: نعم السورتان مما يقرءان في الركعتين قبل الفجر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد.

وطلبوا منه (الحل الوسط) في شؤون العقيدة والشريعة، فنزلت بعدها هذه السورة المباركة، وكانوا من أشراف قريش، وساداتها، قالوا: (هلُمَّ يا محمد فاتبع ديننا نتبع دينك) ـ إنها مقايضة، تنازل فنتنازل، مقايضة يسميها المنبهرون بالغرب: حضارية، إنها مقايضة بين الدينين ـ (هلمّ يا محمد فاتبع ديننا نتبع دينك)، أولاً (ونشركك في أمرنا كله)، ثانياً، والظاهر من هذا المقطع أنه لم يكن التنازل المقترح من قبلهم تنازلاً دينياً وحضارياً فقط، بل كان تنازلاً عن الرياسة أيضاً، نشركك في الرياسة، وتكون أزمَّة أمور في مكة وحواليها أيضاً بيدك، أي نتنازل لك دينياً، ونتنازل لك سياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً، وما أشبه ذلك.. أيُّ إغراءٍ أكبر من ذلك؟ (ونشركك في أمرنا كله تَعْبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة)..

وبعد ذلك فلسفوا ذلك لأن المُبطل، لابد أن يذكر فلسفة وحكمة وعلة لباطله، ولابد أن يستدل على باطله، لكي يخدع الناس (فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كُنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي ما بأيدينا خيراً مما في يديك، كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه).

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (معاذ الله أن أشرك به غيره).

وقوله (معاذ الله) أي أعوذ بالله وأستجير به وألجأ إليه في الثبات أمام إغراءاتكم ذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم يحتاج إلى (العصمة) من الله سبحانه، فإن (عصمته) بالله، ومستمدة منه، وبلطف الله وحكمته وحوله وقوته، وليست العصمة (ذاتية بذاتي باب البرهان) والتي يستحيل عقلاً انفكاكها

عن ذي الذات كالإمكان للممكن، وكزوجية الأربعة مثلاً.

إن كثيراً من الناس الآن، تلاحظون في الغرب أو في الشرق، وعند صراع الحضارات، عند اصطدام حضارة بحضارة أخرى يضعف، ويهن، ويقدِّم بعض التنازلات العقدية أي العقائدية، أو الفكرية، أو الثقافية، أو العملية، فيحتاج إلى أن يعتصم الإنسان بالله سبحانه وتعالى ـ.

الرفض النبوي الصارم

فقال: (معاذ الله) لأن النبيﷺ معصوم بعصمة الله سبحانه وتعالى وحفظه له ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[1] (معاذ الله أن أشرك به غيره).

وعندما رأى سادات قريش هذا الموقف الصلب المبدئي الصارم، قدموا تنازلاً آخر، فقالوا: نحن في البداية طلبنا منك سنة في مقابل سنة الآن نتنازل إن تنازلت، قالوا: (فاستلم بعض آلهتنا نصدقك).. تعال تمسَّح بإحدى الأصنام وكفى ذلك! وقد رفعنا أيدينا عن الشرط الأول وهو عبادة سنة.. أما التمسح بالأصنام فإنه سهل جداً، تهوين وتسهيل للأمر، قالوا: (فاستلم) ولكي نعرف عظمة وصلابة النبيﷺ واستقامته علينا أن نتذكر أنهﷺ من الناحية الظاهرية، كان في موقع ضعف، كان محاصراً من جميع الجهات، لا كما هم عليه الآن في العالم، فإن المسلم عزيز الآن في العالم لكنه مع ذلك تجده ومع أدنى ضغط أو مجموعة ضغوط بسيطة تتوجه له، يستسلم ويقدم تنازلات فكرية، ويقول كما يقول ذلك الإنسان الضال والمنحرف: أن القرآن نزل لزمان خاص ولمكان

(١) (الإسراء :٧٤)

خاص، وأن حقوق المرأة كذا، وأن الديات كذا، وأن كذا، كذا.. يتراجع عن المسلمات الدينية بمجرد توجه نوع من الضغط العالمي لا أكثر، النبي ﷺ كان في أشد الضغط في ذلك الزمن..

قالوا: (فاستلم بعض آلهتنا..نصدقك ونعبد آلهتك)، وما أسهل ذلك.. لاحظوا هذا الشرط البسيط، ظاهرياً والذي ربما لا يتجاوز العمل به ثواني قليلة، كما قالوا لعلي بن أبي طالب (عليه الصلاة وأزكى السلام): (وسيرة الشيخين).. قال: (لا، واجتهاد رأيي)..

النبي ﷺ ـ بعد هذا التنازل الغريب الذي قدموه لم يرد أن يجيبهم بالرد، وإن كان الرد واضحاً لكنه أراد أن تكون الحجة عليهم أتم قال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي.. فنزلت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾..

إنه.. قرار نهائي، حازم وصارم، فعدل رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤوسهم، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة فأيسوا عند ذلك فآذوه..[1]

كان النبي محاصراً، ومُشرَّداً، من الناحية الظاهرية، في موقف ضعف لكنه قوي بإيمانه، وبكلمته، وبموقفه، فآذوه وآذوا أصحابه، ومع ذلك انتصر أي انتصار!!

---

(١) مجمع البيان للشيخ الطبرسي :ج١٠ ص٨٤٠.

ماذا يعني (الكافر)؟

ولكي نعرف أن هذه الآيات الشريفة، كيف تعطينا تصوراً شمولياً عن العلاقة التي ينبغي أن تتحكم بين الحضارات، والأديان لابدَّ أن نتساءلَ عن معنى (الكافرون) أولاً؟ ثم الفلسفة في هذا القرار الصارم العنيف؛ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ إلى آخر السورة المباركة.

(الكافر)؛ هو بمعنى (الساتر)، (السحاب) يسمى كافراً لماذا؟ لأنه يستر القمر، فإذا ستر السحاب القمر سُمي كافراً، ولأنه يستر في الليل النجوم، فالسحاب يسمى كافراً لأنه يستر القمر أو النجوم، وكذلك (الليل) يسمى كافراً لأن الليل يستر الأشخاص، ويستر الأشياء، والحقائق وما أشبه ذلك.. كما أن (المزارع) يُسمى كافراً، و(الزرّاع) يسمّون كفاراً (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ)[1]

(الكفار): يعني الزُرّاع، غيث نزل من السماء فأعجب الكفار ما أنتجه ذلك الغيث، وهو النبات الذي نبت ببركة ذلك الغيث، إذن الكافر في اللغة العربية بمعنى الساتر، كما نقول (كَفَّر خطيئته) أي سترها بحَسَنة أحاطت بها، وسترتها بل بدَّلتها إلى حسنة، و(كفران النعمة) ما هو؟ أي (جَحْدُها، جحودها)، يعني (سترها)، وما أشبه ذلك..

سمي الكافر كافراً لأنه يستر الحقيقة

إذن الكافر سمي كافراً لأنه يستر الحقيقة، وما هي الحقيقة؟هي أن

(١) (الحديد :٢٠)

الله هو الخالق، والكافر ينكر ذلك، وما هي الحقيقة أيضاً؟.. هي أن الله سبحانه وتعالى واحد أحد فرد صمد، لكن الكافر يستر هذه الحقيقة فسمي الكافر كافراً لأنه يستر أشد الحقائق وضوحاً وجلاءً.. ويتكتم عليها..

وكما لو أن أحدهم في وضح النهار، قال: الشمس غير موجودة؛ فهذا (كافر) حقاً، كذلك الذي يُنكر خالقه فهذا هو (الكافر) حقاً، والزارع كافر لأنه يستر البذرة بالتراب، والسحاب يستر القمر لفترة من الزمن؛ ولكن الكافر الحقيقي هو الذي يحاول ستر أجلى الحقائق فينكرها رغم أنه يعرفها ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.[١]

فلسفة الأحكام في القرآن

هذا المطلع قدَّمناه؛ لأنه كان يتضمن الفلسفة في هذا القرار الإلهي الصارم، والسيد الوالد قدس سره كانت له كلمة قَيِّمة جداً، يقول: إننا اكتشفنا بالتتبع في القرآن الكريم؛ أن أي تشريع، أو أي قرار، أو أي حكم، أو حقيقة يذكرها الله سبحانه، فإنه يُعقِّبها، ببيان الفلسفة والحكمة لذلك الحكم..

فلماذا يجب أن نُصلي؟ قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.[٢] إذن هناك تعليل، وسبب وجيه لهذا الحكم،

(١) (النمل:١٤)

(٢) (طه:١٤)

(سبب سابق) لأنه هو الله الذي لا إله إلا هو و(سبب لاحق) وهو (الذكري).

ولماذا يجب أن نصوم؟ قال ربنا سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.[1] فقد ذكر الله تعالى ههنا حكمتين وسببين إذ هنالك سُنَّة إلهية تاريخية في ذلك، وهناك فائدة تقوى الله تعالى أيضاً..

ولماذا يجب علينا أن نحج؟قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾.[2] فهذه حِكَمِ الحج لبيت الله الحرام..

وأنا في ذاك الوقت ـ عندما سمعت هذه الكلمة التي سمعتُها، ربما قبل أكثر من عشرين سنة من الوالد ـ خطر ببالي أنه يقصد من التعليل، (التعليل اللاحق للحكم)، أو (الحقيقة التكوينية)، أو (التشريعية) التي تُذكر، إلا أن بالتأمل في كلامه، وفي القرآن الكريم وجدتُ أن التعليل القرآني قد يكون سابقاً، وقد يكون لاحقاً، وقد يجتمعان كما في الآية الأولى، كما أنه قد يكون مقارناً..

أي أن الله يذكر العلة في التشريع، أو في التكوين، لكن هذه العلة قد تكون في رأس الآية الشريفة، قد تكون في صدر الآية الشريفة، قد

---

(١) (البقرة:١٨٣)

(٢) (الحج :٢٨)

يدل عليها السياق، أو جو الآيات العامة..

لماذا (الخط الفاصل) بين الأديان؟

هنا في سورة الكافرون في صدر الآية إشارة دقيقة لفلسفة القرار، والقرار هو ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾.

والفلسفة المذكورة في الآية الأولى بل في كلمة واحدة منها وهي: أنهم (كافرون) ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يقول تعالى لهم: أنتم كافرون، أنتم سترتم الحقيقة، والذي يستر الحقيقة، وأجلى الحقائق، ويكابر ويعاند، في جبهة، وأنا في جبهة أخرى..و إنني لا أتراجع لأكون مثل ذاك الشخص الجاهل الذي يعرف الحقيقة، لكنه يسترها ويكابر ويتجاهل، مثل من يعرف أن هنا بئراً يمكن أن يقع فيها تصوروا شخصاً مغمِّضاً عينيه عمداً يهرول باتجاه الوادي العميق أو يمشي باتجاه بئر عميقة ليقع فيها، فماذا علي أن أقول له إن هو دعاني للالتحاق به وأصر على ذلك؟

أقول له: امشِ بدربك، وأنا أمشي بدربي..

ولاحظوا الدِّقة القرآنية الجميلة؛ الله سبحانه وتعالى أشار إلى فلسفة كل القرارات الصارمة اللاحقة التي تُحدد مصير البشرية إلى يوم ظهور الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف بتعليل واضح وبسيط، ظاهره ليس تعليلاً، ولكن باطنه تعليل، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ﴾ فإن (وصفه) بالكافر، هو علة اتخاذ هذا القرار، أي لأنك كافر تستر أجلى الحقائق وأوضحها وأكثرها بداهةً فلذا أنت في شق وأنا في شق آخر، إننا في شقاق، نحن في جبهة، نحن جبهة النور، وأنت جبهة الظلام، أنت تريد

أن تمشي في جبهة الظلام امشِ، لكنني لا أستطيع أن أكون معك، ولا أنت تريد أن تكون معي وسوف لا يكون ذلك كذلك أبداً..

العلل الأربع لـ(الخط الفاصل) مع الكفار

فهذا المطلع والتصدير بهذه الصفة، تضَمَّن تعليلاً للقرارات اللاحقة، المذكورة في هذه الآية الشريفة، ونضيف في التوضيح أنه لماذا المعادلة بيننا وبين الأديان الأخرى ينبغي أن تكون بهذه الطريقة؟

وإنه لابد من وجود (مائز) واضح وخط فاصل وموقف علني لا لبس فيه، فلا اندماج، ولا ذوبان، ولا تنازل، وهذا لا ينفي (الحوار) و(التعايش السلمي) في الحدود والأطر التي قررها الشارع.

والإجابة على ذلك ـ وهي توضيح لهذه الإجابة الأولى ـ نذكر الآن منها ثلاثة أو أربعة وفي البحث القادم لعلنا نذكر العلل الأخرى بإذن الله تعالى..

١. معبودي أشرف من معبودك

السبب الأول: هي لأن معبودي أشرف وأفضل من معبودك...

إذ توجد هنالك أربعة أطراف:

أ ـ جبهة المؤمنين

ب ـ ومعبودهم،

ج ـ جبهة الفُسّاق أو الضُلال، أو المنحرفين، أو الكافرين،

د ـ وما عبدوه.. فإذن هناك أربعة أطراف.. فالسبب الأول في ضرورة

وجود (الخط الفاصل) بيننا وبين الكفار، وخطأ تذويب (الحدود) هي: لأن معبودي وهو الله سبحانه وتعالى، العلي المتعال، أشرف بما لا قياس وهذا التعبير من ضيق التعبير- من معبودكم، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[1]

هذا معبودنا، وأما معبودهم فهو الصنم، الذي لا يضر ولا ينفع ولا يسمن ولا يغني من جوع..

إن معبودنا هو الله الذي نجد صفته في آية أخرى، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.[2]

هذا هو معبودنا.

أما معبودكم فهو حفنة من التمر، لا تُسمِن ولا تغني من جوع، كانوا يعبدون التمر، أو الصنم يصنعونه من التمر، فإذا جاعوا أكلوه! هذه هي قيمة إلههم، وكان قسم من الكفار يعبدون الحطب، أو البقر، أو الشيطان أو ما أشبه ذلك..

فالسبب الأول في ذلك هو: لأن معبودي أشرف من معبودكم..

(١) (آل عمران: ٢٧)

(٢) (الحشر: ٢٤)

٢. وأنا المؤمن أشرف من معبودكم

السبب الثاني: لأنني أنا المؤمن أشرف من معبودكم..

قد سبق أنه توجد عندنا أربعة أطراف، فمعبودي أشرف من معبودك أولاً..؛ وأما ثانياً فإنني أنا العابد أشرف من معبودك، ليس فقط معبودي - وهو الله سبحانه وتعالى الغني القادر المتعال- أشرف وأعلى من معبودكم، بل إنني أنا البشر أشرف من معبودك، أصلاً، فهل يقاس الإنسان أشرف المخلوقات بالصنم، أو بالحيوان كالبقر أو بما أشبه ذلك؟ وسوف أذكر لكم جانباً من إعجاز الله سبحانه وتعالى في الإنسان حتى نعرف مَنْ هو أشرف؟ لنعرف أكثر وإلا فالمعرفة موجودة ولله الحمد..

تجلي عظمة الخالق، في المخ: تريليون خلية!

هذا (المخ) في الإنسان، هذا المخ البسيط في ظاهره، لكن العلماء بعد التحقيق توصلوا إلى أن مخ الإنسان يحتوي على كم خلية من الخلايا؟ ليس مليوناً أو ملياراً منها، وإنما يحتوي المخ على (تريليون خلية) أي ألف مليار خلية..

وألف مليار رقم جداً رهيب، وقد أراد بعض العلماء تصوير معنى تريليون في قالب حسي مبسط.. فلاحظ أن هذه الخلايا الصغيرة، المتناهية في الصغر، لو أخرجت من المخ، وصفُّوها وراء بعضها فسوف تصل إلى القمر، وترجع من القمر إلى الأرض!!

هذه السلسلة، التي جمعها الله سبحانه بإعجازه في حجم صغير جداً، في داخل جمجمة الإنسان لو وضعت على شكل سلسلة فإنها تصل

إلى القمر وترجع من القمر رغم أن كل مائة ألف منها يمكن أن تقف على رأس أبرة!! هل انتهت عظمة الله، وتجلي آياته سبحانه وتعالى في مخ الإنسان؟ كلا..

فهذه الـ(تريليون خلية) في مخ الإنسان ليست بسيطة، بل كل خلية تحتوي على الألوف ـفاضرب الألوف في التريليونـ تحتوي على الألوف من (الشعب) أو (المِجسات)، ويشبهونها بالإخطبوط ذي الأرجل المتعددة، فشكلها من هذا القبيل إذن تريليون خلية كل خلية تحتوي على الألوف من الشُعب أو المجسات مثل أرجل الإخطبوط.. كل ذلك مجموع ومتراص ومنظم ومرتب في مخ صغير بحجم كف الإنسان!! وهل إنتهى الإعجاز؟ كلا..

عظمة الله تتجلى في هذا الإنسان بهذا الشكل، ثم هو يعبد الصنم؟! هذا أنا، وذاك معبودك أنت أيها الكافر..

إذن كل خلية تحتوي على الألوف من الشعب، أو المجسات مثل أرجل الإخطبوط، متفرعة ومتشعبة ـ فاضرب الألوف في التريليونـ وبعد ذلك كل شعبة، أو مِجسة تحتوي على الألوفـ فاضرب الآلاف في ألوف في التريليونـ تحتوي على الألوف من (الزوائد العصبية) ولكن تلك (الشعب) كانت هيكلتها بصورة الإخطبوط وهذه (الزوائد العصبية) هيكلتها بصورة فطر، عش الغراب.. مُشكّلة بهذه الطريقة.

إذن: تحتوي كل شعبة، على الألوف من الزوائد العصبية، وهل انتهى الإعجاز عند هذا الحد؟ كلا..

(ولاحظوا أن حديثنا حول الذي اكتشفه العلم، وما لم يكتشفه

أعظم).

ثم إن كل زائدة عصبية من هذه الزوائد التي وصلنا إليها حتى الآن، تحتوي على الألوف من (الحزم) التي تحمل في داخلها مواداً كيماوية، ماذا تفعل هذه المواد الكيماوية بعد هذا التسلسل الرهيب؟ هذه تنقل (الرسائل العصبية) من خلية من خلايا المخ إلى خلية أخرى، هي الرسائل العصبية.. هذه العمليات الرهيبة تجري في هذا المخ البسيط، وبأجزاء من الثانية..

وفي مخ النحلة مليون خلية فقط

هذا هو أنا الإنسان.. ثم أعبد الصنم، أو البقرة، أو النحلة؟!

والعلم الحديث مثلاً أثبت أن النحلة مخها يحتوي على أقل بكثير من مليون خلية فقط، الإنسان إذن يملك في مخه تريليون خلية، أما النحلة فهي تمتلك أقل من مليون خلية بكثير والنسبة بين المليون والتريليون مثل نسبة الطفل الذي يعرف مسألة واحدة فقط، (مثل واحد زائد واحد يساوي اثنين)، وعالم يعرف مليون مسألة فهل من نسبة بينهما؟ أي نسبة الواحد على المليون.

فهل يصح أن تقول لذاك العالم بمليون مسألة، اعبد هذا الذي يعرف مسألة واحدة فقط؟ إذن ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لماذا لا أعبد ما تعبدون؟ لأن؛ معبودي أشرف من معبودك بما لا قياس أولاً، ثم إنني أنا أشرف من معبودك بما لا قياس ثانياً..

٣. (أنا المؤمن) أشرف وأعلم منكم

السبب الثالث: أنا أيضاً أشرف وأعلم منك بما لا قياس..

وهذه هي المعادلة الثالثة إذ كانت لدينا أربعة أطراف

أ ـ نحن جبهة المؤمنين،

ب ـ وأولئك جبهة الملحدين والكافرين،

ج ـ والمعبود لنا

د ـ والمعبود لهم، فمعبودنا أشرف من معبودهم.

ونحن أشرف من معبودهم، ونحن أسمى وأعلى، بما لا قياس منهم أيضاً لماذا؟ لأنه لا يقاس العالم بالحقيقة بل بأجلى الحقائق بالجاهل..

وأنتم تأملوا المثل التالي: تصوروا طفلاً في مدرسة، حصل في الامتحان على درجة صفر مع أنه امتحان عادي، امتحان زمني، امتحان قد ينتهي في أيام وفائدته قد تكون قليلة فهذا الطفل حصل في الامتحان على صفر، وهناك طفل آخر حصل في الامتحان على درجة مئة، فهل من قياس بين هذين؟

لا قياس بين هذين أصلاً.. ومَن قاس بينهما وجعلهما في كفة، فقد ظلم، كما أنه كشف عن جهله او كبره وعناده.. فإذا كان ذلك كذلك في معادلة بسيطة بين طفلين، تتعلق بمسائل بسيطة من حقائق العلم.. فكيف بالحقائق الكونية الكبرى؟ بل أكبر الحقائق؟!

فالمؤمن من يعرف الحقيقة، والكافر ينكرها، ولا قياس بين من يعرف الحقيقة بل سلسلة من أهم الحقائق، وأجلى الحقائق، وأهم

الحقائق؛ وبين من ينكر تلك الحقيقة، أو الحقائق الأخرى فلذلك؛ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، لأن من الجهل، ومن الضلال؛ أن تقول لجبهة النور والإيمان والحقيقة: تنازلي لتلك الجبهة، وهل يصح أن أتنازل وهل يحق لي أن أتنازل؟ هذا مثل ما إذا قال أحدهم لآينشتاين، أو أديسون: اذهب وقلِّد طفلاً في الروضة!!

أو تنازل لمن ينكر حركة الأرض؟ أو الجاذبية؟ أو النظرية النسبية!!

أو تعال ولنضع حلاً وسطاً: فتقول بسكون الأرض يوماً وحركته يوماً آخر!! كما قالوا لرسول الله (نعبد إلهك سنة.. وتعبد آلهتنا سنة)!!

علمني رسول الله ألف ألف باب من العلم

أو ذلك مثل من يساوي بين ذلك الرجل الجاهل بمعنى ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾[(١)] أو ﴿وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا﴾.[(٢)]

ونظائره وبين أمير المؤمنين ومولى الموحدين (عليه صلوات المصلين)، الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا مدينة العلم ـ والعلم مطلق يشمل كل العلوم كما تعلمون ـ وعلي بابها فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها..[(٣)] ويقول أمير المؤمنين (عليه الصلاة وأزكى السلام):

---

(١) الذاريات: ٧.

(٢) (تفسير الثعلبي انه سئل أبو بكر عن قوله تعالى: ﴿وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أي سماء تظلني أو أية أرض تقلني أم أين اذهب أم كيف اصنع إذا قلت في كتاب الله بما لم أعلم أما الفاكهة فأعرفها وأما الأب فالله اعلم. وفي روايات أهل البيت عليهم السلام انه بلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فقال: إن الأب هو الكلأ والمرعى وان قوله ﴿وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ اعتداد من الله على خلقه فيما غذاهم به وخلقه لهم ولأنعامهم مما يحيى به أنفسهم). عن مناقب آل أبي طالب ابن شهر آشوب: ج٢، ص١٨٠.

(٣) الإرشاد للشيخ المفيد: ج١، ص٣٣، والرواية متواترة بين علماء الأمة قاطبة..

علمني رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب؛[١] وفي رواية: يفتح لي من كل باب ألف، ألف باب..[٢]

وماذا يعني ألف باب من العلم؟ إنه يعني أن (علم الأصول) مثلاً باب من العلم، و(علم النحو) باب من العلم، و(علم الفلك) باب آخر من العلم، وعلم (الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد وعلم الجيولوجيا) وغيرها كل منها باب من العلم، وذلك لأن (من) هنا (بيانية) فـ(ألف باب من العلم) أي (ألف باب هو العلم) أي ألف باب كل باب هو العلم، ولا يخل بالمعنى لو كانت (من) (نشوية) فإنها باب مشرعة للعلم، بل حتى لو كانت (من) (تبعيضية) لأن (من) تبعيض لـ(العلم) أي للجنس، لا للنوع وهو الطب أو الفيزياء مثلاً، فالتبعيض بلحاظ النسبة لعلم الله تعالى لا بلحاظ النسبة لعلم الطب أو الفقه مثلاً فليتأمل جيداً فإنه دقيق وبالتدبر حثيث (أنا مدينة العلم وعلي بابها) و(علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف، ألف باب).. أي مليون باب.

أين هذا العظيم؟ أين الثريا وأين الثرى من ذلك الرجل الذي، يقول: كل الناس أعلم أو أفقه منه، حتى ربات الحجال.. النساء أعلم منه هو يصرح بذلك وليس كلامنا، نحن ننقل كلامه: كل الناس أعلم من عمر حتى المخدرات في الحجال..[٣] هذا ليس كلامنا هو يقول، ويقول: لولا

---

(١) الاحتجاج للشيخ الطبرسي: ج١، ص٢٢٣.. وكثيرة هي المصادر لهذا القول الشريف للأمير عليه السلام..

(٢) الكافي للشيخ الكليني: ج١، ص٢٩٧.. ففيه تفصيل جميل للرواية..

(٣) رواه البيهقي في سننه: ج٧، ص٢٣٣، والهيثمي في مجمعه: ج٤، ص٢٨٣. خلاصة عبقات

علي لهلك عمر.[1]

أنى ساووك بمن ناووك

وهل ساووا نعلي قنبر!!

أنت تقول لأينشتاين وأمثاله: تعالَ واجعل طفلاً في الروضة هو المعلم لك والموجه، وهو المهندس والمخطط، وهو الحاكم عليك، وهو الرئيس المهيمن عليك، ويكون هو الذي بيده الأمر، والفصل، والنهي.. هذا الكلام غير معقول، إلا من الإنسان الظلوم الجهول..

وبذلك يظهر أن قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، واضح وعلى مقتضى الأصل والقاعدة، وهو المطابق للحكمة، وهو عين الصواب والحقيقة؛ إذ لا يمكن أن تقول للعالم (بقول مطلق): تعال اتبع (الجاهل بقول مطلق)، لا يُعقل ذلك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾..

وههنا لفتة بديعة وهي أن سورة (الكافرون) تتضمن التنبؤ بالمستقبل إن صحَّ هذا التعبير؛ أي الكشف عن المستقبل وهذه الآيات من الآيات، ومن الدلائل على إعجاز النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإعجاز القرآن، لأن هؤلاء الذين ذكرنا أسماءهم أول البحث كلهم ماتوا كافرين، فالنبي يتحدث عن المستقبل أيضاً، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كما تحدث عن الحال، تحدث عن المستقبل.

الأنوار للنقوي: ج٣، ص١٨٤، وفيه كل أقوال الرجل في الباب..

(١) ينابيع المودة للقندوزي: ج١، ص٢١٦، وسائل الشيعة للحر العاملي: ج٢٨، ص١١٢، وهذا القول صار من الأمثال السائرة..

فلسفة التكرار في سورة (الكافرون)

وهذا مما يُذكر في فلسفة التكرار أيضاً، لماذا الآية تكررت، أي لماذا الله سبحانه وتعالى كرر ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ مرتين حرفياً وكرر ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ بعبارة مشابهة ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾.

الجواب: أولاً: إن التكرار له فوائد ولذا يعد التكرار أحياناً ضرورياً، فإنه تأكيد للمعنى، وتكريس للمفهوم، وتثبيت للأمر كله.

ثانياً: إن كلاً من الآيتين المتكررتين تشير إلى جانب من الجوانب ف﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي في المستقبل لأن ﴿لَآ﴾ إذا دخلت على الفعل المضارع في اللغة العربية، أفادت نفي المستقبل ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ﴾ أي في المستقبل ﴿تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾..

إذن الآيتان الأوليان الحديث فيهما عن المستقبل، والحديث في الآيتين الأخيرتين هو حديث عن الحال.. ولا أنا ﴿عَابِدٌ﴾ بالفعل ما ﴿عَبَدتُّمْ﴾، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ﴾ أي بالفعل ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾.

إذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يريد أن يُفيد: أنه لا الآن، ولا في المستقبل، لن يلتقيَ جيش النور مع جيش الظلام إطلاقاً، ولن يتفقا ولن تذوب الفوارق وستبقى الجبهتان، في البشرية قائمتين حتى ظهور الإمام المهدي القائم من آل محمد عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وهذا إعلام غيبي وكَشف مستقبلي، وأحد مصاديقه قد حدث وتحقق؛ وهو أولئك المخاطبين بالسورة حيث ماتوا مشركين، ولم يؤمن أحد منهم بالله سبحانه وتعالى طرفة عين.

وما ذكرناه هو أحد الوجوه في معنى الآيات وهنالك احتمالات أخرى وهناك تتمة لهذه الفلسفة قد نتطرق لها في البحث القادم بإذن الله تعالى..

ولنرجع إلى صدر المبحث حيث ذكرنا عللاً ثلاثة لفلسفة ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، وهي

أ- لأن معبودنا أشرف من معبودهم،

ب- ولأننا أشرف من معبودهم،

ج- ولأننا أشرف منهم، وأفضل، وأشد فهماً، ومعرفة.. وأما السبب الرابع:

٤. المدخلات الصحيحة تنتهي إلى مخرجات صحيحة

السبب الرابع: لأن المدخلات الصحيحة تنتهي إلى مخرجات صحيحة..

والمدخلات الخاطئة تنتهي إلى مخرجات خاطئة، في بحث يذكره علماء الإدارة في علم الإدارة بالتفصيل، وفي علم الاقتصاد أيضاً، ونضيف أن هذه القاعدة جارية في شؤون العقيدة أيضاً بل هي قاعدة سيالة في كل مناحي الحياة وفي كافة العلوم ولعلنا نوفق لتفصيل ذلك في بحث قادم بإذن الله تعالى..

هل يراد بـ(الكافرون) الجميع أم المجموع؟

لاحظوا؛ (قل يا أيها الكافرون)، كلمة (الكافرون) هل يُراد بها (الجميع)، أم يُراد بها (المجموع)؟ ما هو المراد بالكافرين؟ إذ يوجد

احتمالان في صيغة الجمع..

الاحتمال الأول: أن يكون الحكم قد رُتّب على المجموع، والهيئة الاجتماعية..

الاحتمال الثاني: أن يكون الحكم قد رُتب على الجميع، وعلى الآحاد وكل فرد، فرد..

مثلاً إذا قلت: (يهزم الجيشُ العدو)، فإن (الحكم) وهو (يهزم) رُتب على (الهيئة الاجتماعية) أي على المجموعة بما هي مجتمعة لا على الآحاد، إذ أن كل واحد، واحد من أفراد الجيش بمفرده لا يستطيع أن يهزم العدو، وإنما الذي يهزم العدو هو (المجموع بما هو مجموع) أما الآحاد بما هم آحاد فلا يستطيعون أن يهزموا الطرف الآخر، ففي (يهزم الجيش العدوَ)، المجموع هو المراد، أي يهزمه بما له من هيئة مجموعية.

لكن أحياناً وأغلب الأحيان هي من هذا القبيل يقصد بصيغة الجمع (الجميع)؛ أي كل واحد، واحد يكون هو المراد.. فعندما تقول: المؤمنون يلتزمون بأوامر الله سبحانه وتعالى، ماذا يعني؟

إنه يعني أن كل واحد، واحد منهم يلتزم بأوامر الله، ولا يعني أنهم بشرط الاجتماع وبالهيئة الاجتماعية، يلتزمون بالأوامر بحيث لو أنفرد كل منهم، لعصى الله، والآية الشريفة، تقول: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.[١]

يريد الله سبحانه وتعالى بهذا الجمع ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ (الجميع)، لا (المجموع) فقط، وإن تضمن المجموعة أيضاً، يعني كل واحد، واحد من المؤمنين هذه صفته، أنه ولي للبعض الآخر أي له نوع ولاية عليه وهي في حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما أشبه ذلك، وقد أشار الفقهاء إلى ذلك في مبحث (ولاية عدول المؤمنين) ولعل (الولي) بهذا المعنى هو منصرف الآية الكريمة وإن احتمل شمول (أولياء) لكل المعاني التي ذكرت للولي من: محب، وناصر، ومعين وإلى آخر معاني الولي مما يمكن أن ينطبق في المقام فتأمل[٢] وكل واحد، واحد منهم (يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر) لا أن الهيئة الاجتماعية فقط هو المطلوب منها ذلك، أو أنها هي التي تقوم بذلك..

وفي هذه الآية الشريفة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ قد يتساءل ما الذي يُراد بـ﴿الْكَافِرُونَ﴾؟ هل الجميع، أو المجموع؟

الظاهر كما هو الأصل، أن المراد (الجميع) لا (المجموع)، يعني أن الضمير يرجع لكل كافر، كافر في ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، والخطاب هو لجميعهم.. كما أن ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يراد به الآحاد بكلها لا مجموعها، أي (أي شيءٍ عَبَدَهُ) ولو واحد منهم.. ثم إنَّ الفلسفة التي ذكرناها لهذا الموقف الحاسم الصارم أيضاً تدل على ذلك.

(١) (التوبة:٧١)

(٢) إذ قد يقال (الولي) ليس مشتركاً لفظياً بين هذه المعاني بل هو حقيقة في المعنى الأول أي (ذو الولاية) على درجاتها ومجاز في غيره فراجع (الغدير) وغيره.

لا للتنازل.. سواء على حساب العقيدة أم الشريعة أم البلاد

فماذا نستفيد من ذلك؟ لو أسسنا ذلك الأصل[1]، نقول:

الخطاب في ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والموصول ومرجع الضمير في ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ هو لكل كافر، كافر لا للمجموع من حيث المجموع، كالجيش من هنا يمكن أن نستفيد: أن الإنسان كثيراً ما يمالئ كافراً معيناً على حساب العقيدة أو الشريعة أو البلد، وذلك لمصلحة ما، أو لضغط ما وهذا أيضاً مرفوض، كما أن مداهنة جمع الكفار، وجماعتهم بما هم جمع وجماعة أيضاً، مرفوض ذلك أن الإنسان في تعامله مع الكثير من الكفرة، مع الكثير من الضالين، والمنحرفين قد يكون ذا موقف صلب قوي إلا أنه يضعف، أو ينكل عندما يواجه أو يصطدم أو يضطر للتعامل مع كافر معين أعلى سلطة منه، قد يكون من الناحية السياسية أعلى، كأن يكون مهيمناً على البلد، أو محتلاً له، فأنت تقدم له تنازلات؟! ليس لك حق بذلك.. ومن الطبيعي أن التنازلات تضر بمصلحة البلد، وتخدم المستعمرين عادة، وإن ألبسها المتنازِل ثوباً جميلاً براقاً، وأختلق لها ألف عذر ودليل وشاهد.

وهكذا نجد أن الخطاب خطاب عام، والأمر عام، أو الحكم عام، وطرف الخطاب المعني كل كافر، كافر سواءً أكان حاكماً، أم كان مستعمراً، أم كان غير ذلك..

مثال آخر: البعض عندما، يُحسن له الكافر المعين من دولة معينة،

---

(١) وهو أن الخطاب للجميع وليس للمجموع وأن (الموصول) وهو «ما» في (لا أعبد ما تعبدون) أي للجميع لا للمجموع.

سواءً أكان لاجئاً أم غير لاجئ، من السلك الحكومي أم غيره يضعف، ويقول: هذا احترمني، أكرمني، قدرني.. إذن أقدم له تنازلات مبدئية، في شؤون العقيدة أو الشريعة.. وقد تكون ثبوتية وقد تكون إثباتية؛ لا يحق لك ذلك على الإطلاق..

إذ كيف ينتقل مَن هو في جبهة النور، إلى جبهة الظلام؟ لا يصح ذلك..

كيف يتنازل مَنْ هو الأشرف بلحاظ عقيدته وشريعته من جميع الجهات، لمن هو في رتبة أدنى بما لا قياس؟ ليس من الصحيح ذلك على الإطلاق..

هنالك تتمة للحديث بالنسبة إلى هذه السورة المباركة وإضافات من بعض الجوانب الأخرى مثل: أنه هل ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ المراد بهم ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ عقدياً[1] وفي شؤون أصول الدين، كما هو ظاهره؟ أو يشمل حتى (الظالمين)؟ وما أشبه ذلك من البحوث قد نتطرق لها لاحقاً إذا شاء الله تعالى).

من بركات الالتزام بـ(ذات القلاقل)

ولنختم بحثنا برواية رائعة ككل الروايات فلقد كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحد المعمرين وكان كبير السن جداً، يقول: بأن أباه كان لا يبقى له وليد، بل كلما ولد له وليد، مات ولو بعد حين، وهكذا دواليك.. يقول: عندما ولدت خاف أبي عليَّ، ولكنه مات قبلي، فاصطحبني عمي

(١) أي عقائدياً.

إلى رسول الله ﷺ، وشرح له ﷺ، المشكلة، وإنني الوحيد الباقي من ذرية أبي، وسأل الرسول ﷺ: فماذا أصنع؟ عوِّذني بعوذة يا رسول الله ﷺ، فقال: رسول الله ﷺ: أين أنت من ذات القلاقل..

يعني السور التي تبدأ بـ﴿قُلْ﴾، وهي ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.. يقول الراوي: التزمت بهذه القلاقل الأربعة وإذا بالله سبحانه وتعالى يتلطف عليّ، فلم يدركني الموت في سنين الطفولة، بل على العكس من ذلك طال عمري حتى عددت من المعمرين ثم إنني لم أصب لا بمال، ولا بولد، ولا بفقر، ولا بمرض طوال هذه السنين المتطاولة.[1]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين..

(١) بحار الأنوار للشيخ المجلسي :ج٥١، ص٢٦٠.

[١٠]

فلسفة (الثواب العظيم) لقراءة (السور القرآنية) وبحث عن قاعدة الإلزام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.[1]

---

(١) (الكافرون:٦)

هذه الآيات القرآنية الكريمة ترسم الإطار العريض للعلاقة التي ينبغي أن تكون بين الحضارات، والأديان المختلفة، والتي يجب أن تكون هي الحاكمة وهي الفيصل، فإننا على ضوء سورة (الجحد) أو (الكافرون) وبُهداها نستهدي، لكي نعرف أن العلاقة هل هي علاقة اندماج، أو الذوبان، أو التعايش، أو الصراع، أو الحوار أو غير ذلك من أنماط العلاقات، أو العلائق التي يمكن أن تحكم، وتتحكم في المعادلة بين الأمم، والشعوب، والحضارات، والأديان المختلفة.

الأجر العظيم لقراءة سورة (الكافرون)

ولكن قبل أن ندخل في صميم المبحث من المحبذ أن نقرأ معاً رواية تتحدث عن فضل قراءة سورة الكافرون، لنتعرف على جانب من أهمية الإطار والحدود التي ترسمها هذه الآيات القرآنية الكريمة..

وهذه الرواية كبعض الروايات الأخرى قد تبدو غريبة في بادئ النظر لكنها لدى التحليل العلمي الدقيق تبدو بيِّنةً، واضحةً، جليةً، وضوح الشمس في رابعة النهار، وقد ذكرت في كتاب (بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار) للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (رضوان الله تعالى عليه) المجلد (التاسع والثمانين) يقول الإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام): (**من قرأ قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد في فريضة من الفرائض غفر الله له ولوالديه وما ولدا..**).[1]

---

(١) البحار للشيخ المجلسي: ج٨٢، ص٤٠.

لكن هل يعقل هذا الأجر؟

فالأجر أجر عظيم، بقدر ما يكون عند البعض غريباً، إذ كيف يغفر الله له، ولوالديه، ولما ولدا، وقد قرأ هاتين السورتين مرة واحدة في فريضة من الفرائض، ثم لاحظوا تمام الرواية؟

(غفر الله له ولوالديه وما ولدا، وإن كان شقياً محي من ديوان الأشقياء، وأثبت في ديوان السعداء، وأحياه الله سعيداً وأماته شهيدا وبعثه شهيداً)..

الرواية ينقلها العلامة المجلسي عن ثواب الأعمال، هذه الرواية بهذا الأجر العظيم تكشف من جهة عن الأهمية الإستراتيجية أو المفتاحية لهذه السورة، كما كانت سورة التوحيد، لكنها من جهة ثانية تبدو غريبة إذ كيف يمكن أن يكون هنالك هذا الأجر العظيم المذهل دنيوياً وأخروياً على قراءة هاتين السورتين في فريضة واحدة، مرة واحدة؟

الرواية في غنى عن البحث السندي

وهذا التساؤل ليس خاصاً بهذه الرواية الشريفة، وإنما هناك المئات وربما الألوف من الروايات المشابهة في مواطن عديدة، سواءً فيما يتعلق بفضائل ونتائج وثواب، قراءة سورة من سور القرآن الكريم، أم ما يذكر في الروايات من الأجر الكبير على أعمال كثيرة أخرى.

وهذه الروايات الشريفة، لا مجال للتأمل أو المناقشة في سندها، لأن قسماً منها صحاح، وبعضها الآخر موثقات، ورغم وجود الضعاف فيها

أيضاً إلا أننا في غنى عن البحث السَّنَدي عنها لأنها بالمئات أو الألوف، فهي متواترة (تواتراً إجمالياً) إن لم تكن (متواترة بالمضمون)[1]... وقد وردت ليس في موطن واحد بل في الكثير من المواطن، فهناك المئات أو الألوف من الروايات التي تتحدث عن أجر عظيم كهذا الأجر أو أكثر أو أقل.

لذلك كان لابد في سَبْر أغوار هذا الموضوع، من تحليل علمي، ولا يمكن أن تُرفض هذه الروايات؛ بذريعة سندها، وأن هذه الرواية هل سندها تام أو غير تام؟ إذ لو لم تكن هذه الرواية أو شبهها، تامَّة من حيث السند، إلا أنها قطعية من حيث (الإجمال)، وأن هذا المضمون في الجملة قطعي، لكثرة الروايات والأحاديث التي تدل على مثل هذا الأجر والمقام، فما هي الإجابة على هذا السؤال؟

السر هو أن حدثاً أو كلمة قد تغير عالم التكوين أو التشريع

نقول في الإجابة على التساؤل عن سر وفلسفة الأجر العظيم على بعض الأعمال والأفعال، وبإيجاز لأن هذا البحث يحتاج إلى موطن آخر أكثر تفصيلاً لكننا نشير هنا بعض الإشارات عسى أن يوفقنا الله في المستقبل للحديث بإسهاب أكثر للإجابة عن هذا التساؤل، فنقول:

إن الله سبحانه وتعالى البارئ الخالق جل اسمه، بنى عالم التكوين، كما بنى عالم التشريع، وكما بنى عالم المجتمع البشري، بنى العالمين

(١) الفرق بين (التواتر الإجمالي) و(التواتر بالمضمون) إن الأول يراد به القطع بصدور إحدى الروايات المتعددة الواردة حول أمر ما، والثاني يراد به القطع بالمضمون والجوهر رغم اختلاف الروايات بالتفاصيل.

الأولين وكذلك، العالم الثالث، وهو متوزِّع بين العالمين على هذه المعادلة: أن كلمة واحدة، أو موقفاً واحداً، أو حدثاً واحداً، قد يُغيِّر كل شيء..

الحياة قد بُنيت على هذه المعادلة في كثير من أبعادها، سواء أفي عالم التكوين، أم في عالم التشريع، أم في عالم (المجتمع البشري) في علاقاته المتبادلة؛ فإن كلمة واحدة قد تغيِّر معادلة أمَّة بأكملها، وأيضاً الأجر الإلهي كذلك.. ولنضرب لكم بعض الأمثلة على عجل واختصار وإيجاز[١]...

أمثلة وشواهد

أ. الصلاة على النبي و آله عليهم السلام

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من صلى عليّ مرة لم تبق من ذنوبه ذرة..[٢]

فهي (صلاة واحدة) لكنها تغسل وتطهر وتمحو ذنوباً قد تكون امتدت لعشرات من السنين مما لله عليه من الحقوق.[٣]

ب. كلمة التوحيد

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾.[٤]

وهي كلمة واحدة، لكن الله لا يغفرها وسوف يُخلِّد في النار من عقد

(١) وقد تحدثنا عن هذا المضمون بالتفصيل في كتاب (شعاع من نور فاطمة) فليراجع.
(٢) البحار للشيخ المجلسي: ج٩١، ص٦٣، وفيه روايات كثيرة جداً في الباب..
(٣) إذ حقوق الإنسان لابد من تسديدها وأداءها كشرط للمغفرة.
(٤) (النساء :٤٨)

قلبه على الشرك ولم يتب؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ فالمستقبل كله يبتنى على كلمة واحدة فقط هي: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا..[1]

وهكذا في عالم المجتمع البشري، فإن المجتمعات البشرية أيضاً تمشي على هذه المعادلة، فإن كلمة أو موقفاً، أو حدثاً، قد يُغيِّر كل شيء، ويشهد لذلك المثال التالي وهو الشاهد الثالث:

ج. (القسم)

إذ نجد الآن وفي كثير من الدول، عندما يريدون أن يُجنِّسوا شخصاً بعد أن استوفى الشروط فإن مستقبله كله يتوقف على (القَسَم)؛ بأن يأتي ويُقسِم، ولو كان كاذباً في قسمه، غير ملتزم، وغير عاقد القلب على ذلك، فإنه إذا جاء وأقسم تحت علمهم فإنه يجنس، وتجري عليه الألوف من أحكام بلدهم.. وهذه كلمة واحدة لا أكثر في (المجتمع البشري) لكنها تقلب معادلات كثيرة..

وبناء العقلاء أيضاً على ذلك؛ على أن كلمة واحدة، أو موقفاً واحداً، أو حدثاً واحداً، قد يغير المستقبل بأكمله.

د. جرعة الدواء:

وفي عالم التكوين نجد مثلاً شخصاً مريضاً بمرض عُضال استمر به سنين وقد يطول به سنين أخرى، هذا الإنسان يعقَّم ويُعطى مضاداً حيوياً (أنتي بيوتيك) جرعة واحدة، أو مجموعة جُرعات، فهذه الجرعة الواحدة

---

(١) البحار: ج١٨، ص٢٠٢.. وهي قول الحبيب المصطفى ﷺ لقومه في بداية الدعوة المباركة..

على حسب نوع المرض وقوة الجُرعة من المضاد الحيوي تقضي على مرض عمره عشر سنوات، وقد يستمر ثلاثين، أو أربعين سنة أخرى..

هـ. التعقيم

كذلك لو أن أحدهم عَقَّمَ منزله فإن تعقيمه لمنزله لا ينعكس عليه بالإيجاب فقط بل على كل مَنْ يعيش في المنزل وبذلك يظهر أحد الوجوه في (غفر الله له ولوالديه وما ولدا) إذ أن الإنسان إذا عقم المنزل، أو عُقمت المدينة، فإن تأثيرات التعقيم الإيجابية لا تنحصر به وحده، أو في الاتجاه الآخر فإن (تلويث الأجواء وتسميمها بمواد كيماوية أو جرثومية أو غيرها) لا تتحدد أضراره ولا تنحصر في القائمين بتلك الجريمة فقط، وإنما يتضرر الآخرون أيضاً المحيطون بالمجرمين أفقياً أو عمودياً..

و. السباب وعلاقات الدول

ومثال آخر: فإن كلمة مَسَبَّة واحدة قد تسبب توتراً في العلاقة بين الدول، تصوروا رئيساً يسبُّ رئيساً آخر، فتتوتر العلاقات، وتضطرب الأمور، وتجد أن عشرات الملايين من الناس، ستوضع عليهم حدود وقيود للسفر والحضر والتجارة وغير ذلك، سواء كانت تلك الكلمة بحق أم كانت بباطل.. فالكون قد بني في عالميه التشريعي، والتكويني على ذلك، وعلى ذلك بناء العقلاء أيضاً.. أي على أن كلمة واحدة، أو حدثاً واحداً، أو موقفاً واحداً قد يُغيِّر معادلة بأكملها.. وبذلك يحكم العقل أيضاً.

ز. وكذلك سورة الكافرون والتوحيد

وبعد معرفة ذلك كله، لا مجال للاستغراب من هذه الرواية الشريفة، إذ اتضح أن عالم التشريع، على ذلك بُنيَ، وعالم التكوين أيضاً على ذلك بُنيَ، والمجتمعات البشرية بُنيت على ذلك أيضاً؛ نعم (غفر الله له ولوالديه وما ولدا، وكُتب في ديوان السعداء، ومُحي من ديوان الأشقياء، وعاش سعيداً، ومات شهيداً، وبعث شهيداً) أيضاً فما وجه الغرابة في ذلك؟

ح. الاستغفار

ويشهد لذلك أيضاً أن: كلمة استغفار واحدة إذا كانت عن ندم حقيقي فإنها تمحو الذنوب كلها، هذا مما لا شك فيه، وذلك لطف من الله سبحانه وتعالى أن جعل مثل هذا الأجر، ومثل هذه المثوبة العظيمة، والأثر الكبير على (كلمة واحدة) فقط كـ(أستغفر الله) أو (اللهم صل على محمد وآل محمد) أو على مثل قراءة سورة الكافرون في الفريضة أو على (موقف واحد) ضد حاكم جائر مثلاً أو دفاعاً عن مظلوم، أو على (صفة نفسية واحدة فقط) كـ(حب علي عليه السلام) إذ (حب علي حسنة لا تضر معها سيئة)[1] فلماذا نستغرب ذلك؟

ط حب علي عليه السلام وماء البحر

السيد الوالد (رضوان الله تعالى عليه) كان يمثل بـ(ماء البحر)، فإن الإنسان إذا كانت على بدنه أدران ونجاسة وقاذورات فإنه إذا ارتمس في ماء البحر فإنه يطهر فوراً، و(حب علي) أقوى من أيٍّ مُطهِّر ومُعقِّم في

(١) ينابيع المودة للقندوزي الشافعي :ج١ ص٣٧٥..

الكرة الأرضية.. أين الإشكال؟ فكما يوجد هناك معقم للجسد، يوجد أيضاً معقم للروح، وكما أن الله تعالى قرر ذلك، يقرر هذا أيضاً (**حب علي حسنة لا تضر معها سيئة**) وقبل ذلك (**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**)..

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ تأملوا الترابط بين (الكلمة) أو بين حالة نفسية وهي الندم، وبين (التكوين) ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ إنها كلمة واحدة، استغفار واحد، لكن لها تأثيراً وضعياً تكوينياً على السماء والسحاب والأمطار وعلى الأرض والحرث والنسل ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.[1]

إذن قراءة السورة المباركة (سورة الكافرون) في فريضة من الفرائض، مشفوعة بـ(التوحيد) في الركعة الأخرى، إنما هو على طبق القاعدة التكوينية والكونية الربانية، أن يكون هذا الأثر والأجر والمنافع العظيمة..

هذه الكلمات مفتاحية فلها لوازمها وشروطها

لكن يبقى أن هذه الكلمات وهذه السور الكريمات وأمثالها (مفتاحية)، أي أن لها لوازمها فعندما تقول: نسمع الوعد الإلهي بـ(قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، نعم؛ (الاقتضاء) للفلاح موجود، ويقول الإمام الرضا عليه السلام في الرواية المشهورة: عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في هذه الرواية التي هي من مصاديق سلسلة الذهب: (**كلمة لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي ولكن بشرطها وشروطها وأنا من**

---

(١) (نوح :١٢)

شروطها)..[1]

فهذه الكلمات مفتاحية وهي مقتضة وليست علة تامة.

ونعود للمثال في المجتمع البشري؛ فإن (القَسَم تحت العَلَم) من الصحيح أنه يُغيِّر المعادلة بأكملها فيصبح الأجنبي في المنطق العصري مواطناً وإن كان لا يوجد في الإسلام مفهوم «الأجنبي والمواطن» بهذا المعنى وإنما الخلق كلهم عيال الله، هؤلاء خلق الله، وهذه أرض الله، فمن عاش في أي مكان فهو ضيف لله سبحانه وتعالى، وله أن يقيم ويزرع ويبني ويتملك كما يشاء ولكن حسب المعادلات الظاهرية عندما يقسم فيتجنس، فهذه كلمة مفتاحية إذن، ولكن بعد ذلك عليه أن يلتزم بقوانين البلد، وإلا استحق العقوبة، وربما في مراحل الحرمان من الجنسية أيضاً، إذن (الكلمة) أخرجته من عالم الغُربة والأجنبية، إلى عالم المواطنة، بنحو العلة المحدثة، ولكن توجد هنالك علل مبقية أيضاً وشروط أما للأصل استمراراً أو لامتلاك كامل الحقوق والأمن من العقوبة.

وفي مبحثنا فإن هذا الأثر الهائل المفتاحي بين العالمين أحدثته الكلمة: قولوا لا إله إلا الله، فهذه الكلمة يخرج الإنسان من دائرة الظلام إلى دائرة النور ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[2] لكن بعد ذلك عندما يدخل في هذا العالم، فإن عليه أن يعرف إن هذا العالم له قوانينه، له أسبابه وله

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق :ج١ ص١٤٥ .والقصة معروفة وأشهر من نور على علم..

(٢) (البقرة:٢٥٦)

مسبباته، وله علله ونتائجه، وآثاره السلبية[١] والإيجابية أيضاً.

فإذن هذه الكلمات تبقى مفتاحية، وتبقى لها شروطها أيضاً، والإنسان الذي يقرأ؛ (قل هو الله أحد)، وسورة (قل يا أيها الكافرون)، في فريضة من الفرائض (فيغفر الله سبحانه وتعالى له ولوالديه وما ولدا ويمحو اسمه من ديوان الأشقياء ويثبته في ديوان السعداء)، يدخل هذه الدائرة لكن بشرط أن لا يبطلها و(يحبطها) بعد دقيقتين، وذلك كمن يستعمل (مضاداً حيوياً) فإنه يُشفى لكن بشرط أن لا يشرب السُّم بعد ذلك..

ومن الشروط (عقد القلب)

وقد ظهر لنا حتى الآن حال الماضي، وإنه يغفر له ما سلف من ذنبه ويغفر لوالديه وما ولدا، أما المستقبل: فعليه أن يراقب تصرفاته وحركاته، وسكناته وأفعاله وأقواله، إضافة إلى أنه ينبغي أن يكون كل ذلك عن (عقد القلب) والتزام، وإلا فإن الاستغفار مثلاً يكون عندئذٍ (لقلقة لسان) فقط فلو كان الإنسان غير نادم على ذنب ارتكبه، لكنه رغم ذلك يقول: (استغفر الله) ولعله يكررها من غير ندامة ولا عقد عزم على عدم العودة، فإنه كالمُستهزئ، وما حكم المستهزئ؟ إنه سيجازى و(سيصفع) على هذا الاستهزاء أيضاً، لأن الله مُطلع على النوايا، وعلى القلوب والاستهزاء وما هو بحكمه له أثر وضعي وآثار دنيوية تكوينية عديدة.

والحاصل: إن هذه الآثار المذكورة في هذه الرواية الشريفة لقراءة

---

(١) أي فيما لو عصى وطغى وخالف فإنه يعاقب.

سورة (قل هو الله أحد) و(الكافرون) وهي موطن الشاهد في الحديث وهذه الرواية على الأصل وعلى القاعدة: تُخرج الإنسان من عالم، وتُدخله في عالم آخر، وهذا هو (المفتاح) وهذا هو (التحول الاستراتيجي).

ومن الشروط: (الالتزام والعمل)

نعم.. قراءة السورتين، مفتاح وبلسم وسبب مغفرة وسعادة..

ولكن يبقى (بشرطها وشروطها) أي بشرط أن يلتزم بما تُحمِّله هذه الكلمات من مواقف وبما تَحمِله من آثار؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.[1] لماذا الإشفاق منها؟ لأن لها لوازم وتترتب عليها مسؤوليات وواجبات، ويدل عليه قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ إذ الظلم لأنه لم يلتزم بلوازم الأمانة من (توحيد) و(نبوة) و(إمامة).

وقد ظهر حتى الآن أن قولك: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله.. كلمات خفيفة على اللسان لكنها ثقيلة في الميزان وصعبة من حيث الالتزام بما تقتضيه وتتطلبه إذ إن هذه الكلمات الثلاثة تتبعها، وتنجم عنها، وتترتب عليها لوازم وآثار تلف حياة الإنسان بأكملها.

قاعدة (الإلزام) تستنبط من (لكم دينكم)

ونأتي إلى هذه الآيات القرآنية الكريمة ـ والحديث عنها طويل ـ ولكن نكتفي ببعض الحديث حول آخر آية في هذه السورة، لأنها ترسم

---

(١) (الأحزاب:٧٢)

الإطار العريض العام للعلاقة بين الأديان وبين الحضارات فإن ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ المقطع الأول من هذه الآية الشريفة، ربما يستظهر أنه يشير إلى القاعدة المعروفة في الفقه المسماة بـ(قاعدة الإلزام)، التي يستند الفقهاء فيها عادة إلى حديث: ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم..[1]

لكن قبل هذه الرواية ومعها فإن هذه الآية القرآنية الشريفة، تصلح أيضاً كما قد يستظهر دليلاً على قاعدة الإلزام فإن هذه الآية الشريفة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، وإن كان من الممكن أن يُقال: أن المراد بها هو الجانب التكويني، أي الجانب الذي يتعلق بما ستكون عليه الحالة الخارجية لهاتين الطائفتين، أي إنه يمكن أن يقال: بأن هذه الآية إنما هي في مقام كشف المستقبل، بأن المستقبل هكذا سيكون كما كان على مر التاريخ أي سيكون هناك دين الإسلام، وستكون هناك أديان أخرى فـ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي الأمر كذلك إلى حين حلول الوعد الإلهي بـ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.[2]

فهذه الآية يمكن أن يقال بأنها إشارة لواقع خارجي، ليس في ذلك التاريخ فحسب، بل في شتى الأزمنة، أي هي (قضية حقيقية) بحسب الاصطلاح العلمي، ولكن قد يستظهر أن هذه الآية هي آية تشريعية، أو هي تعم الجانب التكويني، والجانب التشريعي، والقرينة على أن هذه الآية تشريعية؛ هو سياق الآيات لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المقام في مقام أن يقول؛ بأنني أنا لا اتخذ موقفاً يتسم بأدنى تنازل تجاه الكفار، وهم أيضاً كذلك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ

(١) الوسائل للحر العاملي :ج١٧ ص٥٩٨..
(٢) (التوبة :٣٣)

عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾.

فربما يُستظهر بأن الآية في مقام التشريع، أي لرسم العلاقة التشريعية بين الإسلام وبين الأديان الأخرى[1]، ويمكن أن يقال: بأن هذه الآيات هي في دائرة أعم، يعني أعم من التشريع، وأعم من التكوين فتأمل[2] فهذه الآية (المقطع الأول) منها يصلح أن يكون من أدلة قاعدة الإلزام وهنا نتوقف قليلاً.. فنقول:

قاعدة (الإلزام) من مفاخر الإسلام

إن قاعدة (الإلزام) المستفادة من هذه الآية الشريفة، ومن تلك الروايات الكريمة، هي من (مفاخر الإسلام)، والغرب مهما تبجَّح بالتسامح، وبالانفتاح، وبحرية المعتقد وغير ذلك.. فإنه لا يرقى إلى عشر معشار ما تضمنته (قاعدة الإلزام)..

بل إن (قاعدة الإلزام) تعد حقيقة من (مفاخر البشرية) لكننا نحن المسلمون أعني الكثير منا عادة في واد آخر، ولا نعرف قيمة الجواهر التي نمتلكها، واللآلئ، والدُّرر والكنوز التي بحوزتنا، ونبقى نجهل قيمتها..

---

(١) وحاصل المعنى على هذا سيكون: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ وهذا حكم ظاهري، وهو جواز عملكم بدينكم فلا تلزمون بغيره جبراً وقسراً و﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وهذا حكم واقعي أي يجوز بالمعنى الأعم الشامل للوجوب لي العمل بديني وقد يقال: اللام للاختصاص في المقطعين، ويلزمه عرفاً: الجواز ظاهرياً أو واقعياً.

(٢) إشارة إلى وجود إشكال بل أكثر في المقام، ويترك لمظانه.

مقارنة بين الغرب والإسلام على ضوء قاعدة الإلزام

نعم إن من المفاخر التي اختصصنا بها (قاعدة الإلزام)؛ والآن لاحظوا دائرة قاعدة الإلزام، ولاحظوا ما يقوله الغرب، مع فارق عقلانية قاعدة الإلزام عن دائرة ما يلتزم به الغرب، وهذا له بحث طويل الذيل في محله لكننا نشير الآن إشارة عابرة فقط.. فالغرب لا يعمل بقاعدة الإلزام في كثير من الموارد.

أ. الزواج دون السن القانونية

فمثلاً في البلد الغربي الكذائي، هل يستطيع الإنسان المسلم بل كل مَن كان مِن ديانة أخرى مسلماً كان، أم ذا دين آخر هل يستطيع أن يتزوج دون السن القانونية للزواج عندهم؟ فلنفرض إن السن القانونية للزواج عندهم هي (١٨ أو ٢١) حسب الولايات، أو المدن، أو الدول، هل يستطيع شخص أن يتزوج فتاة عمرها (١٢ سنة)؟

قانونياً لا حق له وسيلاحق لو فعل، مع أنه حسب دينه يجوز له ذلك، والبنت إذا بلغت يجوز وقبل البلوغ ذلك جائز لها أيضاً لكن على كراهة لها الزواج، أي إن أصل الزواج يعني العقد جائز، أما المعاشرة بالمعنى الأخص أي الدخول، فقبل البلوغ غير جائزة لما فيها من الضرر على الطفلة، أو إذا كانت مُضرَّة فهي أيضاً غير جائزة وإن كان بعد البلوغ، بهذا العنوان الثانوي (قاعدة الإلزام)، الغربي لا يلتزم بها، فإن الإنسان إذا تزوج قبل السن القانونية للزواج فإنه مُدان، ومُعاقب، ولا تترتب عليه الآثار فلا تُعتبر زوجة له، ولا ترثه، أو يرثها وما أشبه ذلك..

ب. الزواج بأكثر من واحدة

مثال آخر: في كثير من الدول الغربية يُمنع زواج الإنسان بأكثر من واحدة، رغم أنك قد تكون من دين آخر، لكن قاعدة الإلزام ليست جارية عندهم، نقول لهم: لا يجوز عندكم للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة، ولكن ذلك عندنا جائزفلماذا لا تسمحون لنا بذلك؟

والحاصل أن قاعدة الإلزام غير جارية عندهم، وهي جارية عندنا، حسب الشريعة الإسلامية السمحة، أي لو أن شخصاً من دين آخر يعيش في بلاد الإسلام، ومن دينه أن له أن يتزوج بستة، فله الحق في ذلك ولا يُمنع من ذلك إذ (ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم) عدد الزوجات عندنا محدد بأربعة، لكنه غير ملتزم بذلك حسب دينه فله ذلك، أي: على حسب دينه يُتعامل معه فلا يُقيَّد بتشريعنا.

ج. زواج المجوس بالمحارم

مثال ثالث: فالمجوس يجوز عندهم أقبح المحرمات عندنا وعند كافة العقلاء وهو الزواج بالأم، أو الأخت، أو البنت، فالمجوس له ذلك، يعني من الناحية التشريعية، في الحكومة الإسلامية لا يُمنع من ذلك، بل له أن يتزوج بأمه مع أنه هذا من أقبح المحرمات عقلاً، وشرعاً، أيضاً.. لكن قاعدة الإلزام تسمح له بذلك.. الآية الشريفة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ تقول: أنت امش على ضوء دينك، ولكن اتركني امشي على ضوء ديني، لماذا تتدخل في شؤون ديننا؟!

د. فرض امرأة إماماً للجماعة

لماذا تريد أن تفرض (امرأة) إمام جماعة في ذاك البلد الغربي؟ هذا ماذا يعني؟

معناه تبجح كاذب بالديمقراطية، وبالحرية، يفرضون (امرأة) في ذاك البلد الأجنبي الغربي كإمام جماعة للرجال بعنوان حرية المعتقد، نقول: هذه (امرأة مسلمة)، الفرض هكذا و(الصلاة صلاة إسلامية)، أنتم تريدون أي شيء تفعلون افعلوا في دائرتكم، لكن أن تتدخلوا في شؤون الآخرين وأن تتجاوزوا على مقدساتهم فتحاولوا أن تفرضوا امرأة إماماً للجماعة على الرجال وهو تدخل سافر في دين الآخرين، وانتهاك لمقدساتهم، ثم إنكم وتطبلون وتزمرون، بدعوى أن هذه حرية وديمقراطية!! كلا.. إن هذا خنق لحرية الأديان الأخرى، وكذب، وتطبيل بالباطل، ودجل..

هـ. لا ضريبة على الإرث

في مثال آخر: (الإرث) في الإسلام لا توجد عليه ضريبة، لكن هل هذا القانون، يقره الغربي ويمشي عليه في حق المتدينين به؟

النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: من ترك مالاً فلورثته ومن ترك ديناً أو ضياعاً فعليّ وإليَّ..[1]

وقد فصَّل الحديث عن ذلك السيد العم[2] في بعض محاضراته

(١) الكافي للكليني :ج١ ص٤٠٦ .وفيه، قال صلى الله عليه وآله :مَن ترك دَيناً أو ضياعاً فعليَّ،ومن ترك مالاً فلورثته..

(٢) هو سماحة السيد المرجع آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي(حفظه الله)..

وكتبه، فأي شخص من عامة الناس في البلد الإسلامية يموت وعليه دين، فبيت المال عليه أن يتحمل مسؤولية هذا الدَّين.. في أيٍّ قانون ترون في العالم هذه الإنسانية الكبيرة؟

وفي المقابل فإنه إذا ترك مالاً، وعقاراً وما أشبه ذلك فلذريته، وورثته وليس للدولة الإسلامية..

من هنا فإن المسلم أو أي شخص من أية ديانة أخرى لا يرى (الإرث) لجهة أخرى، غير الأقرباء، هل يُسمح له في ذلك؟ وهل يمشي هذا في الغرب؟ أو يفرضون الضريبة على إرثك، مهما كان دينك؟ لكن في الجهة المقابلة إذا كان الغربي يعيش في بلد إسلامي فإنه يتعامل معه على ضوء دينه..

ولا يخفى أن هذا البحث إنما هو عن (التشريع الإسلامي) وليس حديثاً عن (التطبيق الخارجي) ومدى عمل الدول الإسلامية بقانون (الإلزام) وغيره، إذ المقارنة هي بين التشريع الإسلامي والقانون الغربي، وليس بين حكومات البلدين.

التشريع الإسلامي يقول: بأن له أن يمشي على ضوء دينه، فإذا دينه أعفاه عن الضريبة، فإنه يتعامل معه كما يحكم عليه دينه، ولا يحق لنا أن نفرض عليه ضريبة إذا كانت على خلاف معتقده ودينه.

لذا نجد أمير المؤمنين ومولى الموحدين عليه صلوات المصلين يقول: (لو ثنيت لي الوسادة، لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل القرآن بقرآنهم...)[1]

(١) بحار الأنوار: ج٢٨، ص٤، ح٥.

إذن فقاعدة (الإلزام) هي من مفاخر الدين الإسلامي، ومن مفاخر البشرية، لكن هذه القاعدة في هذا الزمن أضحت مُهملة، أهملها المسلمون أيضاً، كما أهملها الآخرون، لكنهم الآخرون تبجّحوا بما ليس لهم، وأنكروا حقاً عظيماً للإسلام عليهم.

حتى بالنسبة إلى الحقل المتواضع من الحريات الموجودة في بلادهم، فإن هذا أيضاً يعد من بركات تموجات وإشعاعات رسول الله محمد وأهل بيته الأطهار(صلوات الله عليهم جميعاً) الذين جاؤوا لهداية البشرية وإخراجهم من ظلمات الجهل، ومن إصر الاستبداد والأغلال، إلى الحرية والنور، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]

والحديث في قاعدة (الإلزام) وفي المقطع الأول من السورة،طويل لكن هذا المقدار يلقي بعض الضوء على الحديث بما تسعه هذه العجالة.

إذن الجزء الأول من الآية الشريفة، يرسم بعض تلك العلاقة بيننا وبينهم وأن (شؤونهم)، في داخل دائرتهم، (المرجع) فيها دينهم لو شاؤوا، وإن كافة ما يرتبط بهم، منسوباً إلينا، وفي ظل حكومتنا، فإنه يدور في دائرة (قاعدة الإلزام).

(١) (الأعراف:١٥٧)

أحسن الرفض، كما تحسن القبول

إن الشطر الثاني من الآية الشريفة ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ تعني إنه كما أن لك دينك، فلي ديني أيضاً، فلا يحق للطرف الآخر أن يقحم نفسه، وأن يتدخل، محاولاً بذلك أن يتلاعب بالمعتقد، أو بالتشريع.. وهنالك قاعدة مهمة جداً تقول: مَنْ لا يحسن أن يقول: لا، لا يُحسن أن يقول: نعم..

على الإنسان أن يمتلك الجرأة بأن، يقول: (لا) للغربي الذي يستهزأ بالشعائر الدينية.. دعه يستهزأ، ولا يصح أن يكون استهزاؤه بالشعائر الدينية، سبباً للتنازل، وتقديم الامتيازات.. كلا.. فإن الغربي أو الشرقي قد يستهزئ بالكثير من القوانين الدينية، أو الشرعية أو ما أشبه ذلك، فعلى المرء أن لا يضعف وفي مضمون الحديث **(إن الله يحب المؤمن القوي ويكره المؤمن الضعيف)**[1].

المثال: وعلى سبيل فإن (الحجاب) من الواجبات، قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[2]، فهل لو استهزئ العلماني أو غيره بالحجاب أو عده رجعية وتخلفاً، عليّ أن أتراجع؟

مصافحة أو مفاكهة المرأة الأجنبية

كما أن مصافحة المرأة الأجنبية مُحرمة شرعاً، كذلك لا تصح مُفاكهة المرأة الأجنبية، ولا يحق للمسلم ذلك، كثير من الشباب أو غيرهم في جامعة شرقية، أم غربية للأسف يهملون هذه الأحكام التي جائت

---

(١) كنز العمال :ج١، ص١١٥، وفيه (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).
(٢) (الأحزاب :٥٣)

لهندسة العلاقة بين المرأة والرجل درءً للانحراف والفتنة، وذلك لأن الغرب فرض مع الأسف ثقافته الانحلالية فرضاً، هذا يُحس بالضعف.. إذا تعامل مع المرأة من منطق إسلامي، من منطق الحجاب، والحشمة، والعفة.. ويتشبث لتبرير ضعفه واستسلامه بأنه ربما تلك المرأة، أو تلك المدرسة أو الجامعة أو الإدارة، تسيء به الظن، أو تسيء النظرة للإسلام والمسلمين!! ولكن.. المقياس شرعاً وعقلاً هو ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ديني أعطاك الحرية، وأكثر مما أنت تعطيني من الحرية، فلماذا تتدخل في شؤوني الخاصة؟

لاحظوا هذه الروايات التي أقرأها على عجل من كتاب (الفقه)[1] كتاب (الآداب والسنن المجلد السابع والتسعين) للوالد قدس سره، يقول: عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: ومن صافح امرأة حراماً جاء يوم القيامة مغلولاً ثم يؤمر به إلى النار

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ومن فاكه ـ أي تمازح مع ـ امرأة لا يملكها حبسه الله بكل كلمة كلمها في الدنيا ألف عام..[2] وأي عاقل يرجح عذاب النار وسخط الجبار على أن لا يُستهزأ به؟!

كما لك عظيم الأجر، عليك عظيم الوزر

ولعل تساؤلاً ينقدح هنا واستغراباً إذ يمكن أن يستغرب البعض من هذه العقوبة وأمثالها، لكننا نقول: لماذا لا يستغرب في شأن الثواب؟

---

(١) هو موسوعة (الفقه) أكبر موسوعة فقهية استدلالية، بحيث تتجاوز مجلداتها الـ(١٥٠) من إبداعات الإمام الراحل قدس سره.

(٢) الوسائل للحر العاملي :ج٢٠ ص١٩٨.

فإننا إذا قلنا له (فلان عمل بسيط) له كل هذا الثواب يفرح، ولا ينكر أو يعترض.. فلماذا الإعتراض هنا؟.. إنه يوجد في مقابل ذاك الثواب، هكذا عقاب أيضاً.. فمثلاً روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**من قال لا إله إلا الله كانت له شجرة في الجنة**).[1] وشجر الجنة، الورقة الواحدة منها، أكثر ثمناً وقيمةً من الدنيا بما فيها..

وهذه كلمة واحدة فقط ولها هذا الأجر العظيم، وإنك إذا قلت باليوم ألف مرة (لا إله إلا الله) وما أبسط ذلك فإن ذلك يعني أنك عمرت لنفسك بستاناً ضخماً جداً، ومَنْ بالدنيا يحصل على مثل هذا الأجر؟ ومن قال سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، كانت له شجرة في الجنة.. ولعله ورد أيضاً (**ومن قال اللهم صل على محمد وآل محمد كانت له شجرة في الجنة**)[2]

فكما يوجد هنالك في جانب المثوبات ذاك الأجر العظيم، وكما أن الإنسان لو أطاع الله سبعين سنة مثلاً، فإن الله سيخلّده لما لا يحصى من السنين في النعيم المقيم.. فكما ذلك، كذلك فإنه مقابل هذا الثواب، يوجد ذاك العقاب وإذا كان ذاك صحيحاً كان هذا صحيحاً أيضاً؛ وإذا كان هذا غير صحيح فإن ذاك غير صحيح كذلك تماماً.. ومن فاكه امرأة لا يملكها حبسه الله بكل كلمة كلمها في الدنيا، ألف عام..[3] دع الغربي أو الشرقي يستهزأ.. لكن ليرضَ الله عنك.. ولتحصل على ضمانة من ذلك

---

(١) راجع ثواب الأعمال للشيخ الصدوق: ص٣، والرواية طويلة..

(٢) مستدرك الوسائل: ج٥، ص٣٤٩، ح٦٠٦٠. وفيه (من قال اللهم صل على محمد وآل محمد، أعطاه الله أجر اثنين وسبعين شهيداً).

(٣) الوسائل للحر العاملي: ج٢٠ ص١٩٨..

العقاب الأليم.

ثم مَنْ هي هذه المرأة؟ أو ذاك الإنسان الغريب؟ أو رئيس الجامعة؟ حتى أخشاه ولا أخشى الله؟ فليطردوني من الجامعة فرضاً أو من العمل؛ ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1]، لا عليك بالآخرين وبما يعطون أو يمنعون، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.[2]

فلتُحرم يومين من الرزق، لكن الله سيعوض بما لا يحصى كماً، وكيفاً، وجهةً.

ثم لو لم تخف الله وجاملت غيره أو خفته، فقد يبقى لك رزقك وظيفتك ولكن.. غداً ـ لا سمح الله ـ قد تصطدم بك سيارة جزاءً من الرب على الذنب فتخسر ما ربحت، وأضعاف أضعاف ذلك تخسره أيضاً، أو قد تخسر زوجتك بنزاع عنيف ثم بطلاقٍ موجع.. أو تخسر ابنك لتجده في أحضان الفساد والمخدرات ثم السجون والفضيحة والعار.. وأنت لا تعلم إن ذلك جزاء من الرب لخوفك من غيره واستخفافك بأحكامه ولو بألف دليل ودليل.

يمازح امرأة فيعاتبه الإمام

وفي رواية أخرى عن أبي بصير، قال: كنت أُقرئ امرأة كنت أعلمها القرآن فمازحتها بشيء ـ ولعله كان مزاحاً بسيطاً جداً خاصة وهو يعلمها القرآن ـ فقدمت إلى أبي جعفر عليه السلام أي الإمام الباقر، فقال: أي شيء

(١) (الأنعام:٩١)
(٢) (آل عمران:٢٦)

قلت للمرأة ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١] فغطيت وجهي، لقد ذاب خجلاً من الإمام فغطى وجهه.

الإمام الآن هو الإمام الحجة المنتظر عجل الله فرجه الشريف وهو الحاضر الغائب.. وهو الذي ينظر إلى أعمالنا، إلى أقوالنا، وإلى قلوبنا، ليس فقط (الأعمال) تُعرض عليه كل خميس وكل اثنين، بل دائماً الإنسان بمحضر الإمام عجل الله فرجه الشريف، فكيف ـ لا سمح الله ـ ينظر نظرة مريبة إلى امرأة أجنبية، أو يُفاكه، أو يُمازح؟ لماذا؟ لمجرد أن حضارة أخرى لها بعض الغلبة الظاهرية على الكرة الأرضية تستهجن الاحتشام، أو تستنكره؟ أو ترمينا بالرجعية، أو الجمود، و(الحق أحق أن يتبع)[٢].. يقول الراوي: فغطيت وجهي، فقال عليه السلام: لا تعودن إليها..[٣]

لا صراع ولا اندماج

والخلاصة: إن الآية الشريفة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ تحدد لنا المعادلة التي ينبغي أن تتحكم في العلاقة بين الإسلام والأديان الأخرى، ونفهم منها أن العلاقة ليست علاقة الاندماج، أو الذوبان، ولا علاقة تنازل، أو تسامح ومهادنة وتهاون، ولا هي من جهة ثانية إذا بقينا في إطار هذه الآيات الشريفة علاقة صراع عشوائي كلا.. وإنما المعادلة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾..

ونؤكد مرة أخرى: إن الآيات القرآنية الشريفة ترسم (حدوداً) بين

---

(١) (ق:١٨)

(٢) (يونس:٣٥)

(٣) الوسائل للحر العاملي: ج٢٠ ص١٩٩..

هذه الحضارات، فلا صراع، ولا اندماج، ولا ذوبان، ولا ينبغي أن يكون هنالك تنازل ولو حتى قدر قُلامة ظفر، بل يجب (الجهر) أيضاً بتلك الحدود كما أعلن سبحانه وتعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾..

فيجب أن تُعلن ذلك، ليعرف الطرف الآخر أنك ميئوس منك أن تتراجع، أو تستسلم، أو تتنازل عن أي مبدأ، أو أي تشريع، أو قضية أصلية كانت أم فرعية، عامة أم خاصة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾، وللحديث تتمة نتطرق لها في الأبحاث القادمة إن شاء الله تعالى..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين..

[١١]

نحن والآخرون على ضوء قاعدتي (الإلزام والإمضاء) وقاعدة (لي دين)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]

---

(١) الكافرون١٦.

قاعدة الإمضاء وقاعدة الإلزام

هنالك قاعدتان تسمى الأولى، بـ«قاعدة الإمضاء» والثانية بـ«قاعدة الإلزام»، وكلتاهما يمكن أن تستفاد من قوله سبحانه وتعالى؛ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ حيث أن الحديث في الأسابيع الماضية كان حول العلاقة التي ينبغي أن تتحكم، وتحكم الأديان، والمذاهب، والحضارات، وما هو الإطار العريض الذي يهندس العلاقة بين هذه الأديان، والحضارات والملل المختلفة؟

هل هي علاقة الاندماج والذوبان، أو الصراع، أو علاقة الحوار والتعايش أو غير ذلك من العلائق والأطر والروابط؟

إن مما يوضح ويلقي الضوء على جانب من العلاقة التي ينبغي أن تتحكم وتحكم بين الأديان، وبين الحضارات والمذاهب، هما قاعدتا الإمضاء والإلزام..

أشرنا في الأسبوع الماضي إلى قاعدة (الإلزام)، فنضيف الحديث عن قاعدة (الإمضاء) هذا اليوم بإذن الله تعالى، ذلك أن قاعدة (الإمضاء) وقاعدة (الإلزام) كلتيهما تجريان بالنسبة إلى (الكفار) في علاقة المسلمين بهم، كما تجريان حسبما نرى بالنسبة إلى إطار علاقة أهل العامة بأتباع أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام).

قاعدتان تنظِّمان الروابط، والوشائج، والعلائق بين الطرفين، وتوضيح ذلك يتم ببيان الفارق بين القاعدتين وموردهما؛ فإن قاعدة الإمضاء تختلف عن قاعدة الإلزام؛ بأن قاعدة الإمضاء نتيجتها لصالح

الدِّين الآخر، أو لصالح المذهب الآخر.

١ـ قاعدة (الإلزام) عليهم ولضررهم

وأما مقتضى قاعدة الإلزام والناتج عنها على ضوء تشريعهم فهو لصالحنا، ففي كلتا الحالتين تشريعهم ممضى، من قبل الشارع المقدس من الناحية القانونية، والظاهرية، والشكلية، لكن قد يكون إمضاء قانونهم لصالحهم، وقد يكون عليهم، كما أن كل تشريع قد يكون ضاغطاً على الإنسان، وقد يكون مما يفسح له آفاقاً ويفتح له مجالات جديدة.

أمثلة لقاعدة الإلزام

أـ الزواج دون إشهاد أو إشهار

توضيح ذلك بالمثال؛ لاحظوا ـ لأن هذا بحث عام الابتلاء عند أهل العامة ـ أن (الزواج بدون إشهاد) عند كثير منهم باطل، وعند بعضهم بدون (إشهار) باطل.

أما نحن فنرى أن الزواج يتقيد بقيود منها: رضاها، ورضاه، وبعض الشروط الأولية الواضحة، مثل رضا الولي في الباكرة ـ على رأي كثير من الفقهاء ـ وما أشبه.

لكن لا الإشهاد (استشهاد شاهدين أو شاهد واحد) ولا الإشهار (أي الإعلان) ليس أي منها شرطاً في صحة النكاح عندنا، لكن عند الكثير من أهل العامة (الإشهاد) شرط، فلو لم يُشهد شاهدين ويستشهد شهيدين فالنكاح باطل.

تقول «قاعدة الإلزام»، إذا تزوج رجل ملتزم بمذهب من مذاهب العامة بامرأة، بدون أن يُشهد على ذلك أحداً فزواجه حسب مذهبه باطل وهذا لضرره، لكنه هو ألزم نفسه بالنتيجة بالتزامه بمذهب، فلرجل من مذهب آخر أن يتزوج هذه المرأة، فالنتيجة لضرره على طبق مذهبه، فنلزمه بما ألزم به نفسه.

فإذا تزوج بدون إشهاد، أو على حسب رأي بعضهم من أن الإشهاد ليس ضرورياً، والإشهار (الإعلان) هو اللازم فقط فزواجه في مذهبه باطل، فالشيعي يستطيع أن يتزوجها، إلزاماً له بما ألزم نفسه.

فقاعدة الإلزام إذن نتيجتها هي بضرره من الناحية الشخصية، لكن دينه أو مذهبه هو الذي أوقعه في ذلك، ونحن نتعامل معه على ضوء قوانين دينه أو مذهبه هو.

ب-الطلاق دون شاهدين

وكذلك في مثال آخر معاكس وهو (الطلاق) بدون شاهدين.. فعند العامة لا يشترط في الطلاق الشاهدان لكن عندنا يشترط الشاهدان، فعند أهل العامة في الطلاق لا يشترط استشهاد شهيدين، فإذا طلقها بدون شاهدين عادلين حسب مذهبه فالطلاق صحيح، والغير، من المذهب الآخر، يستطيع أن يتزوجها مع أنه حسب مذهبنا طلاقه باطل لكن (ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم)..

ج-الإرث

أو في مثال آخر في الإرث؛ فلو توفي الإنسان وله بنت واحدة وأخ،

فنحن نقول: إن للبنت النصف بالفرض، والبقية بالرد، حيث ليس في طبقتها وارث آخر، فيعود لها النصف الثاني أيضاً، ولكن أهل العامة يقولون بالتعصيب؛ أي عود بقية المال للعُصبة التي هم في أطراف الإنسان مثل الإخوة والأعمام.

فإذا مات الإنسان وله بنت وهي من الطبقة الأولى وأخ وهو من الطبقة الثانية للإرث أو عم وهو من الطبقة الثالثة في الإرث فعند العامة البنت ترث النصف بالفرض، والنصف الثاني لأنه لم يُحدد لها يرجع للأخ، أو للعم، فإذا مات السني وله بنت سنية وأخ شيعي، فنستطيع أن نتمسك بقاعدة الإلزام، فالشيعي يرث النصف من هذا الميت المتوفى الذي هو أخوه، وذلك لأن القاعدة؛ التي نرجعها إليها هي (ألزموهم بما ألزموا أنفسهم) نظراً للروايات الصحاح الواردة في هذه القاعدة.

ففي صحيحة الإمام الباقر (عليه الصلاة وأزكى السلام): يجوز في كل دين ما يستحلون[1].

هذه صحيحة ويستفاد منها على حسب ما نستنبطه (قاعدة «الإلزام» و»الإمضاء») معاً وإن استنبط البعض إحدى القاعدتين فقط، وعلى أي تقدير هذه هي قاعدة «الإلزام».

٢ـ وقاعدة الإمضاء، لصالحهم

وأما قاعدة «الإمضاء» فنتيجتها لصالحهم.

---

(١) بحار الأنوار ج١٠١ ص٢٨٩.

أ-أكل الأرنب، وبيعه لهم

فمثلاً الأرنب عند أهل السنة أكله حلال، وعندنا حرام، فقاعدة الإمضاء تقتضي السماح له بأكل الأرنب وعدم منعه منه، بل تقتضي جواز بيع الأرنب له، فهذه النتيجة لصالحه إذ إنه يريد أكل الأرنب وإن كانت أحياناً لصالحنا أيضاً كما في ثاني المثالين كما هو الحال في بعض أنواع السمك كالجري مثلاً، والتي قد تكون محللة عندهم، فيجوز لي أن أبيعها لهم.

ب-أكل الكافر للميتة

أو الكافر الذي يستحل كثيراً من الأطعمة مثل الميتة، فإنه مسموح له بذلك حسب قاعدة الإمضاء، وعلى ضوء السماح له بذلك، يجوز لي أيضاً أن أبيع الميتة له.. هذه «قاعدة الإمضاء» لأن ذلك في دينه جائز فأنا أستطيع أن أبيعه له.

فالنتيجة لصالحه، ف»قاعدة الإمضاء» ما كانت نتيجتها لصالح «الطرف الآخر» سواء أكانت لصالحنا أيضاً أم بضررنا أم لا هذا ولا ذاك على حسب ما يتصور و»قاعدة الإلزام» ما كان بضرره سواء أكان لصالحنا أيضاً كالأمثلة السابقة أم كان بضررنا أيضاً كما لو فرض أن بطلان زواجه منها لأنه لم يشهد أو لم يشهر، أنتج زواج أحد الشيعة منها وانحرافه مثلاً لكن الكلام في (المصبّ) وإن مصب قاعدة (الإلزام) ما كان عليهم، ومصب قاعدة الإمضاء ما كان لهم بحسب طبعه الأوليّ.

والآية الشريفة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ يمكن أن تستنبط منها كلتا القاعدتين فقد أمضى الله من الناحية الشكلية، والظاهرية، والقانونية، دينهم بمعنى

أنه يستطيع أن يعمل على طبق دينه سواءً أكان دينه، نتيجته لصالحه وهي «قاعدة الإمضاء» فله ذلك، وإذا كانت النتيجة بضرره فما دام ملتزماً بدينه أو مذهبه فعليه ذلك، والحاصل أنه تترتب عليه الآثار الإيجابية أو السلبية في المقام.

قاعدة: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾

إذن هذا نوع من تحديد العلاقة بين المذهبين، أو بين الدينين.

ولكن في المقابل ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ فـ«قاعدة الإلزام» و»قاعدة الإمضاء» تسمح للطرف الآخر بأن يطبق شريعته، وأن يمشي على طبق دينه أو مذهبه، ولكن ليس له أن يفرض عليك شريعته وطريقته كما هو واضح.

ومن المؤسف أن المسلمين الكثير منهم ربما عملوا في الجملة بإرادة أم باضطرار بالقاعدة الأولى يعني قاعدة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ «إمضاءً» أو «إلزاماً» لكن القاعدة الثانية ولنسمها بـ(قاعدة ولي دين) لم يعمل بها في الجملة أو تماماً.

البلوغ وسن التصويت

لاحظوا مثلاً: سن التكليف مرهون ومنوط بالبلوغ، فالإنسان يبلغ، وهو رجل عندما يكمل السنة الخامسة عشر، ويدخل في السادسة عشر على المشهور، والفتاة تبلغ عندما تكمل التاسعة وتدخل في العاشرة، فهذا هو المقياس التشريعي لنا، وهذا المقياس التشريعي في كل مكان سارٍ وجارٍ وسيال، وانطلاقاً من ذلك لا يصح على ضوء شريعتنا أن يكون سن الانتخابات ثماني عشرة سنة، أو واحداً وعشرين سنة، أو أقل أو

أكثر، فبمجرد ما بلغ الشاب أو الفتاة فله ولها حق التصويت، أما ثماني عشرة سنة أو واحد وعشرين سنة فهذا قانون غربي أقحم على الإسلام والمسلمين.

فمن منطلق ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ سُمِحَ لهم بقانون «الإمضاء» وقانون «الإلزام»، ولكن ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ أيضاً، فلماذا يُفرض رأيهم وطريقتهم على الطرف الآخر؟!

للمميز والطفل والجنين حق التصويت

بل الوالد قدس سره كان يرى الأكثر من ذلك، كان يقول: بأن الإنسان (المُمَيز) أيضاً له حق التصويت.. بل يقول أكثر من ذلك: أن الطفل له حق التصويت، وإن كان غير مميز، لكن الولي هو الذي يتصدى لذلك عنه.. بل حتى الجنين في رحم أمه له حق التصويت، ووليه يتصدى لذلك.. والعلة في ذلك واضحة وهي: أن المنتخب سيتصرف في هؤلاء جميعاً، في أموالهم، في حقوقهم العامة والخاصة، بل حتى في أبدانهم وحتى في أعراضهم ودمائهم، فإن قرارات الدولة تنعكس بشكل مباشر أو غير مباشر على الجميع، ومنهم الطفل في رحم أمه.. فالكل له الحق لكن حيث ليس بمقدوره أن ينتزع حقه وأن يدلي بصوته، فوليه من قبل الشارع هو المخول والمفوَّض إليه ذلك.

فانطلاقاً من هذا فكيف يفرض الآخر عليَّ تشريعه وكيف أتقبل أنا المسلم ذلك؟ مع أنه ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؟

تأخير سن الزواج بهدف الإفساد

وكمثال آخر نأتي إلى «سن الزواج»، فسن الزواج في الإسلام هو البلوغ، فكيف يفرض الآخر سن الزواج عنده والذي هو ثماني عشرة سنة، أو واحد وعشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة؟!

وإننا عند البحث والتحقيق نكتشف أن الهدف الحقيقي من ذلك؛ هو الفساد والإفساد، لأن الإنسان عند البلوغ يكون مهيئاً للزواج، فإذا تأخر الزواج من جهة، والأجواء في الجامعات، وفي الشوارع، والمدارس، وعبر الانترنت، والفضائيات كانت موبوءة، والشيطان موجود من جهة أخرى، فالنتيجة الطبيعية لذلك الفساد والإفساد بشكل لا يُصدَّق ولا يُتصور.

فالغرض الأساسي للذين يديرون هذه العملية في العالم هو إفساد المجتمعات وتحطيم العوائل والشعوب.

بين الخمس والضريبة

وكمثال آخر «الضريبة»، فعلى أساس قاعدة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ في الإسلام الضرائب أربعة ولا غير؛ الخمس، والزكاة على المسلمين، والجزية، والخراج على غيرهم، ففي القانون الإسلامي على المسلم ضريبتان وعلى غير المسلم، ضريبتان، لكن الغربي ابتدع وابتكر ابتكاراً شيطانياً، شيئاً سماه (الضريبة) في غير هذه الدائرة. فأنت أيها الغربي كيف تفرض ضريبتك وقانونك عليَّ؟!! فعلى أساس قاعدة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ سمحت شريعتنا لك بمقتضى قاعدة «الإمضاء» و«الإلزام» بأن تفعل ما يمليه عليك دينك، وإن كان في نظري باطلاً، فرغم اعتقادي

بأن هذا الدين الموجود بأيديهم محرَّف، وهذا التشريع المدعى نسبته إلى السيد المسيح أو موسى بن عمران (على نبينا وآله وعليهما أفضل الصلاة والسلام)، مما لم يشرعاه، رغم ذلك أسمح لك أنت أن تمارس شعائرك، وأن تمشي على طبق قوانينك الوضعية، وفي المقابل أنت أيضاً يجب أخلاقياً وقانونياً وعرفاً أن لا تفرض قانونك عليَّ وأنا أيضاً يجب أن لا أستسلم لقوانيك الوضعية.

الخمس قانون عقلائي عكس الضريبة

إن (الخُمس) قانون عقلاني ينسجم مع الفطرة عكس الضريبة..لماذا؟

لأنه وحسب قانون الخمس فإنه يجب تخميس الفائض رأس السنة، فالخمس بني على مراعاة حق الفقراء.. وإننا نجد الإنسانية تامةً وكاملةً متجلية في هذا التشريع الإلهي، عكس قانون الضرائب الذي يقول: يجب أن تدفع الضريبة فقيراً كنت أم غنياً، وسواءً أكانت الضريبة ضريبة سفر أم حضر أم ضريبة شراء، ففي الدول الغربية عندما تذهبون لشراء بضاعة ما فإنكم ستجدون الضريبة موجودة على نفس البضاعة، ويجب أن تدفعها مع البضاعة، فعندما تشتري بضاعة ككيلو برتقال مثلاً قيمته ثلاث دولارات، الضريبة تأخذ في نفس اللحظة بل هي تسحب على ثمن البضاعة، فلا يمكن أن تستلمها دون دفع ثمن الضريبة (التكس)، وأكثر الناس فقراء، فالضريبة غير إنسانية على الإطلاق لأنها لا تفرِّق بين فقير وغني، ومحتاج وغير محتاج، لكن في الخمس أنت تصرف بقدر ما تحتاجه على حسب شأنك وعند رأس السنة إن كان لديك فائض، خمّس..

إذن الخمس إنساني والضريبة غير إنسانية هذه من جهة، ومن جهة ثانية، وحسب الإحصاءات فإن الضرائب في الغرب تترواح نسبتها من ٣٣٪ إلى ٤٥٪ لكن نسبة أقل بكثير، وهي في الإسلام حتى من الناحية الكمية الضريبة أكثر رعاية لحق الإنسان، فالضريبة في الإسلام ٢٠٪ والزكاة ٢،٥٪.

مثلاً في الواحد من أربعين شاة أو ما أشبه ذلك يعني الضريبة في الإسلام حوالي ٢٢،٥٪ خمساً وزكاة.

فالخمس إنسانيٌ تماماً، لكن الضريبة ليست إنسانية بالمرة إضافة إلى أن الضريبة تؤخذ رأس كل شهر من الإنسان أو عند كل سفرة أو عند كل تسوق أو غير ذلك، أما الخمس فيفسح للإنسان المجال فيه إلى رأس السنة.

فإن كان لديك فائض عندئذ ادفع، وليس عليك أن تدفع الضريبة رأس كل شهر وأنت في ضيق، فضلاً عن أنك يجب أن تدفع إلى جهات أخرى عديدة غير الدولة كالشركات بألف حيلة وحيلة مما ليس هنا مجال تفصيله.

فالآية الشريفة تقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ويستفاد منها استظهاراً أن «قاعدة الإمضاء» و«قاعدة الإلزام» تجريان بالنسبة للغير بمقتضى قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ كما أن قاعدة ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ جارية في حقنا، فكيف يفرض الطرف الآخر دينه ورأيه علي؟ وقد تركت له حريته في إتباع دينه وقانونه؟ وكيف استسلم أنا لفرضه ودعاياته وتبليغه، والحال ﴿وَلِلَّهِ

ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وهنا حديث وبحث تخصصي نتركه لمحله أنه ما هي النسبة بين هذه الآية القرآنية الشريفة وهي ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وبين قاعدة نفي السبيل المستفادة من قوله تعالى ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[2] والقاعدة المستفادة من قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هناك حديث طويل نتركه لبحثه في القواعد الفقهية.

إذن هذه نقطة في العلاقة، فلك دينك ولي ديني، سواءً في شؤون العقيدة، أم في شؤون الشريعة، والتشريع وما يتعلق بأفعال المكلفين، سواءً كان ذلك في الأحوال الشخصية، أم في الشؤون العائلية، أم فيما يرتبط بالمجتمع أجمع، من شأنٍ اقتصادي، أم سياسي، أم حقوقي أم غير ذلك.

هل الإسلام فرض نوعاً من التمييز العَقَدي؟

المبحث الآخر: في هذا العنوان، وهو بحث مهم ربما يكون محل تساؤل الكثيرين هو: أن الإسلام فرض نوعاً من (التمييز) مبنياً على العقيدة، فالمسلم له حقوق، أما الكافر فمحروم من بعض تلك الحقوق فهل الكافر يستطيع أن يتزوج بمسلمة؟ كلا.. لا يحق له ذلك.

والكافر لا يرث من المسلم وغير ذلك من الأمثلة.

فإذن قد يقال بأن الإسلام فرض نوعاً من التمييز، والآن هناك ضجة عالمية حول التمييز، سواء كان عنصرياً، أم قومياً، أم ما أشبه ذلك من

(١) المنافقون: ٨.

(٢) النساء١٤١.

أنماط التمييز التي تثير ضجة هائلة في العالم.

أحد أنواع التمييز هو التمييز العقدي، أو التمييز على ضوء العقيدة والدين، فكيف أنتم المسلمون قد فرض دينكم أنماطاً مختلفة من التمييز؟

هذه الشبهة تثار أحياناً، والكثير من ضعاف النفوس أو ضعاف الوعي والإحاطة بالجوانب يُذهل - إن صح التعبير- أو يتلجلج، أو يتحير عند طرح هذه الشبهة، ولكن أيضاً بإشارات سريعة، نقدم لكم بعض الإجابات:

الجواب: أولاً: أصل وجود الحد والتمييز أمر فطري

أولاً: ليلاحظ إن أصل (وجود الحد والحريم) هو أمرٌ فطري، فبين هذه العائلة وتلك العائلة وبين كل العوائل، هناك نوع من الحد والحريم، فمن المستحيل أن تكون العوائل مختلطة بشكل مطلق، فكل إنسان في كل بيت!! أو أي إنسان له أن يكون في أي بيت وفي أي وقت شاء! لا يحق له ذلك.

هناك حدٌ وحريم بين العوائل، بين الأصدقاء، فمثلاً الإنسان صداقته مع زيد مهما كانت وطيدة، لكن رغم ذلك لابد أن تكون هناك حرمة وحريم وحد و(خصوصية) لكل منهما.

حتى في مثل (المزاح) المزاح له حدود فيجب عدم تجاوز تلك الحدود وهكذا وهلم جراً.. في مختلف أنماط الأحكام، والعلائق بين الطرفين.. فأصل وجود نوع من الحريم، والحد، والمائز بين الأفراد،

شيء فطري سواء بين الأفراد، أم بين العوائل، أم بين العالم والجاهل، أم بين الأستاذ والتلميذ، فبالفطرة نقبل أن مقام العالم يختلف عن مقام الجاهل، وحرمة العالم تختلف عن حرمة الجاهل وهكذا وهلم جراً..

بين الحدود الجغرافية والقومية والحدود العقدية

ولكن يجب أن ننتبه إلى نقطة، وهي: أن الحدود الموجودة ما هي أنماطها؟

وإحدى الحدود المتصورة هي: (الحد الجغرافي) الذي يتمسك به الغرب وبقوة، فنحن أيضاً لدينا حد عقدي، لكن الغرب يهاجمنا فيه.. نقول له أنت الغربي متمسك بـ(الحد الجغرافي) وبضراوة تمنع مثلاً الملايين من أهالي الجنوب المضطرين من الهجرة للشمال، رغم الأخطار التي تتهددهم إن بقوا حيث هم، في حال أن الحد العقدي هو على القاعدة، والحد الجغرافي ليس على القاعدة.

إنهم في (الحد الجغرافي) يميزون بين المواطن وغير المواطن، فلأنك ولدت في بلد غربي معين مواطن، وأنت عبد الله الآخر الذي ولدت في صقع آخر، في بقعة أخرى، في منطقة أخرى أجنبي وأنت محروم من كافة الامتيازات الموجودة في هذه المنطقة.

والآن لنتسائل هل الحد الجغرافي حد عقلاني وعقلي، أم الحد العقدي؟

(الحد العقدي) والعقائدي ـ إن صح التعبير ـ بلا شك هو العقلاني دون الجغرافي لجهات مختلفة سنشير لها لاحقاً إن شاء الله.

وكذلك الحال بالنسبة للحد القومي، من قومية عربية، أم فارسية، أم غير ذلك. كذلك (الحد العنصري) من هذا العنصر الآري أو عنصر آخر.

فلا بد أن يكون هنالك حدٌّ، وحريم لكن ماذا يجب أن يكون هذا الحد؟

حدود جغرافية؟ هذا وجه.

حد قومي؟وجه آخر.

حد عنصري؟ وجه ثالث.

حد عقدي؟ وجه رابع.

ثانياً: المفاضلة بين تلك الحدود

فلنقم الآن بالمفاضلة بين هذه الحدود.. فإن الحدود الأخرى غير الحد العقدي، تعاني من السلبيات التالية:

١. الحدود الأخرى ليست إختيارية

الفارق الأول: إنها ليست اختيارية فهي تهين الإنسان أشد إهانة، وهي تعد نوع سجن للإنسان لا فكاك له منه، أما الحد العقدي فهو اختياري، وبمقدوره أن يخرج من هذا الإطار والنظام الفكري والعقدي إلى إطار آخر.

العقيدة اختيارية، أي إنسان كان من أي لون ومن أي بقعة جغرافية، يستطيع أن يسلم وهو بذلك يستحق كل الحقوق الثابتة للمسلم،

وستعطى له فوراً بدون أيِّ مِنَّة، فهو مسلم مهما كان لونه ومهما كان عنصره، تاريخه، وماضيه.. لا فرق في ذلك، فـ(**الإسلام يجبُّ ما قبله**).

أما الحدود الثانية فهي حدود غير اختيارية، ففي الحد الجغرافي لأنك مولود في بلد ما فحسب هذا النوع من الحدود، أصبحت أجنبياً وينتهي الأمر، فليس هناك اختيار للإنسان.

أنت لونك أسود أو أبيض أو أصفر، فليس بمقدورك تغيير هذا العنصر، وكذلك لا أستطيع ولا تستطيع أن تغير عنصرك.

أما عقيدتك فهي اختيارية فتستطيع تغييرها، إذا شئت، إما عن قناعة أو حتى بلا اقتناع بل رعاية وكسباً لفوائد معينة منظورة، فالشخص سيُعدّ (مسلماً) إذا تشهد الشهادتين فقال: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) حتى لو لم يكن عن اقتناع، فالحقوق ستُعطى له فوراً، لأنه هذه ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ فإذا تمسك المرء بهذه الصبغة ولو تمسكاً ظاهرياً فإن الحقوق ستعطى له هذا أولاً، وهو الفارق في الاختيارية واللاإختيارية.

٢.وهي مرجوحة مفضولة

الفارق الثاني: هو أن المائز الذي نحن نقول به وهو (مائز العقيدة) مائز (أشرف)، أما الحدود الجغرافية، والأطر العنصرية، وشبههما، فليس فيها شرف وقيمة، فأولاً وأخيراً هي قطعة جغرافية هنا أو هنالك. ما هو شرفها؟ وهو لون أو عنصر.. ما هي أفضليته؟ وما قيمتها؟

أما العقيدة فهي كالعلم ذات قيمة ذاتية(١) فإن المائز بين العالم والجاهل، يعد من نوع المميزات ذات الشرف، وله القيمة العالم أعلى رتبة من الجاهل بحكم العقل وبالفطرة، فالمائز بالعلم أو المائز بالعقيدة مائز حقيقي واعتباري، بالفطرة وبالعقل، أنا اعتقد بالله الملك، الخالق، الرازق، وذاك يعتقد بصنم، أو يعتقد بأي شيء آخر، أو يعتقد غاية الأمر بمعبود وبمخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى كالسيد المسيح عليه السلام، فيعتقد بأنه أحد الآلهة، فالفارق في الشرف واضح.

(الحدود الجغرافية) ليس لها شرف ولا فضيلة، و(التمييز العنصري) كذلك أيضاً، فالعنصر ليس مقياس شرفٍ لدى العقل، ولدى الفطرة، وكذلك أية قومية عن قومية وما أشبه ذلك، لكن المائز الذي أعتقد به، هو مائز له قيمة ذاتية، أما الميزات الأخرى فما لها أية قيمة على الإطلاق، هذا الفرق الثاني وله تفصيل يطلب من مظانه.

٣.وما يعطيه الإسلام، أكثر بكثير

الفرق الثالث: أنه مع كل ذلك، فما يعطيه الإسلام لمن خالفه في المعتقد، أكثر بكثير جداً مما يعطيه ذاك الطرف الآخر لمن يقابله في العنصر، أو في اللون، أو في القومية، أو في الدين.

إنه يدعي بأنه أنا بصفتي مسلماً من الناحية الدينية غير منفتح، نقول أولاً: كلا.. أنا أشد انفتاحاً وأوسع عطاءً وثانياً: إن الإسلام وإن ضيّق من بعض الجهات الأخرى، إلا أن له الحق في ذلك لما ذكرنا من الجهتين

---

(١) علماً بأن (العقيدة) أشرف من (العلم) ولذا كان (العلم) واجباً غيرياً حسب المشهور، وكانت العقيدة واجباً نفسياً ولتفصيل ذلك مجال آخر.

الأوليين، وثالثاً: مع ذلك لو لوحظت دائرة ما أعطاه الإسلام للآخرين ربما سنكتشف بأنها أوسع بأضعاف مضاعفة مما هم يعطوه لنا، وإنّ ما يعطيه الإسلام لهم مثلاً ألف وما يعطونه هم لنا هو عشرون.

لكن هذه (العشرين) يسوقونها للعالم وكأنها ألف، ونحن نظراً لعدم التسويق الجيد أو الإعلام المتطور أو التبليغ المناسب نسوق الألف التي لدينا وكأنها عشرون.

أ. الأرض لله ولمن عمرها

مثلاً: قانون (**الأرض لله ولمن عمّرها**)، هذا حق بشري عظيم جداً وكبير جداً.. فللكافر الحق بأن يأتي إلى بلاد الإسلام ويستثمر قانون (**الأرض لله ولمن عمرها**)، فيعمّر ما شاء من الأراضي[1]، ويشيد ما شاء من المعامل، ويزرع ما شاء من الأراضي، فالأرض لله ولمن عمّرها؛ فلك حرية أعمار الأرض، هذه الحرية التي لم يعطها الكفار للمسلمين وحتى لشعوبهم.

ب. حرية السفر والإقامة

كما يعطي الإسلام للكفار أيضاً حرية السفر والإقامة، ولهم أن يسافروا إلى بلاد الإسلام ويقيموا فيها، في حال أن حرية السفر والإقامة الآن، من أهم أنماط التقييد في العالم الغربي وغير الغربي، فليس هناك حرية سفر وإقامة حرية، بل لابد من (ڤيزا) بشروط صعبة مرهقة، بل تعجيزية لمئات الملايين من الناس ثم لابد من (إقامة) بشروطها

(١) مع ملاحظة عدم انتهاء ذلك إلى تحقيق نوع من النفوذ والهيمنة.

الأصعب.

ج. حرية التجارة

في مجال التجارة؛ يستطيع الكافر أن يتاجر طبعاً في إطار الحدود العامة الموجودة، مثل حدود (لا ضرر) حيث أن هذه القاعدة تشمل المسلم أيضاً، ويجب أن لا يتلاعب بالأسواق، فهذا عنوان عام وهو (لا ضرر)، ويشمل المسلم وغير المسلم، فليس هناك تمييز في هذا العنوان بين المسلم وغير المسلم، فما نعطيه من الحريات لهم وهم من دين آخر لا يقارن بما نمنعهم منه، مثل قضية الزواج، وهي عادةً قضايا شخصية ترتبط بدائرة العلاقات البشرية الفردية.

وتوضيح ذلك أن الإسلام يقول: ما دام ذلك الطرف الآخر أجنبياً ـ يعني كافراً ـ فلا يستطيع أن يتزوج بمسلمة.. وهذا أمر يدور في دائرة حدود العلاقات البشرية الشخصية، كما لا يرث الكافر من المسلم وبعض أمثال هذه الأحكام الموجودة في الفقه..لكن نحن ماذا نقول؟

نقول: أنت كافر ولك عقيدة ثانية، ولم تُرِد الدخول في الإسلام بمنتهى حريتك، واختيارك فمن الطبيعي أن لا تحصل على بعض الامتيازات، لكن جميع الحقوق الإلهية موجودة لك باستثناء هذه الأشياء التي تدور في إطار العلاقات الشخصية الفردية.

وفي مقابل ذلك: فإن للكافر أن ينتفع من أراضينا، فيزرع ما يشاء، وأينما شاء، ويرعى حيث شاء، وبيني ويعمر حيث شاء، كما له حق الاستيراد والتصدير بدون قيود عليه، لأنه كافر، وله حق مختلف أنواع

التجارة، كما له مختلف أنواع الحيازة من حيازة أراضٍ إلى أسماك إلى غيرها، طبعاً كل ذلك في إطار الحق الطبيعي لكل فرد في إطار حق الجميع، إذ لا يحق لفرد مسلماً كان أو كافراً أن يحوز من الأراضي مثلاً ما يفوت حق الآخرين كما ذكر ذلك السيد الوالد رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ في الفقه الاقتصاد وغيره، أن ينتفع من الحرية بأنماطها وأشكالها المختلفة.

هذا العنوان أيضاً له بحث طويل جداً وقد أشار السيد الوالد إلى جوانب كثيرة من ذلك في كتاب (الفقه: الحريات الإسلامية).

د. الحدود الإسلامية معقولة

الفارق الرابع: ثم بعد ذلك إن دائرة (الحد الإسلامي)، هي دائرة معقولة؛ أما الحدود الأخرى فليست دوائرها معقولة على الإطلاق، وسنمثِّل لكم بعض الأمثلة الواضحة من اليهودية، وإذا سمح لنا المجال أيضاً من الهندوسية، ومن الحضارة الغربية أيضاً.

التمييز اللاعقلاني عند اليهود

مثلاً اليهودي يقول: فقط نحن البشر، أما غيرنا على حسب تعبيرهم فهم حمير وكلاب وخنازير مهما كانوا، هل هذا حد عقلاني؟

أ. الناس كلاب وخنازير

لاحظوا ماذا يقول الدين اليهودي المُحرَّف، ولنقرأ نصوصاً منه، يقول: (قريب اليهودي هو اليهودي فقط، وباقي الناس حيوانات في صورة إنسان، هم حمير، وكلاب، وخنازير).

ب.ضارب اليهودي مستحق الموت

المثال الثاني: (إن ضرب أميٌّ (ويقصد بالأميّ أيِّ إنسان من أي دين آخر) إسرائيلياً، فكأنه ضرب العزة الإلهية فالأمي يستحق الموت)، دققوا ما يقول النص؟ إنه يصرح بأن أي إنسان مسلماً كان أو مسيحياً أو بوذياً إذا ضرب إسرائيلياً فإنه يستحق الموت وإن كانت الضربة ضربة خفيفة عادية جداً.

ج.الله تزوج إسرائيل!

أما كونهم (شعب الله المختار)، فلأن الله قد تزوج إسرائيل، وسجل عقد الزواج بينهما، وكانت السماوات والأرض شهوداً على هذا العقد!! لاحظوا هذه التفاهة.

وإليكم النص الآخر المنقول أيضاً عن كتاب «مقارنة الأديان»، (ولليهودي في الأعياد، أن يطعم الكلب، وليس له أن يطعم غير اليهود، والشعب المختار هو اليهود فقط أما باقي الشعوب فهم حيوانات) وهكذا وهلم جرى[1].

إذن هذا نوع من التمييز، لكنه تمييز غير عقلاني، وليس في حدود عقلائية على الإطلاق..

التمييز في الحضارة الغربية

ونأتي إلى الحضارة الغربية التي تتبجح في العالم برفع راية المساواة، وتتغنى بدعاية (حقوق الإنسان)، ويتهمون الإسلام بالتمييز لمنعه المرأة

---

(١) الكنز المرصود صفحة ٦٦ مقارنة الأديان في بحث اليهودية صفحة ٢٧٢ ومصادر أخرى.

من كذا، ومنع الرجل من كذا ومنع الكافر من كذا.

الحقيقة هي أنهم من يقوم بالتمييز العنصري والطائفي وغير ذلك، لكن بذكاء، وبالتدليس، والتلبيس.. ونذكر الآن بعض الأمثلة العابرة على ذلك.

أـ التمييز بين الشمال والجنوب ونظرية قارب النجاة

العالم في منطقهم مُقسَّم إلى الشمال وإلى الجنوب، ومعادلات الشمال والجنوب هي الحاكمة، هم أصلاً يعتقدون بنظرية قالها بعض حكمائهم وفلاسفتهم ـ وإن كانوا يحاولون أن يخفونها ـ نظرية (قارب النجاة)، والتي تقول: بأن العالم الغربي هم شعب الله المختار، فهم في قارب النجاة، وهم أدعياء حقوق الإنسان، ومجلى رحمة الله سبحانه وتعالى في الكون وفي البشرية، فهم في قارب النجاة والبحر المحيط بهم هو بحر الجهل وبحر الأديان والمذاهب الأخرى.

فيمنعون أهالي الجنوب من الهجرة للشمال على حسب هذه النظرية، وهناك باستمرار اجتماعات مع دول الشمال الأفريقي وغيرها، لمنع هجرة اللاجئين، إذن هناك نظرية معينة وإن لم يصرحوا بها بهذه العناوين.

بل يطرحونها بعناوين ثانية مثل عدم الإخلال بالأمن، لكن الحقيقة هي أنه يعتقد أن الجنوبي إنسان متخلف، رجعي، ليس له أي حق من الحقوق.

ب.سرقة ٧٧٧ تريليون دولار!

وحسب إحدى الإحصائيات فإن ما نهبته دول الشمال من ثروات الدول الإفريقية، يعادل (تريليونات الدولارات) وليس (المليارات) ليس مائة مليار، ومائتي مليار، وإنما بالألف مليار، الذي هو تريليون.

وبالضبط هم سرقوا من تراث الدول الإفريقية بالتريليونات، (٧٧٧) تريليون دولار!!

هذه الدول الغربية التي تدَّعي إلغاء التمييز العنصري، واللوني، والقومي وغير ذلك، لكن يبقى ذلك دجلاً وخداعاً وكذباً.

(٧٧٧) تريليون دولار ما نهبته دول الشمال من البلاد الأفريقية وحدها في فترة الاستعمار المعروفة، ثم بعد ذلك ولخداع الناس فإنهم يلجئون أحياناً إلى مجرد اعتذار منمق عن استعمارهم للبلاد!

إذن مصطلح «العالم الثالث» إنما هو مصطلح مُلطف للعنصرية الحديثة.

ج.الحق المطلق لإسرائيل!

يقولون: أنتم أناس متخلفون، ونحن أسياد العالم، والذين نملك حق تقرير مصير الشعوب، وبيدنا أزمة الأمور، وعليكم أن تطيعوا وتسمعوا، (وإسرائيل) هي الابنة المدللة لنا، ونقول ما نقول، ونفعل ما نفعل، حتى لو كان إجماع البشرية على أنها ظالمة نحن نقول: لا، لها الحق، وأنتم الظلمة.. لماذا؟

لأنه يعتقد بأن عنصره أرقى، ويعتقد بأن الكون بيده، ونحن أناس

متخلفون.

ولنتذكر مرة أخرى ما نقلناه قبل قليل: إذ تقول التقديرات المتخصصة إنه إذا ما قُدّر لأفريقيا المطالبة بتعويضات مالية عن حقبة الرِّق والاستعباد من الشمال الأوروبي، فإن تلك التعويضات ستصل إلى (٧٧٧) تريليون دولار، وهكذا في أمثلة عديدة أخرى.

د-التمييز ضد مسلمي أوروبا

وسنكتفي أخيراً بقراءة تقرير عن المركز الأوروبي لمراقبة العنصرية والكراهية.. (أكد تقرير نشره المركز الأوروبي لمراقبة العنصرية والكراهية التابعة للاتحاد الأوروبي أن المسلمين في أوروبا يعانون من التمييز العنصري، مُشدِّداً على تفشي الاضطهاد في مجال العمل، والتعليم، والسكن، الذي يؤثر على المسلمين في الدول الأوروبية وجاء في التقرير الذي حمل عنوان، «المسلمون في الاتحاد الأوروبي التمييز العنصري والتخوف من الإسلام» يقول التقرير: أن المسلمين في أوروبا يعانون من التمييز العنصري في كثير من المجالات بسبب معتقداهم الدينية وبغضِّ النظر عن أصولهم العرقية) إلى آخر الأمثلة الكثيرة في هذا الحقل..

إذن نحن عندنا نوع من المائز بين المسلم وبين غير المسلم، لكن هذا المائز كما سبق وذكرنا: أولاً؛ اختياري وثانياً: إنه مائز بالأشرف وثالثاً: إن دائرته ضيقة جداً، أما دائرة تمييزهم فواسعة جداً، ورابعاً: إن المائز لديننا في دائرة معقولة أما المائز الذي ذكره الآخرون فليس بمائز عقلاني.

طبعاً نحن نتكلم على ضوء مدرسة وتعاليم أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام) التي تجسد الإسلام الأصيل في أنقى صوره وأبهاها وأكملها وأتمها، وللحديث تتمة طويلة نكتفي منه بهذا المقدار.

نحن كأتباع مدرسة أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام) نقول: بأن لنا كل الحق، وبفم مليء ومليان، والحق عليكم لا لكم..

التمييز عند عمر بن الخطاب

لكن أتباع المذاهب الأخرى أي العامة عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم، أي الذين يتبعون الحاكم الثاني عمر بن الخطاب، أو الحاكم الأول أبا بكر، على هؤلاء أن يدافعوا عن أنفسهم إذا استشكلوا عليهم بإشكال معاكس.

أ-منع العجم من دخول المدينة

لاحظوا مثلاً: بالنسبة إلى التمييز العنصري أو القومي أو ما أشبه ذلك، ما ينقله التاريخ، وهذا أنموذج: يقول التاريخ: إن عمر كان لا يترك أحداً من (العجم) يدخل المدينة. انظروا هذا (التمييز القومي) الغريب!

أهل العامة عليهم أن يجيبوا عن هذا الإشكال، إذا استشكل عليهم الطرف الآخر، إذ إننا أتباع أهل البيت عليهم السلام لا نقبل ذلك، وليس لدينا هكذا تمييز.

والمقصود من (العجم) هنا ليس الفرس، فقط بل يشمل كل غير عربي سواء كان تركياً، أم رومياً، أم فارسياً، أو غير ذلك كان عمر لا

يترك أحداً من العجم يدخل المدينة[١].

ب.بيع القبيلة العربية!

بل أكثر من ذلك نقل المأمون العباسي: أن عمر بن الخطاب كان يقول: مَنْ كان جاره نبطياً (والنبط قبيلة عربية) واحتاج إلى ثمنه، فليبعه[٢]!!.

ج.رفع القصاص لأنه نبطي!

هناك أيضاً في خبر آخر: قد طلب عبادة بن الصامت من نبطي أن يمسك له دابته فرفض فضربه عبادة فشجَّه، فأراد عمر أن يقتص له منه، فقال له زيد بن ثابت: أتقيد عبدك ـ نبطي من قبيلة ثانية، اعتبره عبده مع أنه حر ـ من أخيك، فترك عمر القود وقضى عليه بالدية[٣].

د.عمر يمنع لباس العجم وابن تيمية يؤيد

كما أن عمر كتب إلى من كان مع عتبة بن فرقد الباذربيجاني (إياكم والتنعّم، وزي العجم) ـالعجم هو أي إنسان غير عربي ـ فإذن العربي ممنوع من زي العجم وأي تمييز غريب هذا، رغم أن العجمي أي غير العربي قد يكون من أهم حملة لواء الإسلام.. هذا.

---

(١) مروج الذهب للمسعودي :ج٢، ص٣٢٠، والمصنف للصنعاني : ج٥، ص٣٧٤.
(٢) معجم البلدان الحموي : ج٤، ص٢٣٣، عيون الأخبار لابن قتيبة : ج١، ص١٣٠، وكتاب بغداد لطيفور : ص٣٨ | ٤٠ ط سنة ١٣٨٨هـ. والمحاسن والمساوي : ج٢، ص٢٧٨، والزهد والرقائق، قسم ما رواه نعيم بن حماد ص٥٢ ومحاضرات الأدباء : ج١، ص٣٥٠، وقضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : ص٢٦٤ عن ابن قتيبة، وراجع : الإيضاح لابن شاذان : ص٤٨٦.
(٣) تهذيب تاريخ دمشق: ج٥، ص٤٤٦، وتذكرة الحفاظ : ج١، ص٣١، وسنن البيهقي : ج٨، ص٣٢، وسير أعلام النبلاء : ج٢، ص٤٤٠، وكنز العمال : ج٧، ص٣٠٣.

وإن على أهل العامة أن يلتزموا بوصية عمر بن الخطاب، ويتركوا لبس أي ملبس غير عربي على النمط القديم، فيحرم عليهم مثلاً لبس السترة والبنطلون وما أشبه ذلك لأنه خلاف أمر الحاكم الثاني وابن تيمية معه!!

فابن تيمية يقول: (إن الشريعة، يعني كلام عمر، حين تنهى عن مشابهة الأعاجم دخل في ذلك الأعاجم من الكفار والمسلمين معاً) يعني الإسلام والكفر ليس هو الفارق وإنما القومية هي الفارق.

المسلم عليه أن يتجنب التَشبُّه بأي إنسان غير عربي سواءً كان مسلماً أم لم يكن مسلماً، هذا كلام كبيرهم الذي علمهم التطرف وتكفير المسلمين ابن تيمية[1].

هـ-المنع من زواج الأعجمي

أيضاً نهى عمر أن يتزوج العجم في العرب، رغم كونهم مسلمين، وقال: (لأمنعن فروجهن إلا من الأكفاء)[2].

والحال أن الإسلام هو مقياس الكفاءة كما في متواتر الروايات. والبعض من علمائهم قد أفتوا على طبق ذلك.

و-قتل من بلغ طوله ٥ أشبار!

وفي خبر آخر: أرسل عمر إلى أبي موسى الأشعري عامله في البصرة

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص١٦٢.

(٢) الإيضاح: ص٢٨٠ و٢٨٦، وفي هوامشه عن عدد من المصادر، وراجع: الاستغاثة: ص٤٥ والمسترشد في إمامة علي عليه السلام: ص١١٤ والسنن الكبرى: ج٧، ص١٣٣ والمصنف للصنعاني: ج٦، ص١٥٢.

حسب ما ورد في رسالة معاوية لزياد: (اعرض من قبلك ـ من هو في قِبَلِك ـ من أهل البصرة فمن وجدت من الموالي الذين هم العبيد ومن أسلم من الأعاجم قد بلغ خمس أشبار فقدمه فاضرب عنقه).(١)

وفي رسالة معاوية لزياد ابن أبيه المشار إليه، آنفاً يقول: (انظر إلى الموالي، ومن أسلم من الأعاجم فخذهم بسنة عمر بن الخطاب فإن في ذلك خزياً لهم وذلاً أن تنكح العرب فيهم ولا تُنكحوهم، وأن يرثهم العرب ولا يرثونهم)(٢).

مع أنهم مسلمون، وهو يصرح بكونهم «مسلمين»، لكن هذه هي النزعة القومية الحاكمة، فهذا وأشباهه، على أهل السنة أن يجيبوا عن هذه التناقضات! ومن الواضح أننا لا نعتقد بأمثال هذه الآراء والفتاوى الشاذة فنحن في حل وفي سعة ولله الحمد.

ز ـ منع غير العربي من إمامة الجماعة و..

ثم يتابع معاوية قوله في الرسالة ويكتب: (وأن يُقدَّموا يعني: الموالي في المغازي يصلحون الطريق، ويقطعون الشجر، ولا يؤم أحد منهم العرب في الصلاة).

الإنسان غير العربي لا يمكن أن يصبح إماماً حتى لو كان أكبر علماء الإسلام، مع العلم بأن كثيراً من كبار علماءهم غير عربي، بل من أئمة مذاهبهم فإذن لا يجوز لهم أن يكونوا أئمة في الصلاة ولا يلي أحد منهم قضاء المسلمين إلى آخره وأيضاً هناك مطالب كثيرة في هذا الحقل

(١) سليم بن قيس: ص١٤٢ وراجع: نفس الرحمان: ص١٤٤ وسفينة البحار: ج٢، ص١٦٥.
(٢) سليم بن قيس: ص١٤٢ وراجع: نفس الرحمان: ص١٤٤ وسفينة البحار: ج٢، ص١٦٥.

نقتصر على هذا المقدار.

الخلاصة هي: أن الآية الشريفة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ هي الإطار العام الذي يُحدد العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان حسب قاعدتي (الإمضاء) و(الإلزام) المستفادتين من قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ وقاعدة ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وهي صريح قوله تعالى.

وقلنا بأن (التمييز على حسب العقيدة) هو تمييز بالأشرف، وهو تمييز فطري عقلائي، وأن هذا التمايز لصالحهم وليس لصالحنا من حيث المجموع.

فالحريات والحقوق التي تُعطى للأديان والمذاهب الأخرى كثيرة جداً، فضلاً عن أنه ليس لدينا تمييز عنصري ولا لوني وغير ذلك، رغم أنه موجود عند الآخرين سواء الحضارة الغربية أم بضع الأديان الأخرى أم المذاهب الأخرى أيضاً.

وربما إذا وفقنا الله في الأسبوع المقبل سنُكمل جانباً من الحديث، ولعلنا ننتقل إلى آية قرآنية شريفة أخرى..

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

[١٢]

مَنْ يُظهر دين الله؟
وما هي فلسفة التبري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم، إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾(١)

---

(١) (التوبة:٣٣)

هذه الآية الشريفة كسائر الآيات القرآنية الكريمة تختزن في داخلها ما لا يمكن أن يُتصور من عميق المعاني، وبحار الدقائق،و لكن بقدر البضاعة المزجاة ربما نستطيع نحن البشر أن نستكشف، ـ أقل من واحد بالمليار، بل أقل من ذلك ـ بعض (سطح) الآيات القرآنية الكريمة، لأن القرآن مجلى عظمة الله سبحانه وتعالى، وحيث أنه لا حدود لعظمته جل إسمه، ولا انتهاء له،فلا حدود ولا انتهاء لمظهر عظمته جلَّ اسمه..

المعنى الأصح لـ (يظهره على الدين كله)

وسنتحدث بعض الحديث حول كلمة (سنظهره) امتدادا للمحاضرة الماضية؛فقد قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾.

والسؤال هو: ماذا تعني كلمة (يظهر)؟ وما الذي تختزنه هذا الكلمةفي داخلها من أسرار؟

والجواب هو أن (أظهره عليه) لها معنيان:

المعنى الأول: أي أطلعه عليه، أي أعلمه به..

المعنى الثاني: أي نصره، أي غلبه بالحجة وبالبرهان، وبالقدرة وما أشبه ذلك.. فيظهره عليه يعني: يجعله غالباً عليه..

ولنستشهد على ذلك بكتاب الله، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا

أَبَدًا ﴾(١)

فـ ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾: أي أن يطلعوا عليكم، أن يكتشفوا مكانكم، وأمركم يرجموكم، هذا على احتمال..

و الاحتمال الثاني: أنهم إن يظهروا عليكم: أي أن يظفروا بكم، يرجموكم..

وفي آية أخرى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾(٢)

فـ ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ هنا ظاهرة في المعنى الثاني، في تلك القضية المعروفة، قضية ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، والسَّد الذي جعله بين الجبلين ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾؛ أي أن يتغلبوا عليه، أي أن يعلوا عليه، ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾، أي فما استطاعوا، أن يصعدوا فوق السَّد ويتغلبوا على هذه العقبة، ولا استطاعوا أن يحفروا حفرة أو نقباً...كما أنهم لم يستطيعوا هدمه ونقضه وتدميره.

المعنى في هذه الآية الشريفة هو المعنى الثاني ظاهراً.

وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فالظاهر أن معناه هو: أي ليجعله غالباً، مُهيمناً، مُسيطراً، عالياً، مُستعلياً على الدِّين كله، لا ليَطلعه.

(١) (الكهف :٢٠)

(٢) (الكهف :٩٧)

رجوع ضمير (يظهره) للدين أو للرسول؟

وبذلك يَظهر ضعف ما ذهب إليه بعض المفسرين[1]: من استغراب ارجاع الضمير إلى رسول الله ﷺ حيث توهم إنحصار معنى (يظهره) في (يطلعه) فكيف يرجع الضمير للرسول عندئذٍ؟ إذ لا معنى للقول بأنه تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليطلعه على الدين!

لكن الحق صحة إرجاع الضمير للرسول ﷺ بارادة معنى ليجعله غالباً مسيطراً عالياً من (يظهره) وتوضيح ذلك: أن في الآية الشريفة احتمالين:

الاحتمال الأول: أن الضمير يعود إلى (الدين)، فـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي ليظهر (دين الحق) على الدِّين كله، أي ليجعله غالباً، لا بمعنى ليطلعه، أي يطلع الدِّين على الأديان، فهذا مما لا معنى له، فالمعنى الصحيح لـ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ هو: أن دين الإسلام سيكون بإذن الله وأمره هو الغالب، والمهيمن على الأديان كلها..

الاحتمال الثاني: أن يرجع الضمير إلى (الرسول) ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ لماذا، ما العلة الغائية له.؟ ليُظهر رسوله ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

لكن بعض كبار المفسرين استغرب إرجاع الضمير إلى رسول الأعظم ﷺ، واستبعده لأنه تصوَّرأن المراد من (ليظهره)؛ أي يُطلعه،

---

(١) راجع الميزان في تفسير القرآن في تفسير هذه الآية ـ ج٩ ص٢٤٧

وهذا ما لا معنى له، أي لا معنى لإرادة (ليطلع رسول الله على الدِّين كله) لكنه لم يلتفت إلى المعنى الآخر (ليظهره) والحاصل أنه من الواضح أنه إذا أرجع الضمير إلى (الدين)، كان معنى (يظهر) هو الغلبة، والعلو، والسيطرة، والهيمنة، أي الدين الإسلامي يغلب، ويهمن على سائر الأديان كذلك عندما نرجع ضمير (يظهره) إلى (الرسول)ﷺ في قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ يكون المعنى؛ أي ليجعل رسوله غالباً، و مُهيمناً، و مُسيطراً على الأديان كلها.. فهذا المعنى معنى سلس وواضح وعلى القاعدة.

ونستنبط منه نقطة لطيفة جداً، وهي أن:

خاتم الأوصياء هو نفس خاتم الرسل

الحقيقة الأولى: وحدة نفس رسول اللهﷺ مع نفس الإمام الحجة المنتظرعجل الله فرجه الشريف، وذلك لأن من البديهي وجداناً، وعياناً، أن دين الإسلام، وأن رسول اللهﷺ لم يظهر على الأديان كلها، ولم يغلب عليها، بل لا تزال المسيحية، واليهودية، والبوذية، والمجوسية، والهندوسية، وغيرها من الأديان موجودة، بل وسائدة ولها أتباع كُثُر في أنحاء العالم، ولها قوتها ولها سطوتها، وقد تزيد قدرتها في جوانب عديدة، على قدرة، وسيطرة، وهيمنة، الدين الإسلامي الظاهرية، من جهات عديدة، فلم يحدث ذلك (أي ليظهره على الدين كله) في زمان رسولﷺ ولا في هذه الأزمان، وإنما حسب متواتر رواياتنا، وأيضاً المستفاد من روايات أهل العامة، سيكون ذلك في زمان الإمام المهدي المنتظرعجل الله فرجه الشريف..

إذن معنى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ - بناءً على عود الضمير للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كما يدل عليه ظاهر السياق إذ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ -، معناه: (ليظهر رسوله) لكن الرسول لم يظهر على سائر الأديان، بل سيظهر سبطه خاتم الأوصياء وفي آخر الزمن ومع ذلك عبَّر الله تعالى بـ (ليظهره)، ولا يكون ذلك إلا مع وحدة نفس الرسول الأعظم مع نفس الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

لا يقال: المجاز هو المراد إذ ظهور الإمام المنتظر هو ظهور للرسول الأعظم لأنه حفيده وإمتداده.

إذ يقال: إنما يصار إلى المجاز لو تعذرت الحقيقة لكنها غير متعذرة في المقام إذ مع إمكان الإلتزام بـ (وحدة النفسين والنورين النيرين) لا ضرورة للإنتقال للمجاز.

أدلة ثلاثة على الوحدة

والأدلة على وحدة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أوصيائه الأطهار عديدة ولها مبحث واسع لكن نشير هنا إشارة إلى بعض الأدلة على ذلك:

الدليل الأول: قوله تعالى، في يوم المباهلة: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1]

---

(١) (آل عمران: ٦١)

﴿وَأَنفُسَنَا﴾ في الآية بالإجماع، هو الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام، فهو نفس رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلموإذا أمكن ذاك ودل على وقوعه الدليل، أمكن كون الإمام المهدي أيضاً،هو نفس رسول الله.. وتكون الآية الشريفة هذه من أدلة عالم الإثبات وشواهده... وهكذا نستكشف صدق وحقيقة كون إظهار المهدي المنتظر على الأديان كله، وسيطرته، وهيمنته، إظهاراً وهيمنة لرسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم حقيقةً وليس مجازاً.

الدليل الثاني: ما تواترت بذكره (الروايات) عند الشيعة، واستفاضت وربما أكثر من الاستفاضة عند العامة، الروايات التي تصرّح بأن الرسولصلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين، والأئمة المعصومين، كانوا نوراً واحداً بين يدي الله سبحانه وتعالى مما يوضح ويؤكد قوله تعالى ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ إذ كانوا نوراً واحداً، ثم انشطر وانشعب.

الدليل الثالث: وهنالك روايات عديدة أيضاً توجد في أمهات كتب السنة أيضاً من قبيل: **(أنا وعلي من شجرة واحدة وسائر الناس من شجر شتى)**..[١]

فكانوا في بدء الخلقة شجرة واحدة، وكانوا نوراً واحداً،ولعل (الوحدة النورية) سابقة على (الوحدة بالشجرة) فهم بأجمعهم (نفس واحدة) إذن فلا يستغرب من قولنا أن الإمام المهديعجل الله فرجه الشريف هو عين رسول الله، ونفس رسول الله حقيقة.

وعلى أي حال فإذا قبلنا هذا المعنى الذي تدلُّ عليه الروايات، ويدل عليه العقل أيضاً، فتفسير (ليظهره)؛واضح جدا عندئذ أي ليظهر رسوله

(١) البحار للشيخ المجلسي :ج٢١ ص٢٨٠ ..

على الدين كله ولكن كيف.؟

إنه سيكون بإظهار نفس رسول الله، وهو الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف على سائر الأديان.

وإن لم يقبل شخص، فرضاً هذا المعنى رغم وضوحه وبداهته، فإننا نلزمه بالمعنى الكنائي الذي لا مناص له منه، ولا محيص، لأن هذا هو حفيده، وهو مُحيي أمره وسنته، فكأن إظهاره على الأديان إظهارٌ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن الغلبة إذا كانت (للإبن) فإنها هي للأب في التعبير المتداول والدارج لدى كل الأمم والشعوب، خاصة إذا كان الإبن رافعاً راية أبيه، داعياً إلى دينه وشريعته ومطالبا بشاراته أيضاً، فقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ ليظهر رسوله، عبر حفيده أو سبطه، و هو الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف هذه هي الحقيقة الأولى..

ركنا إظهار الدين التولي والتبري

الحقيقة الثانية: وتحتاج إلى بعض الدِّقة، وهي حقيقة هامَّة جداً، وربما تكون بهذا الأسلوب، أو بهذا البيان جديدة، ومفيدة..

فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره ولكن السؤال هو وكيف يتم الإظهار.؟ وعلى أي شيء يعتمد الإظهار.؟

والجواب:أن أظهار الرسول أو الدين الإسلامي، على الأديان كلها،يعتمد على دعامتين أساسيتين، وركنين ركينين: ركن السلب،

وركن الإيجاب.

وذلك تماما ككلمة التوحيد (لا إله إلا الله) حيث تتكون من ركنين: ركن النفي والسحب المطلق، وركن الإثبات والايجاب الحتم، وعليك تجاه كلمة التوحيد، وما يشتق منها أن تتمسك بركنين أيضاً هما: ركن التولي، وركن التبري..

وفي مرحلة الإثبات لا يمكن لدين أن يظهر حقاً كان أو باطلاً، إلا بالاعتماد على ركني السلب، والإيجاب، على ركن التولي الذي هو الجانب الإيجابي، والتبري الذي هو الجانب السلبي، ولذا نفى الأنبياء العظام الأصنام وحاربوها، كما (نفوا) الطواغيت وقارعوهم، كما نفوا القيم والأعراف الجاهلية الباطلة وهاجموها، وأحلوا محل ذلك كله (الحق) (والعدل) و(الصدق والوفاء) و(الخير) و(الحرية) و(الإخاء).

وإذا نظرنا للقضية من زاوية القضايا الفطرية نجد: أن مصب (التولي) هو أن تجلب إلى نفسك وإلى شعبك وأمتك بل وإلى البشرية (المنفعة)، وإن مصب (التبرّي) هو: أن تطرد عن ذاتك وأمتك وعن البشرية أيضاً (المضرة).

ركنان ركينان يُكمّل أحدهما الآخر،جلب المنفعة من جهة، ودفع المضرة من جهة أخرى؛ التبرّي في واقعه، وفي مظهره هو ذلك.

فلسفة اللعن والتبري

و واحد من مظاهر التبري (اللعن)، ذلك أن للتبري مظاهر عديدة، لكن واحداً من أجلى مظاهر التبري هو اللعن، إذ إن التبري في جوهره أن تتبرأ عن شخص مجرم، أو عن دين باطل، أو عن مذهب منحرف، أو عن حاكم طاغية، أو حكومة جائرة، أو ما أشبه ذلك والسؤال الهام هو ما هي فلسفة التبرّي، وما هي فلسفة اللعن، وما أشبه ذلك.؟

لاحظوا ودققوا جيداً حتى نرى كيف تعتمد هذه الآية على كلتا الدعامتين.؟

إن التبري في جوهره، وكذلك اللعن في مظهره؛ يعتمد على أربع قضايا، هي:

أولاً: على قضية فطريةٍ..

ثانياً: ويعتمد على قضية عقليةٍ..

ثالثاً: ويعتمد على قضية عقلائيةٍ..

رابعاً: ويعتمد على قضيةٍ شرعيةٍ..

أين موقع اللعن؟

واللعن ما هو معناه؟

ماذا يعني قوله تعالى ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾[1]

---

(١) (البقرة:١٥٩)

فماذا يعني لَعَنَ زيدٌ الإستعمار أو الإستبداد أو فرعون وهامان ونمرود ويزيد؟

إنه يعني (الإبعاد) أي يُبعدهم الله عن رحمته، فاللعن هو الإبعاد، فهنالك شخص سارق ولص وخائن ومخادع، هل اللص يُقرَّب.؟ وهل اللص يُوضع مُحاسباً في شركة، أو أمين صندوق.؟

اللص موقعه الطرد، والإبعاد، واللعن؛و هذا الشيء بديهي، وهذه من القضايا الفطرية، فطرة الإنسان تقضي بأن هذا الذي يهاجمني، وينتهك حريمي، ويحاول أن يؤذيني، يجب على أن أبعده، وأن أطرده؛ واللص مثال واضح لذلك، كيف نحن نعرف هذا المعنى في اللص، ونوافق عليه ونؤيد، بل نهاجم الشركة أوالحكومة أو الجماعة الكذائية لو قربت اللصوص والخونة وإعتمدت عليهم في وزارة المالية وغيرها؟ كيف نعرف ذلك وندركه ونؤمن به ونلتزم به في (لصوص الأموال)، ولا نعرفه ولا نلتزم به في (لصوص الأفكار)؟! وكيف لا نلتزم به في سارق ولص الدين، ولص المذهب، وسارق القيم الأخلاقية، والمُثُل العليا.؟

هل الإرهابي يكرم أم يطرد ويلعن؟

وإليكم مثالاً آخر أوضح لدى كثير من الأذهان وهو: (الإرهابي)، الإرهابي كيف نتعامل معه.؟ من الواضح أن موقع هذا الإرهابي الذي يروم التفجير،والتدمير، ويهلك الحرث والنسل، موقعه الطرد والإبعاد أو النفي والسجن لا أن يكون حاكماً، أو وزيراً أو نائباً في البرلمان أو مسؤولا في الشركة أو الحزب أو النقابة أو المسجد والحسينية.

إن الإرهابي مثل الحجاج، ومثل صدام وهيتلر إذا سمحنا له بأن يحتل موقعاً، فإن ذلك يعني أننا شركاء له في كافة جرائمه وفي كل ما يقدم به من تخطيط لإهلاك الحرث والنسل، فالموقع الطبيعي للإرهابي هو السجن، هو الإبعاد، لا تأخذك به رحمة أو شفقة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ـبالنسبة إلى الزاني والزانيةـ إن الإرهابي والمجرم موقعه الطبيعي هو أن يكون في زاوية من زوايا الخمول والنسيان، بل من زوايا السجن، وليس أن يكون رئيساً، أو وزيراً، أو نائباً، أو ما أشبه ذلك.. الفطرة تقتضي ذلك، هذه قضية فطرية.

مقياس القضية الفطرية

وأنتم لاحظوا مقياس القضية الفطرية ما هو؟

مقياس القضية الفطرية هو: ما إشترك في إدراكه أو الحكم، به الإنسان مع الحيوان، وأنتم لاحظوا الحيوانات ولاحظوا الإنسان أيضاً، (الحيوان) عندما يُهاجمه، أو يهاجم وليده، سبعٌ ضار ماذا يصنع.؟ هل يستقبله بالأحضان وبأكاليل الزهور والورود وهل يُقدِّم وليده لقمة سائغة، أو يقدم نفسه بكل ود وحب وإحترام؟

كلا... وألف كلا... إن فطرته تقضي عليه بأن يدافع عن نفسه وأهله ويقاوم إن إستطاع وتقضي عليه بأن (يفر) (ويبتعد) ويبعد وليده إن لم يستطع، أي تقضي عليه بأن (يلعن) ذاك المفترس، أي أن يبعده، ولو بالقوة، والقسوة، أو أن يبتعد عنه بكل قوة كاملة فيه.

والإنسان كذلك بفطرته يُبعد المجرم أو يبتعد عنه، إنه يُبعد مَنْ يُريد

انتهاك الحريم أو يبتعد عنه، فإذن هي قضية فطرية، (اللعن) أي (الإبعاد) -والذي يعد الإبتعاد وجهه الأضعف- قضية فطرية بدليل إشتراك كافة بني البشر من أسود وأبيض وكبير وصغير ومتدين وعلماني مع كافة الأفراد الحيوان، فيها.

(اللعن) قضية عقلية

و(اللعن) أيضاً قضية عقلية: لاحظوا عقل الإنسان يحكم بماذا.؟

إنه يحكم بإبعاد المجرم القاتل السفاح أو المصاص للدماء، إنه يحكم بإبعاد اللص، بإبعاد من يريد إنتهاك الأعراض، بإبعاد من يريد أن يظهر في الأرض الفساد، وأضعف الإيمان الإبتعاد عنه لو لم تستطيع إبعاده وطرده.

والدليل على كون هذه القضيه عقلية - وبشكل عام فإن الدليل على أن الشيء كالحكم الكذائي أو الإدراك الكذائي عقلي أو غير عقلي- هو اشتراك ذلك بين الكبير والصغير، وبين الجاهل والمثقف، وبين الحضري والبدوي، فإن الطفل أيضاً بعقله - رغم صغره بل قد يكون رضيعاً - لو عرف بأن هذا يهاجمه أو يعتدي عليه ويريد الإضرار به، فإنه يحاول أن يبعده منه، أو أن يبتعد عنه، إنه يرى أن اللازم أن يبعده إذا استطاع يُبعده، وإلا فإنه يبتعد عنه حسب ما أوتي من قدرة، فإذا كان قادرا حكيما غير سفيه فإنه يطرده ويبعده، وإذا كان غير قادر فإنه يبتعد ثم يبتعد ثم يبتعد. على أقل التقدير يبتعد فهي قضية إذن عقلية.

والحاصل: أنه عندما يُفكر أحدنا بصفاء ذهن وسلامة نفس في فلسفة

اللعن أو التبري، يجدها قضية فطرية، قد غرسها الله في داخل فطرته وفي عمق ذاته، كما يجدها قضية عقلية، قد غرسها الله في عقل كل إنسان عاقل..

والخلاصة أن (اللعن) أمرٌ فطري، وهو أمر عقلي، بل إنه من المستقلات العقلية فكما أن العقل يحكم بحُسن ردِّ الوديعة، ويحكم بحُسن حفظ الأمانة، وكما أن العقل يحكم بقبح الظلم وحُسن العدل، وحُسن الإحسان، وما أشبه ذلك، فإنه يحكم بحسن بل بوجوب اللعن؛ أي إبعاد المجرم، إبعاد اللص، إبعاد الإرهابي، ومن شاكلهم، عن موقع المسؤولية، عن موقع الرحمة، عن الموقع المتميز الاجتماعي، وما أشبه ذلك، فإذن هذه هي قضية فطرية وعليها جرت سيرة الشارع الأطهر (ما لهم لعنهم الله)، الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يلعن، والقرآن من قبل قد شحنه الله باللعن، ونحن علينا أن نتأسى به فنلعن ونتبرأ.

اللعن قضية عقلائية

واللعن قضية عقلائية أيضاً: أنتم لاحظوا عقلاء كل المِلل، فإن كل الأمم ومن شتى الأديان والثقافات والميول والإتجاهات، يبعدون (الضار والخطير) أو يبتعدون عنه، فهناك إيمان بـ (الجامع) والجامع هو ضرورة (الحجر) على (الضار) و(الخطير)، وضرورة (إبعاده) أو (الإبتعاد) عنه، إنما الإختلاف في (المصاديق) وما هو الضار والخطير؟ هل هو (الإرهابي)؟ هل هو (عدو الله والقيم والمثل العليا)؟ هل هو (عدو الحكومة الديمقراطية)؟ وهكذا.

وبعبارة أخرى:الجوهر والجامع هو: أن كل الأمم تعتقد أن هناك مجموعة جرائم ومجموعة مجرمين، لابد من إتخاذ موقع صارم منهم، ومنعهم وإبعادهم، ولا تصح الرحمة بهم أو الشفقة عليهم، وذلك كمجرم خطير يأتي إلى الشارع ويشهر السلاح الفتاك، ويحاول أن يقتل الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويثير في الأرض الفساد، ويهتك الأعراض وما أشبه ذلك؛ وفي هذا المثال فإن كل الأمم تطرده، وتبعده، وتحجِّمه وتحجر عليه في أقل الفروض... نعم في بعض الأمثلة قد يحدث إختلاف في المصاديق، ويكون (الإتجاه) مختلفاً، ويكون الحق مع بعض دون بعض، لكن أصل القضية مما اتفق عليه العُقلاء، بل إن بعض صورها وفروعها كمثال السفاك القاتل، لا يوجد فرق فيها بين الأديان والأمم فسواء الدين الإسلامي، أم المسيحي، أم الهندوسي، أم غيرها فإنهم بأجمعهم مجمعون على ضرورة الإبعاد، والطرد، واللعن، (الثبوتي والإثباتي) لمن يحاول أن ينتهك الحرمات، ويسرق أموال الناس، ويصادرها ويقتل النفس المحترمة، ويثير في الأرض الفساد؛ إذن ذلك أمرٌ عقلائي أيضاً: اللعن، والطرد، والإبعاد..

اللعن قضية شرعية

وإضافة إلى ذلك فإن (اللعن) هو أمر شرعي:فإن آيات القرآن الكريم تجدونها مليئة باللعن ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ وربما يستشعر من قوله تعالى ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ إنه ليس كل أحد له أهلية أن (يلعن) كل من لعنه الله تعالى، بل هم أشخاص خالصون مخلصون،

ولله مطيعون، أولئك الذين يتأسون بالله سبحانه وتعالى وبرسوله، فيلعنون كما لعن الله ورسوله والأئمة الأطهار (عليهم الصلاة وأزكى السلام) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾..

وهناك رواية لطيفة تقول: أن رسول الله ﷺ مرَّ بقومٍ وقد نصبوا دجاجة (دجاجة حيَّةً أمسكوها ونصبوها، وثبتوها في الجدار بمسامير مثلاً أو بأي شيء آخر) وهم يرشقونها بالنبال (تصوروا هذا المنظر ما الذي تحكم فيه الفطرة السليمة بالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص.؟ ألا يجب أن (يُبعدوا) عن مثل هذا العمل؟ وإذا لم يرتدعوا ولم ينفع معهم (النصح) بوجهٍ ألا يجب أن (يبعدوا) عن (الإحتضان)؟ وعن (المواقع الإجتماعية عامة أو خاصة التي تتضمن مسؤولية وتستلزم مواقف وقرارات قد تكون عنيفة وقاسية جدا؟ أو على الأقل ألا يجب أن (يبتعد) الناس عنهم؟ فإن إحتضانهم يجرؤهم أكثر، وستسرع أخلاقهم للآخرين عندئذٍ، وسيكون من فعل ذلك شريكاً لهم في الوزر. هذا ما تقوله الفطرة، ويحكم به العقل بالنسبة إلى مثل هذا الشخص، ويحكم به الوجدان، ويلتزم به العقلاء، ويقول به الشرع أيضاً. ولنعد إلى الرواية فإنها هكذا تقول: **أنه مر رسول الله ﷺ بقوم وقد نصبوا دجاجة حيّة، وهم يرمونها بالنبال فقال الرسول ﷺ: ما لهم لعنهم الله..**[1]

---

(١) البحار للشيخ المجلسي :ج٦١ ص٢٦٨ ،وفيها (من هؤلاء لعنهم الله)..

الرسول يلعن ابن العاص سبعين ألف لعنة

لاحظوا هذه الرواية الثانية ذات الدلالات البالغة: الإمام الحسن المجتبى (عليه الصلاة وأزكى السلام)، ـ يقول لعمرو بن العاص (وعمرو بن العاص كان قد هجا رسول الله ﷺ بسبعين بيتاً من الشعر، والنبي الأعظم ﷺ دعا عليه ولعنه بكل بيتٍ ألف لعنة) الإمام الحسن المجتبى (عليه الصلاة وأزكى السلام)، كما في سفينة البحار نقلاً عن الاحتجاج والعديد من المصادر الأخرى ـ، قال لعمرو بن عاص: **قد هجوت رسول الله ﷺ بسبعين بيتاً من الشعر، فقال رسول الله: اللهم إنني لا ينبغي لي أن أقول الشعر فالعن عمرو بن العاص بكل بيتٍ ألف لعنة..**(1)

وقد ظهر بذلك أن اللعن أمر شرعي أيضاً، إضافة إلى أنه أمر فطري، وأمر عقلي ومن المستقلات العقلية، وأمر عقلائي أطبقت عليه الأمم والملل، وإن اختلف اتجاه اللعن، لكن أصله مما لا كلام فيه لا شك يعتريه، وهناك روايات كثيرة في هذا الحقل، لكن اكتفينا بهذا المقدار روماً للإختصار.

عودة إلى الركنين

وكما سبق فإن (ظهور الدين) على الأديان كلها، يكون بكلا الركنين: ركن الإيجاب، وركن السلب، ركن التولي، وركن التبري، ولذلك نجد

(1) الاحتجاج للشيخ الطبرسي :ج٢ص١٥٠..

في الآية الشريفة تتمة لها الدلالة على المعنى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾. (فإن المشركين) يكرهون علو الإسلام وسيطرته، ويجندون عندئذ كل قواهم لضربه وتحطيمه أو دحره على الأقل، كما صنع مشركوا مكة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... وهل يقف القائد الإسلامي والمجتمع الإسلامي عندئذ مكتوفي الأيدي ليقتل أولئك المشركون من يقتلوا ويسفكوا من الدماء ما يسفكوا؟ أم لا بد من جهة وعمل سلبي في مقابل عملهم السلبي الصارخ؟ وكما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ وقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ إذن هنالك جانب سلبي، فيه قوة، فيه شدة في إبعادهم عن إضلال الناس وعن إستضعافهم، وإبعادهم عن مواقع القيادة، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾؟ لأن الدين الإسلامي إذا أراد أن يحل محلها فإن من اللازم أن يقصيها عن القيادة، وأن يطرد مناهج وقوانين تلك الأديان عن أن تكون هي المسيطرة والمهيمنة على شؤون الناس، وأن يطرد تلك القيادات.

والضمير في ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ إذا عاد للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولمن هو نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على ما أوضحناه أو على الأقل لمن يحل محل الرسول وهو الإمام، فإن ليظهره على الدين تعني (ليظهر الرسول الأعظم عبر شخص سبطه خاتم الأوصياء الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف على الدين كله..

إظهار الدين يكون بالقيادات الصالحة

والسؤال الان هو ولكن كيف (يُظهره على الدين كله)؟

الجواب: أن ذلك يتم بأسباب غيبية، وبأسباب طبيعية، ومنها: صنع القيادات البديلة، عن تلك القيادات الجائرة الظالمة، وذلك ككل حاكم ظالم، وكل مستعمر جائر.. فاللازم أن تتم عملية طردهم عن مواقع المسؤولية، فلا يكون أي منهم وزير اقتصاد، ولا وزير دفاع، ولا مستشاراً ولا معاوناً ولا ولا ولا... فكيف بأن يكون رئيس دولة؟

إن إبعاد هؤلاء الأشرار والضلال من جهة، وإحلال الأخيار الأبدال، مكانهم من جهة ثانية هما المزيج الذي لابد منه لكي ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ولكي يتم الخروج من الظلمات إلى النور.

إذن هنالك عملية (طرد)، وعملية (إحلال)، أو (تخلية وتحلية) إن شئت فعبّر، من جهةٍ للأفراد، ومن جهةٍ للمنهج؛ فاللازم أن يتنحى ذاك المنهج الاقتصادي ويوضع محله منهج اقتصادي إسلامي سليم، واللازم أن يبعد ويقصى ذاك الأسلوب والمنهج السياسي، الاجتماعي، الحقوقي، وأن يُطرد، من الحياة لكي يحلَّ محله الأسلوب الإنساني الإسلامي الفطري الشرعي السليم.

تلخيص يتضمن إضافات هامة

فعودة على ما أشرنا إليه من: أن (اللعن) مما تحكم به الفطرة والشريعة، ومما يحكم به العقل والعقلاء، فقد لاحظوا جيداً ما هو ملاك الحُكم الفطري والعقلي والشرعي والعقلائي؟ إذ الأحكام قد تكون فطرية، وقد تكون عقلية، وقد تكون عقلائية، وقد تكون شرعية.. فما هو الملاك في هذه الأربعة.؟

الملاك في الحكم الفطري ـ على حسب المشهور وإن كان لنا تفصيل في هذا الكلام ـ ، هو: ما كان ملاكه، دفع الضرر المحتمل، وأما الحكم العقلي فهو: ما كان ملاكه شكر النعمة، والحكم العقلائي هو: ما كان ملاكه جلب المنفعة، والحكم الشرعي ما كان ملاكه المصلحة المُلزمة في المتعلق.. هذه الملاكات الأربعة كلها موجودة في (التبري) وفي (اللعن) ـ وربما في وقت آخر نتطرق لها بالتفصيل إن شاء الله ـ وفيما يرتبط بالمقام لأن الوقت اتى علينا فنترك هذا للتوضيح الجديد، أو المدخل الجديد، لبحوث قادمة إن شاء الله سبحانه وتعالى.

وعودة على ما أشرنا إليه من إعتماد (إظهار الدين) على الركنين، نقول في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ﴾، كيف يتم هذا الاظهار؟ وعلى ماذا يعتمد.؟ إنه يعتمد على الجانب السلبي بإبعاد قوى الكفر، والشرك، والضلال، والانحراف.. وعلى الجانب الإيجابي بإحلال المؤمنين الأخيار، الأبدال محلهم، وبإبعاد مناهج أولئك، وإحلال هذه التعاليم الدينية القيمة..

وعودة ثالثة:فإننا عندما نتدبر في هذه الآية الشريفة نستكشف بُعداً من أبعاد اللعن، ونستكشف جانبا من فلسفة اللعن، وفلسفة التبري في الشريعة الإسلامية، وإنك لا يمكن أن تنير البلاد وتنشر الضياء إلا بلعن الظلام والظلاميين والفراعنة وأشباه هيتلر وصدام، وطردهم والتبري منهم، وذلك كله أمر عقلي وعقلائي وفطري وشرعي.

وكان هنالك حديث أطول في هذا الحقل، لكن أختم باعتبار أن الوقت قد أدركنا فلنختم برواية واحدة فقط وأقول:

الروايات من الضروري أن يلاحظها الإنسان، فإن (فلسفة) اللعن التي ذكرناها، وغيرها لا تحرك الإنسان بمفردها لأنك تعرف أن الإنسان بطبعه لا تُحرّكه الفلسفة، إذ الفلسفة أمر جامد، والجامد لا يحرك الإنسان عادة، لكن الإنسان تُحركه (العواطف السليمة) من جهة، ويُحركه (الثواب)، ويردعه (العقاب) من جهة ثانية.

الأجر العظيم على اللعن

ولذلك فإن (اللعن)، مع أنه أمر عقلي،و أمر عقلائي، ومع أنه أمر فطري تحكم به الفطرة، ومع أنه أمر شرعي وردت به آيات قرآنية كثيرة، ودلّت عليه الروايات المتواترة؛ مع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لكي يسوقنا باتجاه هذا المنهج، أي منهج التبري واللعن الذي هو الجناح الموازي للتولي والانقياد أيضاً، وقرر الله سبحانه وتعالى على اللعن أيضاً أجراً عظيماً، والروايات في ذلك كثيرة نقتصر على روايتين احداهما وردت في مصداق من مصاديق من يستحق اللعن، والأخرى في الأجر العظيم على اللعن، أما الرواية الأولى فهي عن الإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام)، يقول: لعن الله قاطعي سبل المعروف..[1] هذه الرواية فيها تفصيل نتركها لوقت آخر..

وأما الرواية الثانية: فهي أيضاًعن الإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام)، يقول داود الرِّقي: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ استسقى الماء، فلما شربه رأيته قد استعبر واغرورقت عيناه بدموعه، ثم قال

(١) الكافي الشريف للشيخ الكليني :ج٤ ص٣٣..

لي: يا داود لعن الله قاتل الحسين عليه السلام وما من عبد شرب الماء فذكر الحسين عليه السلام وأهل بيته ولعن قاتله (هذا منهج التبري، منهج اللعن، منهج إيجاد خط فاصل على مر التاريخ بين جيش الظلام، وجيش النور، وإلا لماذا القرآن الكريم يذكر اسم فرعون رغم أنه ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] لماذا يذكر اسم فرعون، وهامان، ونمرود، وما أشبه..؟

إنما ذلك لابد منه لأجل إيجاد حاجز حديدي بين الجبهتين، وإلا غزت جيوش الظلام جحافل النور) ما من عبد شرب الماء فذكر الحسين عليه السلام وأهل بيته، ولعن قاتله إلا وكتب الله له مئة ألف حسنة، وكل حسنة أكبر من الدنيا بما فيها..[2]

(وفي رواية أخرى) وحَطَّ عنه مئة ألف سيئة، ورفع له مئة ألف درجة، كل درجة فاصلها عن الأرض أكثر من الأرض إلى عنان السماء، ورفع له مئة ألف درجة، وكأنما أعتق مئة ألف نسمة، وحشره الله تعالى يوم القيامة، ثَلِجُ الفؤاد..

في يوم نكون بأحوج ما نكون فيه إلى أن تطمئن قلوبنا عندئذ بلطف الله، ونصر الله، وجنة عرضها السماوات والأرض، أعدت للمتقين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين..

---

(١) (البقرة:١٣٤)

(٢) راجع كتاب كامل الزيارات لابن قولويه :ص٢١٢ ففيه تفصيل الروايات في هذا الباب..

[١٣]

مَنْ سيُظهر دين الله؟ ومتى؟ وكيف؟ ومسؤوليتنا[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ

---

(١) القيت المحاضرة بمناسبة اليوم التاسع من ربيع الأول،اليوم العرفي لتتويج الإمام الحجة عليه السلام بتاج الإمامة، والمشهور بيوم فرحة الصديقة الزهراء عليها السلام

ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾(١)

سنتحدث في هذه العجالة باذن الله تعالى عن مفردة واحدة فقط وردت في هذه الآيات الشريفة وهي كلمة ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ في قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾..

فان الحديث حول هذه الآيات، وحول كل مفردة ربما يقتضي أشهراً من البحث، فلتقتصر هذه الليلة في الحديث عن هذه الكلمة ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾، ولنتطرق إلى بعض ما يمكن أن يُستنبط من هذه الكلمة القرآنية الكريمة...

اسباب النزول

ولكن قبل ذلك لنقرأ رواية في شأن نزول هذه الآية الشريفة، يقول الإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام): (والله ما نزل تأويلها ـ أي ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ـ بعدُ ولا ينزل تأويلها حتى يخرج المنتظر عجل الله فرجه الشريف..

[وقد إستخدم الإمام اللقب الخاص للإمام المنتظر وهو (القائم) عجل الله فرجه الشريف]، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج المنتظر عليه السلام فإذا خرج المنتظر لم يبقَ كافر بالله العظيم، ولا مشرك بالله إلا كره خروجه حتى لو كان كافر أو مشرك في بطن صخرة، قالت: يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله)(٢).

والأحاديث بهذا المضمون عديدة، ومستفيضة بل متواترة بالتواتر

(١) الصف :٨ـ٩

(٢) بحار الأنوار ـ ج٥١ ـ الباب الخامس ـ ح٥٨

الإجمالي، بل لعله بالتواتر المضموني أيضاً، أي: أن أصل وجوهر هذا المعنى: وأن هذه الآية المباركة لم ينزل تأويلها بعد، وإنما سيأتي تأويلها فيما بعد، هو مما لاريب فيه...وأيضاً هناك روايات عديدة، وكثيرة عند أهل السُّنة تقارب ذلك،وبعضها موجود في الصِّحاح أيضاً..

حقائق ناصعة..

وعندما نتوقف عند كلمة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ قليلاً نكتشف هنالك حقائق عديدة في هذا الكلمة الشريفة:

(الإظهار) حقيقة تشكيكية

الحقيقة الأولى: أن (يظهره) حقيقة تشكيكية ذات مراتب، كما أن النور حقيقة ذات مراتب، فهناك نور الشمس، ونور القمر، ونور المصباح، ونور الشمعة.. وكما أن الإيمان له مراتب: فإيمان رسول الله ﷺ أين؟ وإيماني وإيمان أمثالي أين؟ إيمان سلمان المحمدي والمقداد وعمار، ومَنْ أشبههم أين.؟ وإيماني وإيمان أمثالي أين؟ وكذلك الأمر عند قياس إيمان أجلاء وأصحاب الأئمة الأطهار أمثال زُرارة، وحمران، والحمادين.. ومَنْ أشبههم من أعاظم حواريي المعصومين (عليهم الصلاة وأزكى السلام)...مع إيمان الكثير منا...

فكما أن الإيمان حقيقة تشكيكية ذات مراتب، وكما أن (الحب لله)، و(في الله) حقيقة تشكيكية ذات مراتب، كذلك ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾، فإن (الإظهار) هو حقيقة تشكيكية ذات مراتب، فقد يعلو الدِّين بدرجة، وقد يعلو بدرجات...والإظهار قد يكون له امتداد كمِّي،وقد يكون له امتداد

كيفي، وقد يكون له امتداد في الجهة أيضاً.. كما سنشير لذلك لاحقاً..

الإمتداد الكمي للإظهار

والمراتب الكمية لـ (يظهره)تعني أنه يظهر، ويعلو، ويغلب، فيصدق (والإسلام يعلو ولا يُعلى عليه).

ويُمكن أن يعلو، ويظهر، ويغلب على مساحة، وبقعة جغرافية محددة من الأرض، كالدُّول التسعة التي سيطر عليها رسول الله ﷺ، ويمكن أن يمتدَّ، وتمتد مساحة علوِّ الدِّين وظهوره، وغلبته إلى ما هو أكثر من ذلك ك:خمسين دولة تقريباً، بخريطة اليوم.. كما حدث في زمان ودولة أمير المؤمنين ومولى الموحدين الإمام علي بن أبي طالب(عليه صلوات المصلين)..

ويمكن أن يمتد ظهور الدِّين ليشمل الكرة الأرضية كلها، وذلك ما سيحدث في زمان الإمام المنتظر عجل الله فرجه، بل لعله سيشمل العالم كله، كما يشمل الجن، والإنس، وغيرهم أيضاً من الناحية الكمية.

الإمتداد الكيفي للإظهار

ومن الناحية الكيفية قد تكون للإسلام الكلمة العليا من الناحية الكيفية، مئة بالمئة، وقد تكون الكلمة العليا لدين، أو مذهب، في الجملة؛ بأن تكون أغلب قوانينه ماشية، ونافذة، وحاكمة، وقد تمكَّن في النفوس بدرجة ما لكنه قد يتمكن من النفوس بدرجة لا يضارعها شيء، ولا ينافسها شيء وقد يكون دون ذلك.

وهذه النقطة الأولى تستحق حديثاً مطولاً لكن ولأنها ليست محطّ

حديثنا الان، مررنا عليها مرور الكرام، وهي: أن ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ حقيقة تشكيكية ذات مراتب... كماً وكيفاً وجهةً.

العنوان والمحصِّل

الحقيقة الثانية: في كلمة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ـ لاحظوا جيداً ـ هذه الآية تشير إلى هدف من أهداف البعثة النبوية الشريفة، بل تشير إلى غاية من غايات رب الأرباب سبحانه وتعالى، وقبل أن أوضِّح ذلك أشير إلى قضية، لأن هذه القضية سوف تعطي بعض العمق لفهم ما نريد إيضاحه، ونصبو إلى التأكيد عليه. هناك قاعدة أصولية معروفة تسمى (العنوان والمحصّل) وتعني: أنه تارة (الأمر) يتعلق بالشيء نفسه، وتارة أخرى، يتعلق (بالمركب الارتباطي)، لنفس الأجزاء، تارة الأمر يتعلق بالسَّبب، وأخرى يتعلق بالمسَبَّب أو يتعلق بعنوان من العناوين، فإذا تعلَّق (الأمر) بعنوان من العناوين، فإن المجرى عندئذ سيكون مجرى الاحتياط لدى الشك في الأجزاء، أو الشرائط أو ما أشبه ذلك..

ومع قطع النظر عن البحث الأصولي التخصصي فإن توضيحه بمثال تقريبي خارجي، هو: إن المولى تارة يقول لك: احفر البئر، إلى مقدار خمسين ذراعاً.. فهذا أمر بحقيقة خارجية، فأنت مسؤول عن ماذا عندئذٍ؟

إنك مسؤول عن أن تحفر إلى خمسين ذراعاً، خرج الماء، أم لم يخرج الماء، لأنه لم يأمرك بأن تفجر من الأرض ينبوعاً.. لكنه تارة يأمرك بأن تفجِّر من الأرض ينبوعاً، يقول: أريد الماء.. فأنت إذا حفرت سبعين متراً وما وصلت للماء فأنت مسؤول عن أن تحفر إلى ثمانين متراً، وتسعين متراً إلى أن تجد الماء الذي طُلب منك الوصول إليه..

وعلى أي تقدير فانه إذا أمرك بـ (الغاية) فأنت عليك إذا شككت في شيء وأنه محقق لها،عليك أن تسد أبواب العدم من جهته لكي تصل إلى الغاية، أي عليك أن تحتاط في الأجزاء، والشرائط.

لكنه إذا أمرك بالسبب نفسه، فأنت مأمور عندئذ بالسبب فقط فقيامك وامتثالك بالسبب يُسقط الأمر وبه يتحقق الإمتثال.

هذا مثال، وإليكم مثالاً آخر في المقام أيضاً لتقريب الفكرة للذهن، حتى نعرف ارتباط هذا البحث الأصولي المعروف (العنوان والمحصِّل) بالآية الشريفة..

تارة يأمرني المولى،و يقول: اذهب و(ناقش) فلان المُنحرف الضال، فأنا وظيفتي هنا أن أناقشه لا غير،لأنه لم يأمرني بمتعلَّق معين...ولكنه تارة، يقول: لي(عليك بهدايته)...فان الأمر يختلف كثيراً بين ما لو قال لي (إهده)...فإذا لم يهتدِ في جولات من الحوار والنقاش، لم يسقط تكليفي بل علي الإستمرار، لإنه لم يقل لي (ناقشه) فقط،بل قال يجب أن تأتي به للجادة الصحيحة،إذ إنه لايُريده أن ينحرف، بل يُريد أن تُرجعه إلى سواء السبيل، وهذا هو المطلوب أي إن (الغاية) هي المطلوبة..

وذلك من الممكن أن يتحقق عن طريق (النقاش) و(الحوار)، لكنه إذا لم يتم ذلك بذلك، فأنت مُلزم بأن تسلك طرقاً أخرى معه لتقنعه...وربما يكون من المصلحة أن تترك (النقاش) معه،كأن توجد له (قدوة مثالية) أو تتعامل معه بالسيرة الحسنة...و يمكن أن يكون الطريق:أن تعطيه مالاً.. أو بالعكس تماماً: أن تحرمه من المال فترة من الزمن، ترويضاً له... يمكن أن يكون الحل بأن تضغط عليه.. ويمكن أن يكون الطريق هو أن

تُبدي له محبة أكبر...وقد يكون (تغيير الأسلوب) هو الطريقة للوصول للمطلوب...وقد يكون (الإبتكار) و(الإبداع) هو الطريق.

والحاصل أنه إذا أمرك بأن تهدي زيداً من الناس، فقد أمرك بالمحصَّل؛ أي بالمسبَّب.. فأنت يجب أن تُحاول بمختلف طرق الوصول إلى ذلك الهدف...ولكن إذا أمرك بالسبب، فأنت مأمور بالسبب ولا غير، أي أمرك مثلاً بأن تناقشه فقط، فأنت وظيفتك إذن أن تناقشه ولا غير...

والآن لنلق نظرة عامة على الأوامر في الشريعة، فإن أوامر المولى سبحانه وتعالى في الشريعة على كلا النوعين؛ يعني أحيانا يأمرنا سبحانه بالمسبب، وأحيانا يأمر بالسبب، فإذا أمر بالسبب فليس عليك إلا أن تحقق إلا السبب، ولست مسؤولاً عن النتيجة،ولكنه جلَّ وعلا إذا أمر بالمسبب فأنت مسؤول عن تحقق النتيجة..

ونضيف هنا قاعدة أخرى وهي: أن ملاك التكليف ليس هو (الأمر) فقط، بل (الغرض) أيضاً.. فإذا المولى لم يأمرني بإنقاذ ابنه الذي سقط في البئر جهلاً منه بأنه سقط في البئر، أو لأية جهة أخرى، فإن ذلك لا يُسقط التكليف عني بوجوب إنقاذ ابنه، لماذا؟

لأن العلم (بالغرض) سبب حكم العقل بإلزامك بأن تحقق ذلك الغرض، والوصول إليه، على حسب قدرتنا، ووسعنا، وطاقتنا.

تطبيق القاعدة على الآية الشريفة

وفي هذه الآية الشريفة ـ آية البحث ـ الله سبحانه وتعالى يذكر (المحصَّل)، أو (العنوان)، أو بالتعبير الآخر الأكثر تداولاً عندنا، (الغرض)، فقد قال تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) ولكن لماذا؟ ما هو الغرض من إرسال الرسول بالهدى ودين الحق؟ ما هو هدف الله تعالى؟ وما هو المسبب النهائي لبعثة رسول الله ﷺ؟.. إنه ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

إذن هذا هو الهدف النهائي وهو: شمولية الهدى للعالم كله وسيطرة الحق ودين الحق على الأديان كلها، ولولاه للزم العبث، وللزم اللغو ولو في الجملة في عمل الله في خلقته للبشر، وفي إرساله للرسول، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيراً، وذلك من المستحيل.

ومرة أخرى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ لماذا أرسل رسوله بالهدى ودين الحق.؟ هل لمجرد التذكير.؟ كلا.. فقد قال ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[1] يا رسول الله.. هذه هي مسؤولية رسول الله ﷺ ولكن ماذا يريد الرب في المحصلة النهائية؟ هل يريد التذكير فقط؟ نعم؛ يريد من رسوله التذكير، ولكن السؤال هو ما هو هدف الله تعالى.؟ هل الهدف مجرد التذكير والتذكر؟!

كلا؛ بل يريد شيئاً أكثر من ذلك، فإنه ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ (وقد قام الرسول الأعظم بالهداية وأراهم الدِّين،

(١) الغاشية:٢١

والطريقة، ولكن الله سبحانه ماذا يريد.؟

إنه يريد ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.. وهذا عمل الله تعالى، وليس من عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والنبي صلى الله عليه وآله وسلم من (العلل المعدة) لذلك دون شك لكنه ليس (العلة التامة).

متى سيظهر الله الدين على الأديان كلها

إذن: الغرض من بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والغرض من إرساله صلى الله عليه وآله وسلم هو: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾،و نسأل هل أظهر الله رسوله على الدِّين كُله في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم.؟

والجواب بوضوح: كلا.. وذلك بالبرهان، والوجدان، ومتواتر الروايات، شيعةً، وسنةً؛ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يظهر على الدِّين كله.. فالنبي في زمانه سيطر حسب جغرافية اليوم على تسعِ دولٍ فقط، وحتى في داخل حكومته لم يكن الكل قد (دانوا) بالإسلام، بل كان كثير من الذين أظهروا الإسلام كاذبين، وكانت تُحاك ـ وبإستمرار ـ مؤامرات ضده من قبل المنافقين، والمنافقون مَنْ هم.؟

وسورة المنافقون نزلت في مَنْ؟ هل نزلت بأناس من الصين.؟! كلا..

كلا... إنها نزلت في بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا شك..

إذاً النبي في زمانه لم يظهر دينه الله تعالى على الدِّين كله، وإنما سيظهره في مستقبل الأمر، وذلك ليس إلا في زمان الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف

ولو لم يفعل الله ذلك للزم (نقض الغرض)، ولزمت (اللغوية)..لأن الله تعالى بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقلب الكون كله، والمعادلات الكونية كلها قد غيرها الله سبحانه وتعالى، بمولده الشريف، ومبعثه بالرسالة الخاتمة. ثم يحصر النتائج والثمار والأهداف في نطاق محدود؟

إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما بُعث، أبواب السماء أغلقت في وجه الشياطين، كما بيَّن تعالى بقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[1].

وغاضت بحيرة (ساوة) الشهيرة، وانطفأت نيران المجوس في فارس.. وإلى آخره، الكون كله تحوَّل بولادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والله يقول بأن هدفي من البعثة هو ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فهل يتحقق ذلك (بالتذكير) فقط؟.

إن ذاك عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس تمام ما يريده الله سبحانه وتعالى وما سيحققه...إنَّ ما يريده الله وسيحققه أيضا هو ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وحيث لم يُظهره على الدِّين كله في زمن النبي، إذاً ينبغي أن يكون المراد في زمن لاحق، هذا الزمن اللاحق في أي زمن هو.؟ الآن مثلا هل هذا الدِّين ظاهر على الدِّين كله؟ أم المسيحية هي الظاهرة على الأديان ولو في الجملة؟

اليهودية ظاهرة بشكل من الأشكال، والبوذية بشكل من الأشكال أو في بقعة من البقاع.. وهكذا وهلمَّ جراً..

والحق الصُّراح، ومحض الحق، وهو حق أهل البيت (عليهم الصلاة

(١) الجن: ٨

وأزكى السلام) مُهمَّش في زاوية معينة محدودة فقط، كما هو واضح الآن...

ربما يقول قائل: في زمن من يسمون بالخلفاء الأمويين أو العباسيين أو العثمانيين، كيف؟

والإجابة واضحة: أما كمياً فإن (الهدى) و(الدين) لم يضهر ويسيطر على الكرة الأرضية كلها وعلى الأديان كلها بل كانت بلاد شاسعة خاضعة لأديان أخرى هذا أولاً...

ثم إن البلاد الإسلامية بدورها كانت مليئة بالكفار والمشركين والملاحدة وغيرهم ثانياً

وأما كيفياً: فإن الهدى ودين الحق، لم يكن ظاهراً في بلاد الإسلام إلا بنسبة محدودة، وكان الوضع كما قال الإمام الحسين عليه السلام: **(ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه)**[1]. وكما قال: **(من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده كان حقاً على الله أن يدخله مدخله)**[2] وكان الوضع قبل ذلك كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[3] فكانت السلطات جائرةً أولاً وكان الكثير من قوانين الإسلام معطلة ثانياً فكانت وكان الكثير من النفوذ والقوة لأعداء الرسول ولأعداء أهل البيت ولأعداء الحق والعدل كمعاوية والحجاج ومن أشبههما من سابق ولاحق ثالثاً، وهل مع ذلك كله يصدق

(١) بحار الأنوار_العلامة المجلسي_ج٤٤_ص٣٨١_في تلاقي الحسين عليه السلام مع الحر رضي الله عنه

(٢) بحار الأنوار _العلامة المجلسي _ج٤٤_ ص٣٨٢_ في نزول الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء المقدسة.

(٣) البقرة:٨٥

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؟

إن الله سبحانه وتعالى سيظهر الدين الإسلامي الحق والصراط المستقيم بصدق، على الأديان كلها في زمن خاتم الأوصياء المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف... وتدل على ذلك الروايات المتواترة عند الشيعة والسنة، وسنفرد لذلك بحثا متكاملا بإذن الله تعالى عند التطرق لآية ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾(١).

حقائق دقيقة في تفسير الآية الشريفة

ولنتوقف عند بعض (الدقائق) في الآية الشريفة، فمنها: إن الله جل وعلا إستخدم ضمير الغائب (هو) في قوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾، ولم يقل (الله الذي أرسل رسوله)، أو (الرحمن الذي أرسل رسوله)، أو (الرحيم)،أو (العالم).. وما أشبه ذلك..فلماذا استخدم ضمير الغائب، وهو الذي لا يغيب.؟

ربما يكون من الأسباب الوجيهة لذلك ـ والله العالم ـ الإشارة إلى: الجانب الغيبي المكنون في ذلك، لأن (هو) ضمير، وهو (موغل) في الغيب، أو فقل (غارقة) هذه اللفظة في (الغيب)، فإنَّ الضمير ضمير الغائب، في مقابل أن يقول (الله) مثلاً، و(الله) اسم علم ـ كما هو واضح ـ وبكلمة: فإنَّ استخدام الضمير قد يُستشمُّ منه، قد يُستشعر منه، أنه كما أنَّ الله سبحانه وتعالى بلحاظ كلمة (هو) غيب الغيوب، فإن

(١) النور :٥٥

(ليظهره) سيكون أمراً غيبياً صرفاً، وأمراً غيبياً محضاً، وستكون أسبابه وطرقه ووقته وما يحف به غيباً في غيب، ولذلك نجد (**كذب الوقاتون**)[1] ونجد أن ما يرتبط بالإمام الحجة القائم ﷻ هو بشكل عام غيب في غيب.

ثم لنلاحظ قوله تعالى (هو الذي) فان كلمة (الذي) فيها تأكيد، وكان الله تعالى يستطيع أن يقول؛ (هو أرسل رسوله)، لكنه قال؛ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ ﴾؛ إذ تستطيع أن تقول ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾، وتستطيع أن تقول (هو أرسل رسوله بالهدى)، ولكن لأن التأكيد مطلوب هنا، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾..

ثم إن الله تعالى يُرجع الضمير له مرة أخرى فيقوله(...أرسل رسوله)، وكان من الممكن أن يقول؛ (هو الذي أرسل الرسول)، كلا.. بل يريد أن يربط القضية به مباشرة..لأن قضية الإمام المهدي ﷻ مُرتبطة بالله سبحانه وتعالى مباشرة، ولأنها من أسرار الغيب لذا يستخدم الضمير (هو) ثم يؤكده بارجاع الضمير له مرة أخرى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ ولكن لماذا؟ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾...ومَنْ هو فاعل يظهره.؟ الله تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي (ليظهر رسوله) على احتمال، أو (ليظهر دينه) على احتمال آخر في مرجع الضمير في (يظهره)، وكلاهما صحيح فان إظهار رسوله على الدين كله قد يكون باظهاره بنفسه، وقد يكون باظهار من هم

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني ـ ج ١ ـ ص ٣٦٨ : محمد بن يحيى، عن سلمة بن الخطاب، عن علي بن حسان، عن عبد الرحمن ابن كثير قال كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه مهزم، فقال له : جعلت فداك أخبرني عن هذا الامر الذي ننتظر، متى هو؟ فقال : يا مهزم كذب الوقاتون وهلك المستعجلون ونجا المسلمون.

نفسه بنص قوله تعالى ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾.

والحاصل أن هذا الإظهار إظهار غيبي، ارتبط بذات غيب الغيوب سبحانه وتعالى، وهذه أيضاً حقيقة من الحقائق التي تشير إليها هذه الآية الشريفة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

التدخل الغيبي المباشر لنصرة خاتم الأوصياء عجل الله فرجه الشريف

ونستشهد على ذلك برواية إنتخبناها ـ ونظائرها بالمئات ـ من كتاب (مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم عجل الله فرجه الشريف) ورزقنا الله وإياكم الشهادة بين يديه، إنشاء الله...فانها صريحة بأن القضية مرتبطة بالله سبحانه وتعالى مباشرة، ففي حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

(التاسع منهم قائم أهل بيتي ومهدي أمتي، أشبه الناس بي في شمائله وأقواله وأفعاله، وسيظهر بعد غيبة طويلة وحيرة مضلة، فيعلي أمر الله ويظهر دين الله ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ويؤيد بنصر الله، ويُنصر بملائكة الله فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلئت ظلماً وجوراً)[1]) وتأملوا في هذا التأييد الغيبي، والتسديد الغيبي، وإلا فان البشر الذين نحن نعرفهم ليسوا بمؤهلين لذلك، وليسوا بمستوى، ولا يستطيعون أن يصلوا في ذلك المقام الذي تكون لهم فيه قابلية أن يظهر بين ظهرانيهم

(١) بحار الأنوار-ج٣٦-باب فيما قاله النبي صلى الله عليه وأله في عدد أئمة أهل البيت عليهم السلام -ص٢٥٢

نور الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[١].

وفي رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام:

(ثم يرجع إلى الكوفة فيبعث ـ يعني الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف ـ فيبعث الثلاثمائة والبضعة عشر رجلاً إلى الآفاق كلها فيمسح ـ [أي الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف]ـ بين أكتافهم، وعلى صدورهم [وكل ذلك تدخل غيبي مباشر]، فلا يتعايون [من العي، أي العجز] في قضاء، ولا تبقى أرض إلا نودي فيها: بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً رسول الله..)[٢]

فالأمر إذن أمر غيبي، إنه أمر الله، فان له جل إسمه هدفاً من هذه الخلقة سامياً ونهائياً، الا أن البشر ليس بمقدورهم الوصول إليه ليست عندهم القابلية لكي يصلوا، لكن لطف الله وهو الرؤوف بعباده الرحيم بهم حيث ابتدأ لهم النعمة والرحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: (رب إهدِ قومي فإنهم لا يعلمون)[٤]، فانه سيكمل الرحمة والنعمة.

فالبشر بما هم بشر لا يمكن ـ بدون لطف إلهي، وتدخل إلهي مباشرـ أن يصل إلى المقام الذي يتشرف حتى بنظرة واحدة لولي الله الأعظم فكيف بأن يظهر فيهم ويعيش بين ظهرانيهم؟! ولكن الله يتدخل تدخلاً غيبياً ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى

(١) الزمر: ٦٩

(٢) بحار الأنوار ـ ج٥٢ ـ ص ٣٤٥

(٣) الأنبياء: ١٠٧

(٤) بحار الأنوار ـ ج٢٠ ـ الباب ١٢ ـ ص٢١

ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ هو سبحانه وتعالى وجل اسمه الذي (يظهره على الدين كله ولو كره المشركون)،و هذه أيضاً حقيقة من الحقائق الكبرى في الآية الشريفة...

الترابط الجوهري بين الآيات

الحقيقة الأخرى تجلت حين كنتُ أتأمل في الترابط بين هذه الآية الشريفة بالآية الكريمة اللاحقة لها،من زاوية العلاقة مع كلمة (يظهره) -وليس البحث في تفسير الآيات كلها،بل كلامنا فقط حول كلمة (يظهره)-، فكنت أتأمل، ما هو ربط هذه الآية بالآية اللاحقة؟ أي ما هو الرابط بين قوله تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ثم قوله بعد ذلك مباشرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟

قد يتصور: أن الله تعالى فجأة انتقل لبحث جديد، ولكننا نعلم علم اليقين بأن الآيات القرآنية الكريمة بعضها متشابك مع البعض الآخر، ومترابط ترابطا عضوياً فبعضها يُكمّل بعضاً، والآيات ليست مجرد لبنات متناثرة، متباعد بعضها عن بعض.. كلا..

بل هي لبنات بناء بُني على هندسة تكوينية رائعة ودقيقة، وليست هندسة تشريعية فقط، هذه الأوامر التشريعية وأشباهها.. بُنيت على هندسة تكوينية دقيقة، بحيث أن كل لبنة تترابط مع كل اللبنات الأخرى لهذا البناء المبارك بأسمى وأجلى وأعمق ترابط، بحيث إذا نزعت لبنة واحدة، أو حرف واحد من القرآن الكريم زحزح من مكانه، فإن كل البناء

سيتأثر.

وقد كتب بعض العلماء كتاباً علمياً إستدلالياً على إعجاز القرآن الكريم في هندسته وبنائه الهيكلي، وأثبت بالمعادلات الهندسية والعلمية أن حرفاً واحداً لو يُزاد أو يُنقص من القرآن، فإن كل المعادلة ستختل.

والان لنعد إلى التسائل الأول: ما هو ربط الآية الأولى، ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ بالآية اللاحقة لها مباشرة وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1]؟

المرتبة الأسمى، عمل الله، والمراتب الأولى، مسئوليتنا

ربما يكون الوجه في الترابط بين الآية الأولى، والآية الثانية؛ هو ما صدَّرنا به مطلع الحديث حول مُشككية (ليظهره)، أن الله يُريد أن يُفهمنا بأن ذاك المظهر الأسمى، أو المصداق الأجلى (لظهور الدِّين) على الكون كله، بملائكته، وشياطينه، كما حدث في ملك سليمان وأكثر، بملائكته، وشياطينه، وحيتانه، والإنس، والجن.. بمختلف ألوانهم، وأشكالهم، هذا المظهر الأسمى، المرتبة الأسمى من الإظهار، هذا عمل الله، ولا غير، فإن الله سبحانه وتعالى، حيث يتدخل تدخلاً غيبياً مباشراً (هو الذي يظهره على الدين كله).. ولكنه يوضح لنا بعد ذلك مسؤوليتنا نحن... إذ يمكن أن نتسائل: نحن ما هو عملنا إذن.؟ نحن ما هو واجبنا،

(١) الصف ١٠:

وتكليفنا؟

الآية اللاحقة هي التي تجيب. فأنت لا تقدر، ولا تستطيع أن تنال تلك المرتبة الأسمى، ولكن هذا الواجب له درجات، إنه واجبٌ ذو درجات، وذو مراتب، المرتبة العليا هي عمل الله سبحانه وتعالى، وغايته في الخلقة، ولكن المراتب الأدنى وبمقدار ما يسعنا، تقع على عاتقنا نحن ولذا ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ هذا عمل الله، أما نحن البشر فما هو عملنا؟ الذين آمنوا ما هو عملهم؟ ذلك ما تشير له الآية التالية مباشرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ هذه المرتبة من إظهار الدِّين هي: الإيمان بالله والرسول وهي قضية جوانحية، وأن نجاهد في سبيله بأموالنا، وأنفسنا.. وهي قضية جوارحية هذه المرتبة واجبة علينا، وأما المرتبة التي فوقها فهي خارجة عن طاقتنا..ولكن المرتبة الأدنى هي التي تجب علينا فـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بعد ذلك مباشرة ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ مع أن المؤمن، الفَرَض أنه مؤمن، فكيف يطلب منه الإيمان مرة أخرى؟ الجواب هو لأن المطلوب مرتبة أخرى أسمى وأعلى من الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾

ذلك أن للإيمان أيضاً درجات، كما أن لإظهار دين الله درجات، كما أن للجهاد في سبيل الله، بالأموال، والأنفس أيضاً درجات..

مسؤوليتنا في زمن الغيبة

هذا الاستظهار حول ترابط الآيتين الكريمتين، يؤيده ويدلُّ عليه جملة من الروايات الشريفة التي تبيِّن وظيفتنا في زمان الغيبة، فما هي وظيفة الإنسان المؤمن في زمان الغيبة.؟ والتي تقع في طريق ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ لكن في الدرجات الأدنى، هناك روايات عديدة، بل مستفيضة، بل قد تكون متواترة، تُصرِّح بأن مسؤوليتنا نحن في زمان الغيبة هي: (الصبر) و(المصابرة) (المرابطة).

الصبر على المصائب والمصابرة على الفرائض

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]

يقول الإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام): (اصبروا على المصائب)[2] فالمؤمن في زمن الغيبة مبتلى بمصائب كثيرة، لأنه أقل شيء عليه: أن لا يصافح الاستعمار، ولا يصافح الظالم.

ومن الواضح إنه إذا لم يصافح الاستعمار، ولم يصافح الظالم، فإنه سيبتلى بمصائب في نفسه، في ماله، في أسرته وفي مكانته وموقعه الإجتماعي وغير ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾ على ماذا.؟ (على المصائب) ﴿وَصَابِرُواْ﴾ (على الفرائض) إذ إن الفرائض تحتاج إلى مُصابرة، أي آمرك بأن تصبر عليها وتأمرني، أرشدك وترشدني بأن

(١) آل عمران: ٢٠٠

(٢) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-باب الصبر- ح١٩

أصبر، لأن الفرائض التي منها إقامة الصلاة،وهو أمر صعب جداً[1] ومنها الأمر بالمعروف..

والأمر بالمعروف بدوره صعب جداً حقيقة، وأنتم تصوروا شخصاً ليلاً ونهاراً، يأمر بالمعروف: يأمر الحاكم بالمعروف، يأمر رئيس الشركة، يأمر البرلماني، بالمعروف، يأمر أباه، وأخاه، وابنه، وصديقه، وعدوه بالمعروف.. هذا الإنسان المثابر على الأمر بالمعروف، من الطبيعي أن تنهالُ عليه المشاكل من كل حدب وصوب.. ولكنه بصبره عليها واستمراره في مسيرته يكون هو العامل بقوله تعالى: ﴿وَصَابِرُواْ﴾ على الفرائض، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ على الأئمة[2].

هذه رواية الإمام الصادق (عليه الصلاة وأزكى السلام) أي ورابطوا على الاقتداء بالأئمة، وهذه الرواية سندها صحيح فقد ورد في تفسير القمي قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: **(اصبروا على المصائب، وصابروا على الفرائض، ورابطوا على الأئمة عليهم السلام)**[3].

المرابطة على الإقتداء بالأئمة عليهم السلام:

وهناك رواية أخرى تفسِّر (ورابطوا على الأئمة)؟ يقول الإمام الكاظم عليه السلام: **(اصبروا على المصائب، وصابروهم على التقية، ورابطوا على ما تقتدون به)**[4].

---

(١) وقد أوضح السيد الأستاذ دام ظله معنى بل معاني (إقامة الصلاة) في بحث آخر مستقل.

(٢) التفسير الأصفى ـ الفيض الكاشاني ـ ج١ ـ ذيل تفسير سورة آل عمران ـ ص١٨٩

(٣) تفسير القمي ـ علي بن إبراهيم القمي ـ ج١ ـ ص١٢٩

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ـ ج٢٤ ـ باب ما نزل في الأئمة عليهم السلام من الحق والصبر والرباط

فالاقتداء بأمير المؤمنين ومولى الموحدين علي بن أبي طالب (عليه صلوات المصلين) أمر صعب جداً، لأنه كان قمَّة في الزُّهد، قمَّة في الوَرَع، قمَّة في التقوى، قمَّة في الجهاد لا تأخذه في الله لومة لائم..ولكن أنتم (رابطوا على ما تقتدون به) ومالذي تقتدون به من الأعمال والسيرة والأفعال؟ إنها هي أعمال وسلوك وسيرة ومنهج الأئمة الأطهار عليهم السلام، إذ رابطوا على الأئمة، أي على الاقتداء بالأئمة (ورابطوا على ما تقتدون به، واتقوا الله لعلكم تفلحون)..

وفي رواية أخرى يقول عليه السلام: **(رابطوا إمامكم في ما أمركم وفرض عليكم)**[1].

ما الذي أمرنا به الأئمة؟ إنه **(أحيوا أمرنا)**[2] وهذا أمر واضح وصريح موجه لنا، بالإضافة إلى العشرات، والمئات من الآيات، ومن الروايات التي تصرِّح، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

إذن نرابط على ماذا.؟ على (ما أَمرنا) به إمامنا عليه الصلاة والسلام: ففي زمان الغيبة هذه مسؤوليتك، وهذه مسؤوليتي.

وهذا الحديث بمناسبة أن اليوم التاسع من شهر ربيع الأول، المشهور بفرحة الصديقة فاطمة الزهراء (عليها الصلاة وأزكى السلام) هو يوم عرفي لتتويج الحجة المنتظر عجل الله فرجه الشريف بتاج الإمامة، إنْ صحَّ التعريف، والتاج يتشرف بأن يُنسب إلى الإمام..

والعسر واليسر ـ ح٥

(١) مكيال المكارم ـ ميرزا محمد تقي الاصفهاني ـ ج٢ ـ ص٤٠٠

(٢) بحار الأنوار: ج٤٤ ب٣٤ ح١٤ ص٢٨٢.

وإننا في زمن الغيبة مسؤولون بهذا القدر وعلى حسب الوسع والطاقة... ولكن إظهار دين الله على الأديان كلها وفي تلك المرتبة العليا فإنه من شأن الله تعالى ومن عمله، وليس عملنا نحن، ولكن المراتب الأدنى التي تتحقق بـ: صبرنا على المصائب ومصابرتنا على الطاعات ومرابطتنا على الإقتداء بالأئمة عليهم السلام، هي مسؤوليتنا، وواجبنا، وتكليفنا..

معنى المرابطة:

و(المرابطة) هي مأخوذة من (رَبَطَ)؛ أي شَدَّ شيئاً بشيءٍ آخر، أي شدَّه مع المحافظة عليه.. فكلمة (ربط) لا تعني فقط (شَد)، وإنما شده وحافظ عليه؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

إذاً (المرابطة) كما يقول اللغويون، وكما يُستفاد من الآيات القرآنية الكريمة: لا تعني فقط الإرتباط بالشيء، بل شدة الإرتباط به وإستمراريته، والمحافظة على ذلك. فقولنا (رابط الأئمة) أي إلتصق بهم، وبتعاليمهم ومنهجهم، وشُدَّ نفسك بهم، وصِلْ حبلك بحبلهم، وحاول أن تتمسك بحبل ولائهم وطاعتهم، وتحافظ عليه بكل قوة.

مدة المرابطة أبد الدهر

ولكن هذه المرابطة كم تدوم؟ كم ساعة؟ أو كم يوم؟..

(١) القصص: ١٠

الإمام (عليه الصلاة وأزكى السلام)، يقول: (رباطنا رباط الدهر).

لاحظوا هذه الرواية، وما أروعها من رواية، عن الإمام الباقر (عليه الصلاة وأزكى السلام)، الإمام يسأل أبا عبد الله الجُعفي، يقول: كم الرِّباط عندكم؟ والرباط عرفاً ما بين ثلاثة أيام إلى أربعين يوماً فإن تجاوز ذلك سُمي جهاداً قلتُ: أربعون ـ أي أربعون يوماً ـ ، قال الإمام عليه السلام: **(لكن رباطنا رباط الدهر)**[١].

أي إنه مستمر وممتد إلى ظهور الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف فنحن الآن في حالة رباط نحن الآن مرابطون... وهذا هو الظاهر من الرواية، ولا وجه لدعوى إنصرافها إلى (مدى العمر) فقط وكما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس)**[٢].

والرواية رواية مُطولة وهي رواية لطيفة لكن أنقل لكم كلاماً للعلامة المجلسي (رضوان الله تعالى عليه)، يقول في شرح قوله عليه السلام: **(رباطنا رباط الدهر)**؛ أي **(يجب على الشيعة أن يربطوا أنفسهم على طاعة إمام الحق، وانتظار فرجه ويتهيأوا لنصرته)**[٣].

الأجر العظيم للمرابطة

وهنا حديث مفصل جداً أختصره بهذا السؤال: إذا رابطنا على ذلك ما هو الأجر المُعدُّ لنا؟ وسأذكر لكم في هذا الوقت المختصر أربع روايات

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني ـ ج٨ ـ ص٣٨١
(٢) الاحتجاج ـ الشيخ الطبرسي ـ ج١ ـ ص٨
(٣) مكيال المكارم ـ ميرزا محمد تقي الاصفهاني ـ ج١ ـ ص٣٩٨

عن (أجر) المرابطة على إحياء (أمر) أهل البيت الأطهار عليهم السلام وعن (مكانته) و(دوره الإستراتيجي الكبير)

الرواية الأولى: وهي رائعة حقيقة- تذكر جانباً من الأجر وهي حديث نبوي شريف حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: (**كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله**)[1].

فالإنسان إذا مات ينقطع عمله إلا من ثلاث ـ كما في الرواية ـ لكن الرسول يقول: (**كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله**) فلو رابط الإنسان بذاك المعنى الأخص الذي هو الرباط في الثغر العسكري، أو بالمعنى الأعم، وهو الرباط في الثغر الثقافي، وما أشبه ذلك فانه سينمو له عمله دوماً أبداً إلى يوم القيامة، كما في الرواية (**إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتان القبر (أو من الفترة)**)[2]... وعبرنا بـ (أو) لان الروايات أو نسخها متعددة.

ومن الجيد أن نشير إلى وجه الجمع بين الروايتين:فانه لان (المرابطة) المصداق الأجلى لما لا ينقطع ـلانها من الصدقة الجارية ـ

والحصر في رواية (كل ميت) اضافي، او الدقة في الفرق بين كلمتين (ينقطع) و(يختم) ولعل الفرق أن تلك الثلاثة لها (إمتداد) أما (المرابطة) فمنتهية ظاهراً فلا امتداد لها لكن الله مع ذلك لايختم ديوان عمله.

الرواية الثانية: يقول الإمام الباقر عليه السلام: (**علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته، يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا،**

---

(١) نفس المصدر

(٢) نفس المصدر

وعن أن يتسلط عليهم إبليس وشيعته النواصب. ألا فمن انتصب لذلك من شيعتنا كان أفضل ممن جاهد الروم والترك والخزر، ألف ألف مرة، لأنه يدفع عن أديان محبينا وذلك يدفع عن أبدانهم)[١].

الرواية الثالثة: قال الامام علي بن محمد (عليهما الصلاة وأزكى السلام): (لولا من يبقى بعد غيبة قائمكم (عليه الصلاة وأزكى السلام) من العلماء الداعين اليه، والدالين عليه، والذابين عن دينه، بحجج الله، والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس ومردته، ومن فخاخ النواصب، لما بقى أحد إلا ارتد عن دين الله ولكنهم الذي يمسكون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك صاحب السفينة سكانها، أولئك هم الأفضلون عند الله عَزَّ وَجَلَّ)[٢].

الرواية الرابعة: قال الإمام الحسن بن علي عليه السلام: (يأتي علماء شيعتنا القوامون بضعفاء محبينا وأهل ولايتنا يوم القيامة، والأنوار تسطع من تيجانهم، على رأس كل واحد منهم تاج، قد انبثت تلك الأنوار في عرصات القيامة ودورها مسيرة ثلاثمائة ألف سنة)[٣].

إلى آخر الرواية وهي رواية مطولة. فبناء على هذا نحن مسؤوليتنا في زمن الغيبة أن نكون (مرابطين في الثغر الذي يلي إبليس)، وكنت أريد أن أذكر لكم بعض الحقائق الأخرى حول هذه الآية الشريفة، وحول كلمة (يظهره) ولكن الوقت يبدو أنه قد أدركنا وربما نكمل البحث فيما بعد إن شاء الله تعالى.

---

(١) الاحتجاج_الشيخ الطبرسي_ج١_ص٨
(٢) الاحتجاج_الشيخ الطبرسي_ج١_ص٩
(٣) الاحتجاج_الشيخ الطبرسي_ج١_ص١٠

وندعو الله سبحانه ونلح عليه أي إلحاح، متوسلين إليه بلطفه سبحانه وتعالى وكرمه أن يكون الفرج قريباً جداً إن شاء الله، لأن الأمر بيد الله، فربما يكون بعد مليون سنة،و ربما يكون بعد ساعات، لأن الله سبحانه وتعالى (يُصلح أمر المهدي عجل الله فرجه الشريف في ليلة)[1] كما في الرواية، فقد يحدث لله سبحانه وتعالى (بداء) الذي هو بمعنى (الإبداء) في ساعة واحدة، فتتغير هذه المعادلات الظاهرية المكتوبة في لوح (المحوِ والإثبات)،و يتجلى ما هو مكتوب في (اللوح المحفوظ)، بإذن الله سبحانه وتعالى، لكننا إذا كنا من (المرابطين في ا لثغر الذي يلي إبليس) دائماً، عندئذ سنكون من المقربين الفائزين في الدنيا والآخرة إنشاء الله تعالى ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾[2].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى على محمد وآله الطاهرين.

---

(١) بحار الأنوار_العلامة المجلسي_ج١٣_ ص٤٢

(٢) الروم:٤_٥

[١٤]

لله تعالى الدِّين الحق
ومصاديق للشرك بالله



الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

نبارك لكم جميعاً مولد منقذ البشرية محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وبهذه المناسبة الشريفة نتشرَّف ببعض الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونستمر في منهجنا التفسيري ونكمل الحديث حول الآية القرآنية الشريفة، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي

أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1]

سنتوقف قليلاً عند مفردات ثلاثة في الآية الشريفة الثانية، وهي الكلمات المباركة: (رسوله)، وكلمة (الدِّين)، و(الحق).. (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق)، فعند كلمة (دين) سنتوقف قليلاً إن شاء الله، وربما بعض الشيء عند كلمة (الحق) إن سمح الوقت، وعند كلمة (الهدى)، وربما سيكون لنا بحثٌ لاحق وكلمات أخرى في الآية الشريفة..

من المعاني الدقيقة لكلمة (الرسول)

عند التدبر والتأمل والتحقيق في كلمة (الرسول)، نجد أن هذه الكلمة قد أشرب في معناها (الرفق)، و(السهولة)، و(اليسر)، و(التؤدة)، وإن كان الناس عادة لا يلتفتون إلى هذه المعاني الدقيقة في الكلمات، فإن الله سبحانه وتعالى، بل الحكماء ـ كل حسب قدراته وعلمه وطاقاته ـ عندما يطلقون كلمةً من الكلمات، فإنهم يلتفتون إلى كافة دلالاتها المُطابقية، والتضمنية، والإلتزامية، وسائر دلالاتها، من قبيل دلالة الإيماء والتنبيه، وكذلك دلالة الإشارة، وكذلك دلالة الاقتضاء، وغيرها..

وعندما نلاحظ كلمة (الرسول)، نجد أن هذه الكلمة، وهذه المادة ـ الراء والسين واللام ـ تحمل شُحنةً من الرفق، ومن اليسر، ومن السهولة، ومن التؤدة أيضاً، لماذا؟ لاحظوا؛ مادة الكلمة وبعض

(١) (التوبة:٣٣)

تصريفاتها حتى نرى الرسولﷺ، وكيف أنه أُرسل ورسالته مَشحونة، ومُشربة، ومعجونة باليسر، كما قال تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١] وبالسهولة كما قالﷺ (بعثت إليكم، بالحنفية السَّمْحَة)[٢]، وكذلك هي مشربة بالرفق، والسِّلم وما أشبه من هذه المعاني الإنسانية السامية..

تأملوا؛ نحن نقول: على رِسْلك.. بالعرف، يقولون: على رَسْلك، و الصحيح على رِسلك.. أي تمهَّل، أي على مَهلك، أي تحرك برفق، إنه يُريد أن يغضب، يُريد أن ينفجر، نقول له: على رِسلك، أي لا تغضب، تَحَلَّ بالرِّفق، تحلَّ بالليونة.

مصداق آخر: عند حدوث زحمة في الناس، والناس يتدافعون ماذا نقول.؟

نقول: على رسلكم.. أي لا تتزاحموا، لا يُضايق بعضكم بعضاً..فعلى رِسْلك، أو على رسلكم، فإذا كان أحدهم يمشي مُسرعاً حتى كاد أن يسقط من علٍ، من جبل، فنقول له: على رسلك؛ أي ترفَّق في المشي، لا تُسرع..

وفي مثال آخر تقول: شَعر رَسل (بالفتح)؛ يعني ليّن ومسترسل، أي أنه غير مُجعَّد أو ما أشبه ذلك، شَعر رسل أي فيه ليونة واسترسال ونعومة...فمادة الراء، والسين، واللام، تتضمن معنى الليونة، والرفق،

---

(١) (البقرة:١٨٥)

(٢) راجع البحار للشيخ المجلسي:ج٣٠ ص٥٤٨،وفيه قالﷺ : بعثت إليكم بالحنفية السمحة السهلة البيضاء ..

واللطف، واليسر..

وفي مثال آخر معروف نقول: إبلٌ مُرسلة، أو إبل مَراسيل؛ مراسيل؛ أي تنبعث بسهولة..هكذا يُفسرها اللغويون؛ إبل مراسيل، يعني تنبعث بسهولة فلا تجد صعوبة في بعثها وانبعاثها.

وكذلك في مثال آخر في علم الرجال نقول: مراسيل ابن أبي عُمير، في مقابل مَسانيد.. فالمُسنَد في مقابل المُرسل، والمُرسل أي ليس فيه قيد، ليس فيه ذكر سلسلة سندية،أنه غير متقيد بذكر سلسلة السَّند، لأن ذكر سلسلة السند فيه عناء، وفيه زحمة، لكن هذه مراسيل أرسلها، أطلقها، خلاها حرة سهلة..

الرسول ، رسول رحمة

فإذن مادة (الراء، والسين، واللام)، تتضمن وتدل بالدلالة التضمنية، على الرفق، والليونة، والسهولة، واليسر، وما يُعبَّر عنه؛ بالاسترسال وما أشبه ذلك.. فعندما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ نعرف الرسول هو المرسل؛ أي المنبعث بيسر،والمبعوث بسهولة، والمبعوث بلين، برفق وما أشبه ذلك..

والحاصل أن من معاني (الرِسل)، هو الرفق، كما يُصرِّح اللغويون راجعوا مجمع البحرين مثلاً، ومفردات الراغب الأصفهاني، وغير ذلك من الكتب اللغوية، فعندما تقول: الرِّسل كلمة (الرسل) تعني الرفق، تعني التؤدة، أو الرزانة، الإنسان أحياناً يتحدث بتؤدة بهدوء وبرزانة،و أحياناً يكون حديثه، أو مِشيته، أو ما أشبه ذلك بشكل أخرق، أو

أهوج، أو ما أشبه ذلك..

إذن هذه هي الحقيقة الأولى التي نتوقف عندها، في الآية القرآنية الشريفة ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ وهي أن هذا الإرسال كان إرسالاً بلطف، كان إرسالاً برفق، ولذلك النبي ﷺ رغم الحروب الهائلة التي شُنَّت عليه طوال ثلاث وعشرين سنة،[1] كان يتحرى أبلغ التحري أن يقلِّصَ عدد القتلى من الطرفين إلى أبعد حدٍّ؛ ولذلك على حسب إحصاء بعض المؤرخين فإن مجموع القتلى من الطرفين كان حوالي الألف رغم أن الحروب والغزوات تجاوزت النيف وثمانين حرباً.

وحيث تعرف الأشياء بأشباهها كما تعرف بأضدادها لاحظوا مثلاً في الحرب العالمية الأولى، أو الثانية كم مليون إنسان قُتل، بل في الحروب سابقاً كان يقتل مئة ألف شخص، أو مأتا ألف انسان...ولكن النبي ﷺ وبذكاء، وتخطيط عسكري متطور جداً كان يحاول أن يُقلِّصَ عدد القتلى من الطرفين إلى أبعد قدر ممكن..

فـ (رسالة) رسول الله ﷺ هذه عُجنت بالرحمة، واليُسر، والرفق، وما أشبه ذلك.. هذه هي الحقيقة الأولى.

ومنها نستنبط أيضاً أنه: لو أننا على ضوء ذلك تأسينا برسول الله ﷺ ولو اقتدينا بتعاليمه، ولو مشينا على ضوء شريعته الغراء، لكُنا في يُسر وابتعدنا عن العُسر وما أشبه.. كُنا في يسر حقيقي، كنا في راحة، كنا مطلقي السراح من القيود الكابتة التي تفرضها الحكومات الجائرة كما

---

(١) عدد غزوات وحروب الرسول الأعظم ﷺ نيف وثمانون غزوة وسرية،كما بينت كتب السيرة والغزوات..

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1] و﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[2]

إن الآصار والأغلال، لا توجد في الدين؛ بل هو دين سَمْح وسهل، والأصل فيه الرفق والرحمة والرقة، في كل الأبعاد فلو أن الإنسان تأسى، وعمل، واقتدى، والتزم، بتعاليم الدين؛ فإنه سيكون سعيداً في الدنيا قبل أن يكون سعيداً في الآخرة.. هذه إشارة بسيطة أولى لهذه الكلمة، والحديث حولها مُنوَّع، ومُتعدِّد، ومُفيد أيضاً لكننا بنيناعلى الاختصار في التأمل في كل كلمة، كلمة من هذه الكلمات الربانية القرآنية الإلهية..

موقفان في مواجهة الرسالة

في مقابل إرسال الله سبحانه وتعالى للرسل هنالك، موقفان:

الموقف الأول: هو موقف الكفر..

الموقف الثاني: هو موقف الشرك..

والآية الأولى أشارت إلى موقف الكفر، والآية الثانية إلى موقف الشرك: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾

إذن هناك جبهتان ـ بنحو (لا بشرط) بالطبع لا بنحو (بشرط لا)ـ

---

(١) (البقرة:٢٥٦)

(٢) (الأعراف:١٥٧)

هنالك جبهتان في مقابل إرسال الله سبحانه وتعالى للرسل، وفي مقابل الرسول، جبهة الكفار الذين ينكرون أصل المُرسِل، أو المُرسَل، أو الرسالة..

والجبهة الثانية: هي التي تقبل أن هناك مُرسلاً هوالله سبحانه وتعالى، وهناك رسول، وهناك رسالة لكنها تقول بالحلول الوسط، [نقول] بالشرك، أنت موجود، وأنا موجود؛ كلامك حقٌّ، وكلامي حق.. فتعال قَسم لي، وقسم لك والله خير الرازقين..

الله يرفض ذلك ـ ولاحظوا الدقة في الآية الثانية ـ الآية الأولى تشير إلى إنكار الأصل؛ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أصلاً، الأصل يرفضونه، إنهم يقارعون، ويعارضون أصل نور الله سبحانه وتعالى؛ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ﴾ مَنْ.؟ الذين ينكرون الأصل(الكافرون)، و الآية الثانية تتحدث عن المشركين، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.. فالمشرك، يقول: الله موجود لكن.. يقول هناك إله ثاني إلى جوار الله...

الشرك وسياسة الحلول الوسطى!

ولاحظوا الدقة في الآية الشريفة فإنها حقيقة ولطيفة ودقيقة إذ تصرح بـ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وكما ترون فإن الحديث حول (كل الدِّين) و﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، وليس الحديث حول أن لك بعض الدِّين، لك بعض الحيِّز والصلاحية، فقسم لي وقسم لك...كلا لايحق لك أن تأخذ بعض الحق

وبعض الباطل فتمزجهن وتقول بـ (جمع الكلمة) و(الحل الوسط) فالهك موجود صحيح لكن أيضاً المسيح ابن الله سبحانه وتعالى!! كلا...لا حل وسط...ولا معنى للقول بأن كلامك صحيح وكلامي صحيح، ولا مجال للقول: تنازل وأتنازل، بل ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، إن المشرك لا يكره أصل الدِّين، إنه يقول: لا إشكال في أن الله موجود، ولكنه يقول بالشرك أيضاً، هناك إله ثاني، وهناك إله ثالث لكن الله يقرِّر ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾..

الشرك في المبدأ والمنهج والحكم

و(الشرك) ما هو (الشرك)؟هنا يجب أن نتوقف توقفاً آخر:

إن الشرك تارة يكون في المبدأ، و تارة يكون في منهج المشرك؛ تارة يُشرك بـ (الله) غيره، ويجعل لله أنداداً، وأضداداً.. وتارة لا، بل يجعل قوانين مبتدعة، يقول: قانون الله صحيح، لكن أنا أجعل أيضاً من تلقاء نفسي قانوناً.إن هذا مشرك في حكم الله الذي له الحكم والتشريع وحده (ألا له الحكم) لله الحكم لا للغربي، ولا للشرقي، ولا للمادي الملحد ولا لمدعي الدين والتدين، ولا لهذه القوانين الوضعية الجديدة المستحدثة المبتدعة ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾..

لاحظوا الدقة في الآية الشريفة... فأنت إذا جعلت لله شريكاً في حُكمه، وفي قراراته، وفي منهجه ودساتيره،فإن الله سيُحاسبُك حساباً سريعاً في الدنيا قبل الآخرة ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾؛ وفي أية أخرى يقول جل إسمه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، أما هنا فإنه

يقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الناس ـالكثير منهمـ يريدون أن يصيروا شركاء لله في الحُكم...ولنمثّل لذلك بسلسلتين ومجموعتين من الأمثلة..

المجموعة الأولى في الجانب الاجتماعي؛ أي سلسلة من الأمثلة السريعة في الجانب الاجتماعي..

المجموعة الثانية في الجانب العقائدي؛ سلسلة أخرى في الجانب العقدي أو العقائدي..

١. تحديد النسل

الله سبحانه وتعالى وعلى لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال: تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط..[1] رغَّب في تكاثر النسل.

لكن ماذا يقول الإنسان المشرك؟ ـ والعياذ بالله ـ إنه يقول: لا، يجب تحديد النسل، ويذكر لذلك ألف برهان ودليل،وكأن الله سبحانه لم يكن يعرف،و الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يعرف، وهو يعرف أن تحديد النسل له فوائد وأنها أهم من ما ينجم عنه من أضرار، كما أن قوماً قالوا الخمرة لها فوائد كذلك؛ إن هذا الإنسان مُشرك بالحُكم، إن الشرك ليست له (قرون) ليظهر للعيان،ولكنه قد يكون شركاً بالمعنى الأخص، في مقابل التوحيد..(التوحيد الذاتي)، وقد يكون في مقابل توحيده سبحانه تعالى في أحكامه، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[2]، فالمشرك في احكام الله وتشريعاته يقول: بتحديد النسل..

(١) البحار للشيخ المجليسي: ج٤٤ هامش ص١٦٩.

(٢) (الأنعام:٦٢)

الله سبحانه أين هو إذن؟

وأين هي تأكيدات السماء المتتالية على التناكح والتناسل وعلى الإكثار من الذرية وأن تُثقِّل الأرض بمن يقول ويشهد بـ (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)...

٢.الزواج المتأخر

ومثال آخر هو الزواج المبكر فان الإسلام يؤكد على الزواج المُبكر،والإمام المعصوم عليه الصلاة والسلام يقول: من سعادة المرء أن لا تطمث ابنته في بيته..[1]

أما في مجتمعاتنا ـ ومع الأسف ـ ، فتجعل للزواج سناً متأخراً جداً: خمس وعشرين سنة، ثلاثين، تشترط شروطاً ما أنزل الله بها من سُلطان... وهذا شرك بالله، في أحكامه...ثم نقول:لا زواج قبل التوظيف والوظيفة؟... وأين قرأتم في الروايات أن من شروط الزواج أن تكون عنده وظيفة؟... ونقول: يجب أن يتخرج من الجامعة؟ هل الله سبحانه وتعالى لم يكن يعرف أن هناك مدارس وجامعات؟ وهنالك بَطالة صريحة أو مقنعة أو لا بَطالة؟ لكن الله سبحانه ماذا يقول؟

يقول في كتابه الكريم: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2] هل قال سبحانه ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ﴾ فليبحثوا عن وظيفة وعمل أولاً؟ وهل قال جل إسمه ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ﴾ إذا تخرجوا

---

(١) الكافي للشيخ الكليني :ج٥ ص٣٣٦،والرواية عن الإمام الصادق(عليه السلام)..

(٢) (النور:٣٢)

من الجامعة؟

فإذا تخرجوا من الجامعة فبعد ذلك أنكحوهم؟ ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ﴾ إن المشكلة أن الناس يتعللون بأعذار واهية للشرك بالله في أحكامه! رغم أن الله يصرح بضرورة تجاوزها وعدم الإعتناء بها ـ وذلك ككونهم فقراء، ومن الغريب أن يحتج البعض بعدم وجود الفقر في تلك الأزمنة!![1]

فالله سبحانه لا يقول على الفقراء أن لا يتزوجوا، بل الزواج حكر على الموظفين، إنه يقول بوضوح شديد ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، الله يقول: (أنا الرزاق) وانا الذي آمر بالزواج رغم الفقر فماذا بعد؟

السيد الوالد رضوان الله تعالى عليه كان يقول:لو أن ثرياً جواداً كريماً سأل فقيراً أو عاطلاً عن العمل لماذا لا تتزوج؟ فقال:ما عندي مال..

فقال التاجر: أنا أعطيك مالاً لتتزوج وأضمن كافة النفقات من مهر وتكاليف أخرى، وأضمن لك راتبك أيضاً مدى الحياة، وهل يقبل ألا يتزوج هذا الفقير أو العاطل عن العمل بعد هذا الوعد المضمون؟... حسناً...كيف نقبل كلام تاجر ولا نقبل كلام الله؟

إن الله تعالى يقول ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2] بكل معانيه، بكل مفرداته، بكل أجزائه، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ بالله في ذاته، أو

---

(١) إذ أولاً :ما أكثر الفقراء في ذلك الزمن وثانياً أن الآية عامة وتصرح بالكبرى الكلية، ولا إختصاص لاحكام القرآن بزمن دون آخر كما هو بديهي.

(٢) (التوبة :٣٣)

صفاته، أو أفعاله وأحكامه جل إسمه...

من أسباب الفساد

والآن نتساءل:

لماذا (الفساد) في المجتمع قد ازداد؟

الجواب واضح:

لأنهم رفعوا سنَّ الزواج وعقّدوه، وأخّروه، بكل حيلة ووسيلة ممكنة... إن الشاب له حاجة، والشابة لها حاجة، وباب الفساد ـ والعياذ بالله ـ مفتوح، وذلك كشخص جائع، وأنواع الطعام متوفرة لديه، وأنت تقول له: لا تأكل...إنه ـعلى الأعم الأغلبـ سوف يأكل، ولا يهتم كثيراً بكون الطعام حلالاً أم حراماً...مغصوباً أو لا...مذبوحاً على الطريقة الشرعية أو لا...إلا من عصمه الله...إن هذه حاجة من الحاجات ويجب أن تروى، ولكن بطريق شرعي...وأي تأخير...وأي فلسفة لذلك لاتصب إلا لصالح الفساد والشيطان.

والآن لنعد إلى نفس السؤال:

لماذا الفساد ازداد بشكل رهيب في العالم.؟

لأننا نقول: (قال الله، وأقول) هذا كلامنا وإن لم نصرح به؛ (قال الله وأقول) إن أعمالنا ومواقفنا تحكي عن ذلك...الله يقول: (أنكحوا)، ونحن نقول: (لا تنكحوا).. الله يقول: (بكروا في الزواج)، و نحن نقول: (لا تبكروا) ونمتلك ألف دليل على ذلك!!

طبعاً الباطل له أدلة وقد قال تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] الباطل أيضاً له أدلة، الله سبحانه وتعالى يقول عبر رسوله الأمين والأئمة المعصومين: مهر الزواج ينبغي أن يكون بسيطاً كمهر الزهراء (عليها الصلاة وأزكى السلام) خمسمائة درهم.. نحن نقول: لا كلام الله غلط ـ لا نقول ذلك بهذه الصراحة لكن عمقي، وعملي والعياذ بالله يشهد بذلك ـ نقول:في الزواج اللازم أن يكون المهر كذا، والمقدمات كذا، وأن تكون الشقة كذا.. أين تجدون ذلك في القرآن الكريم، أو في الحديث الشريف؟ هل من شروط الزواج الشقة المفروشة؟ بل إن التاريخ يشهد أن الإنسان كان يتزوج، والزوج ينتقل إلى بيت والد الزوجه أو بالعكس، وتخصص لهم غرفة واحدة من البيت، وكانت تكفيهم، وكانوا بذلك راضين قانعين...وكانوا يعيشون أسعد حياة،لا أمراض نفسية، ولا عقد ولا فساد...ولا ديون متراكمة لتسديد إيجار الشقة أو التأثيث الفاخر...ثم بمرور الأشهر أو السنين وبعد أن يشتد صلب الزوجين قد ينتقلان إلى بيت مستقل.

وهناك إحصاء سأقرأ لكم بعضه يقول: إنه في بلد إسلامي نفوسه ربما أقل من ثمانين مليون نسمة، يوجد أربعة عشرة مليون إنسان مُصاب بمرض نفسي لماذا؟

لأننا نقول ـ بلسان الحال ـ قال الله ولكن قول الله غلط ـ والعياذ بالله ـ ونحن كلامنا صحيح، نفول تحديد النسل واجب، وضرورة ـ والعياذ بالله ـ الزواج المبكر غلط، في غلط، في غلط؛ الزواج البسيط خطأ

(١) (آل عمران:٧١)

وفضيحة، وماء وجهي أين أوديه؟الله يعرف ماء الوجه أحسن، أو الإنسان يعرف؟ لذا (١٤) مليون إنسان مُصاب بأمراض نفسية في بلد إسلامي.. ورقم (أربعة عشر مليون) رقم جداً غريب، إنه يعني عشرين بالمائة من نفوس ذلك البلد أو ما يقرب من ذلك...والسبب هو(قال الله وأقول)...

إذن الله سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ ماذا يعني؟ إنه يعني العقيدة والشريعة معاً...فكل حكم شرعي ـومنه كل ما سبقـ فإنها كلها من مفردات الدِّين، ومَنْ لا يقبل ذلك بألف عُذر، وعذر فهو مُشرك بالله في أحكامه.

هذه بعض الأمثلة البسيطة في المظهر القانوني الاجتماعي للمشرك أي لمشركي العصر الحديث، الذين لهم صولة وجولة، وقد تكون لهم لحية وجبّة، وأيضاً شعائر ومشاعر، وعلائم أخرى، وقد يستدلون بألف دليل ودليل، ولكن الجوهر هو الشرك بالله في أفعاله وأحكامه...أعاذنا الله وإياكم من ذلك...

٣.هل (حسبنا كتاب الله) شرك؟

جانب آخر من الشرك بالله وفي أحكامه سبحانه وتعالى،هو إلغاء حجية كلام رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار، وإلغاء دوره والحاجة إليه في التشريع والحكم والتفسير...مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1] ويقول

(١) (الحشر:٧).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[١] أليس هذا في كتاب الله سبحانه وتعالى؟

ولكن ذلك الرجل، يقول: (**حسبُنا كتاب الله**)[٢]، أليس هذا شركاً؟؛ في مقابل الله، يرفع رأيه ويقول: (قال الله، وأقول)...يقول: (حسبنا كتاب الله)...والله يقول لا يكفيكم كتاب الله، بل تحتاجون رسول الله ﷺ أيضاً، فإنه هو المفسِّر، هو المبيِّن، هو الموضِّح، هو المفصِّل للكتاب.. الكتاب فيه ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣]

وفي آية أخرى يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[٤] الرسول حَكَم، كلا...لا يصح (حسبنا كتاب الله)، الله لا يقول (حسبنا كتاب الله) وإنما يقول: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾... ويقول ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ويقول ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[٥]

---

(١) النحل:٤٤

(٢) صحيح البخاري ـ البخاري ـ ج ٧ ـ باب المرضى والطب ـص ٩: لما حضر رسول اله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي صلى الله عليه وسلم هلم اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده فقال عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله(!!)

(٣) (آل عمران:٧)

(٤) (النساء:٦٥)

(٥) الحشر:٧

وإلا لكان إرسال الرسول لغواً، وعبثاً، ولاحظوا تشديد الله تعالى عبر هذا القسَم وهذه الصرامة: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ـ إذن حسبنا كتاب الله غلط ـ ﴿حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾.. والرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: إني تارك فيكم الثقلين أو الثقلين، كتاب الله (ولكن هل قال حسبنا كتاب الله؟... كلا! وهل الكتاب يكفي الأمة؟...كلا... أبداً، بل هناك أمر آخر، وثقل ثاني عظيم جداً وهو: (**وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبدا..**)[1]

هذا هو دين الله، ومَنْ لا يقبله فهو مُشرك، ذلك أن الشرك على قسمين والمشرك مشركان:، مُشرك بالمعنى الأخص، أو مُشرك بالمعنى الأعم[2]، فالمشرك بالمعنى الأخص هو: من يُنكر وحدانية الله سبحانه وتعالى، والمشرك بالمعنى الأعم هو: من يخترع قوانين ويبتدعها في قبال قوانين الله تعالى، أو يُقصقص بعض قوانين الكتاب والسنة، أو يقول ولو بلسان حاله وأفعاله: (أنا شريك لله في التشريع، وقال الله وأنا أقول واضيف إلى كلام الله سبحانه وتعالى شيئاً جديداً أو احذف منه شيئاً) أو يقول: (مصدر التشريع أنا أحدّده وليس الله...أنا أقول حسبنا كتاب الله... ولا علي إذا قال الله ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ بل الحكم القرآن فقط، حسبنا كتاب الله!! ولا علي إذا قال الله ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ بل

---

(١) البحار للشيخ المجلسي :ج٢ ص١٠١،وفيه تفصيل طويل حول هذا الحديث المتواتر لدى المسلمين جميعاً..

(٢) الشرك بالمعنى الأعم معصية كبيرة فإن استلزمت أو جرت إلى إنكار الضروري من الدين،سببت الخروج عن الإسلام وإلا كانت معصية كبيرة يستحق عليها العقاب ويبقى محكوماً بأحكام الإسلام الظاهرية.

حسبنا كتاب الله فهو الواضح الذي فيه تبيان كل شيء!! ولا علي إذا قال الله ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ بل حسبنا كتاب الله فما أتانا كتاب الله ناخذه ولاغير!).

٤. بدعة إحترام الصحابة و أهل البيت معاً

ثم بعد ذلك لنشر إلى البدعة الجديدة التي تبناها البعض فخاطب أتباع أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام) وقال: نحن نحترم أهل البيت، وأنتم تعالوا احترموا الصحابة...

إذن هذه (مقايضة): نحن نحترم أهل البيت فاحترموا الصحابة...

نقول له:أنت تحترم أهل البيت عليهم السلام؟ أن واجبكَ الشرعي هو أن تحترم أهل البيت فليس هذا امتيازاً تعطيه لي، إنه امر الله الصريح...فقد طهرهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]

مُطهرون نقيات ثيابُهُم

تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا

وقد فرض الله عليك مودتهم، بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2]

هذا ليس امتيازاً تعطيه لي، بل هذا أمر إلهي واضح وصريح، عليك أن تتبعه لو أردت أن تكون مؤمناً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى انت تقول:إحترموا الصحابة...ونقول لك ونسألك: هل أنت كلامك الحق

(١) (الأحزاب:٣٣)

(٢) (الشورى:٢٣)

وأحق أن يُتَّبع.. أم كلام الله؟

ونسألك سورة (المنافقون) نزلت في مَنْ؟ هل نزلت في أناس من الصين، أو جماعة يعيشون في المريخ؟ أو إنها نزلت في صحابة رسول الله ﷺ، حيث خاطبه الله سبحانه، فقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾[1] مَنْ كان هؤلاء؟ ألم يكونوا من أصحاب رسول الله الذين شاهدوه ورأوه وسمعوا كلامه، وشهدوا أيضاً الشهادتين؟ والأدلة والشواهد من الآيات عديدة بل كثيرة...

البخاري يصرح: بعض الصحابة في النار!

ولكن لنترك ذلك كله، وتعال إلى صحيحك نفسه، في الصحيح ماذا يقول؟

إنه يصرح بأن قسماً من صحابة رسول الله ﷺ في يوم القيامة سوف يكونون من أهل النار يُذهب بهم ذات الشمال إلى النار؛ في هذه الرواية الموجودة في رقم (٦٥٢٦)من صحيح البخاري، باب ٤٥ باب كيف الحشر...ومثل هذا الحديث يوجد في رقم(٤٧٤٠) باب: كما بدأنا أول خلق نعيده من تفسير سورة الأنبياء...قام فينا النبي ﷺ يخطب، فقال: أنكم محشورون حفاة عراة غرلا، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾[2]...وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم

---

(١) (المنافقون :١)

(٢) (الأنبياء :١٠٤)

الخليل، وإنه سيجاوأ برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول ـ النبي يقول ـ يا رب يا رب أصحابي.؟ فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك...فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قال: فيقال إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم)، إنتهت رواية البخاري في الرقم ٦٥٢٦.

الله سبحانه وتعالى يأمر ببعض أصحاب رسول الله إلى النار ـ وهم أصحابه بنص كلامه ﷺ حيث قال: يا رب أصحابي...ثم تقول:الصحابة كلهم من اهل الجنة؟ وعليك ان تحترمهم جميعاً...الله تعالى يقول كلاماً، وتقول كلاماً آخر، مَنْ هو الذي يجب أن يُتَّبع؟ أنت أم الله الواحد القهار؟...سبحانه وتعالى عما يشركون.

إن هذا يعد نوعاً من الشرك، أن تقول بكلام في مقابل كلام الله؛ بشهادة رسول الله فإنه ﷺ يكشف بوضوح عن أن بعض الصحابة في النار، وصحيح البخاري يشهد على ذلك، وأنتَ تُقدِّس كل الصحابة، وتقول: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم..كيف يكونوا كالنجوم وأحدهم يقتل الآخر؟ بل إنَّ كثيراً منهم قتل الكثير منهم!...كيف يكونوا كالنجوم وبعضهم في النار؟...كيف يكونوا كالنجوم (بأيهم إقتديتم إهتديتم) وبعضهم قد فسّق البعض الآخر أو ضَلَّلَ الآخر ـ اعتبره ضالاً ـ بل كفرّ البعض الآخر...

بعضهم يقول: القرآن مخلوق، وبعضهم يقول له: أنت واجب القتل إذا قلت بخلق القرآن، أو قِدَم كلام الله أو ما أشبه..

أحدهم يقول: بالجبر، والآخر يقول بغير ذلك؛ واحدهم أشعري والآخر معتزلي..وكان هذا الخلاف منذ زمان رسول الله ﷺ وكانت الأقوال المختلفة في شتى الشؤون موجودة، قد قتل بعضهم بعضاً، و كفَّر بعضهم بعضاً، وفَسَّقَ بعضهم بعضاً، ثم يكون كلهم كالنجوم؟

هذا هو التناقض بعينه، وقد بان الصبح لذي عينين وقد ﴿خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾.

المعاني الثلاثة لـ (الدين)

والآن لنتوقف قليلاً عند كلمة (الدين) في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ ونتطرق لبعد من أبعاد هذه الكلمة...﴿ٱلدِّينِ﴾: تأملوا؛ ﴿ٱلدِّينِ﴾ ماذا يعني؟

إن أحد معاني الدين؛ هو (الطاعة)، والآية الشريفة تقول: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[1] أي دائماً، وله الدِّين، أي له الطاعة، فأنت عليك أن تطيع الله ولايحق لك ـ بدلالة العقل والفطرة والوجدان ـ أن (تجتهد) في أيَّة قضية كانت في قبال (النص) وفي قبال ما شرعه خالقك وخالق الكون كله، ومن بيده المبدأ والمعاد، ومن له الأولى والأخرى، ومن هو أعرف بك من نفسك وأعرف بما يصلحك ويفسدك وبما هو الأصلح للمجتمع وبما هو الأصلح للمجتمع وبما هو الأصلح للنظام الكلي.

---

(١) (النحل:٥٢)

ذاك الإنسان، يقول: كيف تكون دِيَةُ المرأة نصف دِيَة الرجل؟ وكيف إرث المرأة نصف إرث الرجل؟ وكيف لاتقبل شهادة المرأة في بعض القضايا؟...والله تعالى يقول (وله الدِّين) إن عليك أن تطيع الله وتتبع تعاليمه،لا أن تطيع كل إنسان ضال مُشرك بالله سبحانه وتعالى في دينه ومنهجه وقوانينه ودساتيره.

إن (الدِّين) ـ كما سبق ـ من معانيه الطاعة ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ وفي آية أخرى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1] أي في الطاعة أي لا تكره أحداً على طاعة الله، حسب بعض التفاسير، في هذه الآية القرآنية الكريمة، فالدين من معانيه الطاعة ولا إكراه فيه، إلا أن من ينتهكه فهو عاص،يستحق عليه العقوبة الأخروية، وإن لم يكره على العمل به في الدنيا، إلا في حدودٍ ضيقة دلّ عليها الدليل الخارجي وذكرها الفقهاء في كتبهم الفقهية، إلا ان الأصل هو ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾...

ومن معاني الدين؛ الجزاء ففي قوله تعالى ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[2] يراد بالدين: الجزاء أي مالك يوم الجزاء، إذن من معاني الدين الجزاء؛ وأيضاً هناك آيات أخرى عديدة تفسر بذلك كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾[3] وإن الدين لواقع ماذا يعني؟ يعني أن الجزاء لواقع، وهو في يوم القيامة، إذن الدِّين من معانيه (الطاعة)، كما أن من معانيه (الجزاء).

(١) (البقرة:٢٥٦)
(٢) (الفاتحة:٤)
(٣) (الذاريات:٦)

(الشريعة) أُشرب في معناها: الطاعة والجزاء

ومن معانيه ـ وهنا بيت القصيد والشاهد في هذا البحث ـ والذي أُشرب المعنيان السابقان وهما المعنيان الأصليان للدِّين، فيه ـ هو: (الشريعة)، إن هذا هو المعنى المتداول عندنا، لكن المعنى الأصلي للدِّين هو (الطاعة)، وهو (الجزاء)، ثم استُعير الدين من المعنيين لمعنى (الشريعة) كـ (الشريعة الإسلامية) الغراء، والتي تُسمى بالدِّين، فتقول: الدِّين الإسلامي، أو تقول: الدِّين المسيحي، الدِّين اليهودي ما أشبه ذلك...فـ (الدين) يعني الشريعة وقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] يعني لكم شريعتكم، ولي شريعتي أو ما أشبه ذلك، هذه من الآيات القرآنية الشريفة التي استخدمت الدِّين بمعنى الشريعة، وهي كثيرة..

ولكن لاحظوا اللفتة الدقيقة، فإن (الشريعة) قد أشرب فيها، معنى الطاعة، وأشرب فيها معنى الجزاء، وهذا يعني أنه عندما يأتيك (شرعٌ) من الله و(تشريع) و(قانون) و(أمر أو نهي أو حكم) فإن قوامه، ومقومه (أن تُطيعه)، لأنك لو لم تُطع لجُزيت وحُوسبت..

فمعنى الشريعة ـ وهو المعنى الثالث للدين ـ في الواقع قد حمل شحنة من كلا المعنيين الأولين لدى التأمل الدقيق في هذه الكلمة والمفردة وقد (أشرب) بالمفهومين أيضاً.والآن لنلاحظ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ ماذا يعني دين الحق؟

(١) (الكافرون:٦)

إنه يعني (شريعة الحق)، أو (طريقة الحق) والتي قوامها (الطاعة)، والتي قوامها (الجزاء)، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾..فعلى العبد أن يُطيعَ، فإذا لم يُطعْ فإنه سيجازى، بأن يكون شقياً في الدنيا ـ كأثر وضعي ـ ومعاقباً أو من أهل النار ـ والعياذ بالله ـ أو العذاب في الآخرة..

فالدين إذن هو الشريعة، والجدير بالذكر أن بعض الأعلام ارتأى أن (المدينة)، سُميت بالمدينة لتضمنها هذين المعنيين، لأنها من نفس المادة (دين)، ولتضمنها هذين المعنيين، فلماذا يُسمون المدينة، مدينة؟ لأن فيها تضمَّن معنى (الطاعة)، أنت في الصحراء حر، في الغابة حر، متى تمشي، وأين تمشي وكيف تمشي؟ وبأيِّ وقتٍ تنام، وماذا تأكل أو تصطاد...وألف شيء وشيء...ولكن في (المدينة) هناك قوانين، هناك ضوابط، فأنت عليك أن تطيع سواء كانت بحق أم بباطل، بَراً كان أو فاجراً ذلك الحاكم، إذا لم تُطع تلقى الجزاء.. فالمدينة سميت بالمدينة؛ لأنها تتقوَّم بالركنين (الطاعة)، و(الجزاء)، وبالشرائع التي تُجعل في تلك المدينة...

فالدين؛ يعني الشريعة التي تتقوَّم بالطاعة من جهة، وبالجزاء من جهة ثانية، فلو أن الإنسان لم يُطع الله سبحانه وتعالى في أية مفردة من المفردات كان خارجاً عن طاعة الله وولايته بنفس المقدار وداخلاً في طاعة الشيطان وولايته بذات النسبة، وإستحق الجزاء على ذلك أيضاً...

٥.كثرة السجناء والبطالة

وأؤكد مرة أخرى وأنتقل لمثالين آخرين، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ ولكن لماذا؟ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ يعني ليكون (الدين الحق)ـ على تفسير أو الرسول الحامل لراية الدين الحق على تفسير أخرـ هو الأول والآخر، وهو المرجع والفيصل والمحك والحاكم والظاهر على الأديان كلها، وهو الذي يُسيطر على شتى مناحي الحياة السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الفردية، العائلية، وغير ذلك.. وإذا لم يكن ذلك فإن الإنسان سيكون مُشركاً وسيجازى جزاءً سريعاً..

لماذا ٦٠٠ ألف سجين؟

وسأقرأ لكم بعض الإحصاءات السريعة؛ في بلد نفوسه أقل من ٨٠ مليوناً وهو بلد إسلامي، ولكن لاحظوا عندما الإنسان يبتعد عن منهج الله سبحانه وتعالى ماذا يحدث له ولبلاده.

في هذا البلد هنالك في السنة الواحدة يدخل إلى السجن (ستمائة ألف) إنسان ويخرج من السجن (ستمائة ألف) إنسان، يعني بين داخل وخارج.. بلد إسلامي سكانه أقل من (٨٠ مليون) نَسَمَة... لماذا؟

لأنه لا يُعمل بالدِّين،لأنه إذا عُمل بالدِّين الحنيف، السَّهل، ذي اليُسر، ما كان يقع ما وقع..

أمير المؤمنين (عليه صلوات المصلين) كان في الكوفة، ـوالكوفة كان نفوسها (أربعة ملايين) إنسانـ ، كم سجيناً كان فيها؟ كانوا يعدون بالأصابع، بل إن الأميرعليه السلام صنع سجناً من أعواد القصب...تصوروا سجناً من أعواد القصب مبني بطريقة هَشَّة، ولم يترك عليه حرّاساً،

وعندما يخيم الليل كان السجناء يكسرون القصب ويهربون، فقالوا للأمير عليه السلام شأن السجن هذا، فقال ما مضمونه:أن ذلك هو المطلوب... ذلك أن فلسفة الدين وفلسفة أميرالمؤمنين هي أنه لايريد من السجن الناس إلا بقدر الضرورة القصوى وكأكل الميتة،لذلك يصنع السجن، سجناً من أعواد القصب، ليكسر السجين القصب ويهرب،وإذا هرب دعه يهرب يكفيه هذا القدر من (التعزير)...وفي المقابل هنالك في هذا البلد الإسلامي الواحد،كل هؤلاء السجناء لماذا؟ لأن هذا الحكم لا يمشي على الدِّين الإسلامي، ستمائة ألف سجين سنوياً يدخلون إلى السجن أو يخرجون.

١٤ مليون مريض نفسي...

وفي ذلك البلد أيضاً (أربعة عشر مليون) مريض نفسياً لماذا.؟لأن دين الله ليس هو الحاكم، هذا واضح عندما يحكم دين الله في الزواج، في السياسة، في الاقتصاد، في الاجتماع، في الحقوق، بعدها لا ترون هناك مريضاً إلا نادراً جداً.. أربعة عشر مليون مريض نفسي؛ أربعة عشر مليون فقير، أمير المؤمنين (عليه الصلاة وأزكى السلام) إمبراطوريته التي كانت تمتد على مساحة خمسين دولة بجغرافية اليوم، عن فقراء هذه الإمبراطورية العظيمة، كان يقول: **ولعل بالحجاز أو اليمامة ـ كانتا بلدتين من أفقر البلاد الإسلامية ذاك الوقت ـ من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطوناً غرثى..**[١]

انه صلوات الله عليه (يحتمل) فقط أن يكون هناك إنسان واحد

---

(١) نهج البلاغة :من كتاب له(عليه السلام) لعثمان بن حنيف الأنصاري واليه على البصرة..

هكذا!!ورغم أن حكومته (عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام) إمتدت لأربع سنين وأشهراً، وكانت مع ذلك، مليئة بالاضطرابات، والحروب، والفتن الداخلية التي أثارها الأعداء.. ولكن ـ ومع ذلك وعندما طبق دين الله على يدي ولي الله ـ ما كنتَ تجد في ذاك البلد فقيراً واحداً، ولذا فإن الأمير عليه الصلاة وأزكى السلام على شدة إحتياطه ودقته وإتقانه في الكلام يصرح بهذا، ومع وجود شهود كثر، وأعداء كثر، ومنافسين كثر، ومتصيدين بالماء العكر كثر،فانه إذا كان في كلام الأمير أدنى مبالغة، كان يقوم احدهم ويعترض، ويقول: كلا هناك فقراء وبكثرة.

٦.الأرض لله ولمن عمرها

لكنك تجد في هذا البلد الإسلامي (أربعة عشرة مليون) فقير، (ستة ملايين) شاب عاطل عن العمل وهذا يعني هدر طاقات ستة ملايين شخص، إضافة إلى الأضرار الكبيرة بل الأخطار الهالكة التي تنجم عن البطالة.

و(الإحصاء) عن مآسي ذلك البلد وسائر بلاد الإسلام طويل،ولكن السؤال هو لماذا كل هذا البؤس؟

والجواب واضح: لأن قوانين الله سبحانه وتعالى غير مُطبَّقة، إن الله وعلى لسان رسوله المصطفى محمدﷺ يقول: **الأرض لله ولمن عمرها..**[1]

ونحن نقول (قال رسول الله، ولكن كلام رسول الله غلط) ـ والعياذ

(١) الكافي الشريف للشيخ الكليني :ج٥ ص٢٧٩..

بالله- لا نقول ذلك باللسان إذ من يجرؤ؟ ولكننا نقول ذلك في (الاستدلالات) التي نقيمها على أن الأرض للدولة...وإلا لزم كذا وكذا من الأضرار والمفاسد...

نقول:الأرض ليست لله، إنها للدولة وما حاصل ذلك ونتيجته؟... الناتج هو كثرة الأراضي البوار في مثل هذا البلد من البلاد الإسلامية، بل في كل العالم نجد الأراضي البوار كثيرة جداً، وخَلْقُ الله فقراء ومحرومون منها، وذلك لأن الأرض منحت للدولة، والناس حرموا من زراعتها وبناءها ورعيها إلا بألف شرط وشرط وإلا بعد دفع مبلغ كبير لأرض لا تملكها الدولة بالأساس بل هي (لله ولمن عمرها)، بل القرآن يصرح بأن الأرض، وكل ما فيها وعليها هي للناس ولخلق الله المساكين اذ قد خلق الله الأرض لهم؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم (خلق لكم وليس للحكومة) مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1].

إن نسبة البطالة تتناقص بل ستنعدم إذا كانت الأرض للناس ويحق لكل إنسان أن يزرعها وأن يرعى فيها، وأن يبني عليها داراً أو معملاً أو مؤسسة أو مركزاً، فأين يبقى عندئذ مكروب؟ وأين يبقى حينئذٍ فقير، وأين يبقى بعد ذلك عاطل عن العمل؟

إن معارضة قوانين الله كقانون: (الأرض لله ولمن عمّرها) هي نوع من الشرك بالله في أحكامه، إذ يقول هذا المشرك: (قال الله،وأقول)... فهذا نوع من الشرك لأنه يستبطن دعوى (الأعلمية) من الله سبحانه وتعالى والعياذ بالله، ثم إن (المشرك) حيث لم يطع الله سبحانه وتعالى فسيجازى

---

(١) (البقرة:٢٩)

بالشقاء بالدنيا وبالعذاب في الأخرى...

انطلاقاً من ذلك كلها علينا أن نضع هذه الآية القرآنية الشريفة نصب أعيننا دائماً، وأن الهدف من إرسال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو (ليظهره)ـ أي الدين الإسلامي أو الرسول بما أنه رافع راية الدين الإسلامي- على الأديان كلها فعلينا أن نسعى لتحقيقه، وأن نعمل، وأن نتبع، وأن نطيع، وأن نكون كما أراد الله سبحانه وتعالى لنا، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ إن عليهم وعلينا جميعاً أن ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ حتى إذا لم يفهموا الحكمة ولم يعلموا وجه الحكمة من التشريع، فعليهم أن يسلموا ـ على الرأس والعين- ويعترفوا أنهم الجهلة وليس الرسول ـ والعياذ بالله- جاهلاً.

إنك لا تجد أحداً يقول ذلك بعد...ولكننا بعملنا، وبقوانيننا الاجتماعية، أو غيرها نقول ذلك والله يقول: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.. لاحظوا جيداً، ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[1]؛ (وليس الاجتهاد في مقابل القرآن الكريم والروايات الشريفة؟

(الإِسْلامُ) يعني التسليم وأن تُسلِّم وجهك وقيادك،وتسلمها لله تعالى كما قال تعالى ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[2] أن تسلم وجهك لله، وتسلّم زمام أمورك وحياتك وهندستها وقوانينها لله تعالى ولتعاليمه ودساتيره ودينه القيم، إن الدين عند الله هو أن تكون عبداً، إن

---

(١) (آل عمران:١٩)

(٢) (البقرة:١١٢)

فخر رسول الله ﷺ: أنه كان عبداً لله، وهل العبد يجتهد ويرفع راية في مقابل الله؟

٧. القرآن نزل لزمان خاص!!

كلا.. كلا.. لا يجتهد العبد في مقابل رب العزة والجلال...لكننا نحن صرنا - وبكل أسف- مجتهدين، وبشكل مطلق، إلى درجة أن ذاك الإنسان البعيد عن جادة العقل -فكيف بالشرع - في كتابه الصادر قبل فترة يقول -والعياذ بالله- (تأملوا الاجتهاد بل الطغيان عندما يفتح بابه في مقابل القرآن والروايات، فإنه يبدأ بقضايا بسيطة... مثلاً الزواج المبكر غلط بألف فلسفة وفلسفة، المهر الخفيف واليسير غلط بألف فلسفة وفلسفة، والأرض ليست لله ولمن عمّرها، وإنما هي للدولة بألف فلسفة وفلسفة، عندما تبدأ من هنا تنتهي إلى هنا)، هذا الإنسان ويعده البعض من كبار المفكرين في العالم الإسلامي، يقول:

نزل القرآن -والعياذ بالله- لزمان خاص ومكان خاص...لذلك فان كل قوانينه حول المرأة، ملغاة؟!!

لماذا؟ لانه أصبح أسيراً يمشي في ركاب الغرب...لأن التموج الفكري الغربي قد سيطر عليه، والغرب يقول: المرأة حقوقها متساوية مع الرجل بشكل مطلق وفي كل الأبعاد والجهات، فكيف يكون لها الثمن في الإرث- كزوجة- أو النصف كابنة مثلاً، أو في الدية كيف يكون لها النصف مثلاً، أو لا يُقتل بها قاتلها إلا مع إرجاع نصف الدية أو ما أشبه ذلك من الكلام...

وما هذا كله إلا لأنه انهزامي أمام سطوة الغرب...ولانه خرج عن

(ولاية الله) و(طاعته) إلى (ولاية الغربي) و(طاعته) حتى إنه لا يقبل كلام الله وصريح كتابه المجيد،و يقبل كلام الغربي...حتى إنه يصل إلى هذه الدرجة، ويقول: القرآن نزل لزمان خاص، ومكان خاص...

وذلك ليتهرب من أي (قانون قرآني صريح) لايقبل به اليهود والنصارى أو الحضارة الغربية...تقول له:إذا كان الأمر هكذا؛ فالصلاة أيضاً كانت لزمان خاص، إذا كانت (الدية) وتحديداتها غلطاً ـ حسب مدعاك ـ ، فإن الصلاة أيضاً غلط، وقد نزلت لزمان خاص، ولأناس بدو أعراب كانوا يحتاجون للركوع والسجود، أما أنا فإنني إنسان مثقف، وعالم كبير واستاذ جامعي، فكيف أركع وأسجد؟ بل إنني أكتفي بذكر الله وقد قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] لاحظوا تلبيس إبليس إنه يستعين بخمسين دليلاً يستدل به!!

ذالك الحاكم البعيدأيضاً عن جادة الصواب استدل على ضرورة أن تكون العطلة يوم السبت، (لاحظوا لأنه متأثر باليهودية العالمية... إن لم يكن عميلاً ـ وهذا هو الجوهر ـ) في بلد معين استدل على ذلك بشكل مخادع جداً ـ وقد أطاحوا به لأنهم استنفدوا أغراضهم منه رغم كل ما قدم لهم ورغم أنه ضحى بدينه وشعبه لأجلهم ـ استدل على ذلك بالقول:(يوم الجمعة يجب أن يكون يوم عمل لايوم عطلة،و يوم السبت يلزم أن يكون يوم عطلة، يوم اليهود يكون عطلة لماذا؟ لأن الله يقول: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[2] إذن الله يقول يوم الجمعة لا عطلة هنالك...فـ (اليهود) كلامهم هو الصحيح والإقتصاد الوطني يتضرر

(١) (العنكبوت:٤٥)
(٢) (الجمعة:١٠)

بعطلة يوم الجمعة...ويوم السبت عطلة عالمية...فلنكن مثلهم!! إن لكل (مبطلٍ) دليلاً ولكنه يلبس الحق بالباطل.

لفتة في قوله تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾

وإليكم آخر كلمة ولفتة أشير لها، هنا والتفصيل في وقت آخر، وهي لماذا قال الرب ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ ولم يكتف بـ(والدين)أي يقول (ارسل رسوله بالهدى والدين)؟

الجواب قد يكون هو: لأن الله يعلم أننا نحن البشر غارقون مع الأسف في الجهل، لذا لم يكتفِ بذكر كلمة الدِّين مفردة، وإلا فالدِّين الذي جاء من الله هو الحق دون ريب ولكنه يؤكد ذلك بقوله: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ رغم أن الله اذا أرسل رسولاً بدين فإنه لا يُعقل أن يكون باطلاً؟ وهو الحكيم، اللطيف، الرؤوف، الرحيم، ورسوله هو الصادق الأمين، ولكن البشر جاهل، يقول: دين الله باطل بلسانه، أو بفعاله لذا احتاج الأمر إلى التأكيد والتصريح الذي لا لبس فيه بقوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ هذا تأكيد، إن ما جئتكم به فهو الحق هو (الدِّين الحق)، وماذا بعد الحق إلا الضلال..

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا، وإياكم لكي نكون من الذين يسلمون قيادهم وزمام أمور معاشهم ومعادهم لله، ولرسوله، ولأئمة أهل البيت (عليهم الصلاة وأزكى السلام) حقاً وصدقاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين..

مصادر الكتاب

خير ما نبتدئ به

القرآن الكريم

ونهج البلاغة

والكافي الشريف للشيخ الكليني

١. الإحتجاج للشيخ الطبرسي

٢. الإختصاص للشيخ المفيد

٣. الإرشاد للشيخ المفيد

٤. الاستغاثة والمسترشد في إمامة علي عليه السلام لمحمد بن جرير الطبري الشيعي

٥. أعيان الشيعة للسيد الأمين

٦. اقتضاء الصراط المستقيم لإبن تيمية

٧. الإمام علي (عليه السلام) في القرآن للسيد صادق الحسيني الشيرازي.

٨. الإيضاح لابن شاذان

٩. بحار الأنوار للشيخ المجلسي

١٠. تاج العروس للزبيدي

١١. تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر

١٢. تحف العقول لإبن شبعة الحراني

١٣. التحفة الاثنا عشرية للآلوسي

١٤. تذكرة الحفاظ للذهبي

١٥. تصحيح الاعتقاد للشيخ المفيد

١٦. التفسير الأصفى للفيض الكاشاني

١٧. تفسير البرهان للسيد البحراني

١٨. تفسير الصافي للفيض الكاشاني

١٩. تفسير القرطبي

٢٠. تفسير القمي لعلي بن إبراهيم القمي

٢١. تفسير الميزان للطباطبائي

٢٢. تفسير مواهب الرحمن للسبزواري

٢٣. تفسير نور الثقلين للحويزي

٢٤. تهذيب التهذيب لإبن حجر العسقلاني

٢٥. تهذيب تاريخ دمشق لإبن بدران

٢٦. التوحيد للشيخ الصدوق

٢٧. ثواب الأعمال للشيخ الصدوق

٢٨. الجرح والتعديل للرازي

٢٩. الخرائج والجرايح للراوندي

٣٠. الخصال للشيخ الصدوق

٣١. خلاصة عبقات الأنوار للنقوي

٣٢. الخلاف للشيخ الطوسي

٣٣. الدر المنثور للسيوطي

٣٤. سفينة البحار للشيخ عباس القمي

٣٥. كتاب سليم بن قيس

٣٦. السنن الكبرى للبيهقي

٣٧. سير أعلام النبلاء للذهبي

٣٨. شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني

٣٩. صحيح البخاري

٤٠. صحيح مسلم

٤١. شعاع من نور فاطمة للمؤلف.

٤٢. الضوابط الكلية لضمان الإصابة في الأحكام العقلية للمؤلف

٤٣. علل الشرائع للشيخ الصدوق

٤٤. عوالي اللآلي للأحسائي

٤٥. عيون الأخبار لابن قتيبة

٤٦. فقه التعاون على البر والتقوى للمؤلف

٤٧. قرب الإسناد للحميري القمي

٤٨. الكاشف في معرفة من له رواية في كتب السنة للذهبي

٤٩. كامل الزيارات لابن قولويه

٥٠. كتاب بغداد لابن الطيفور

٥١. كنز العمال للمتقي الهندي

٥٢. الكنز المرصود في قواعد التلمود لروهلنج الفرنسي

٥٣. مجمع البيان للشيخ الطبرسي

٥٤. المحاسن والمساوي للبهيقي

٥٥. محاضرات الأدباء للراغب الاصفهاني

٥٦. المحلى لابن حزم

٥٧. مدينة المعاجز للبحراني

٥٨. مروج الذهب للمسعودي

٥٩. المصنف للصنعاني

٦٠. مستدرك الوسائل للميرزا النوري

٦١. مسند أحمد

٦٢. معجم البلدان للحموي

٦٣. معرفة السنن والآثار للبيهقي

٦٤. مكيال المكارم لميرزا محمد تقي الاصفهاني

٦٥. من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق

٦٦. مناقب آل أبي طالب ابن شهر آشوب

٦٧. منهاج السنة إبن تيميه

٦٨. الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي

٦٩. نفس الرحمن في فضائل سلمان لمحمد تقي النوري الطبرسي

٧٠. نور الثقلين للحويزي

٧١. مجمع الزوائد للبيهقي

٧٢. وسائل الشيعة للحر العاملي

٧٣. ينابيع المودة للقندوزي





المحتويات



تفصيل الإستدلال (ببرهان الدوران والترديد) وناقش الدليل في ٢٣ صفحة، ثم انتقل إلى (الفصل السابع) وأبحر في الإستدلال بقاعدة (دفع الضرر المحتمل) وناقشه مفصلاً في ٥٢ صفحة .

وفي (الباب الثامن، الفصل الأول) تناول بالبحث مسائل سبع وهي :

وجوب الإشارة، حرمة المنع، وجوب ردع المانع، وجوب سعي المشير لتطبيق محتواها، وجوب طلبها، وجوب العمل على طبقها، وجوب الفحص عن صحة الرأي .

وفي الفصل الثاني من نفس الباب تناول (بيان حكم تخالف رأي أكثرية شورى الفقهاء مع أكثرية الأمة) .

وهكذا. . . نشاهد أنه بحث أدق المسائل العلمية، وعالجها بالدليل الإجتهادي، وإن فقد فبالأصل العملي.

وأسلوبه في البحث العلمي، كأسلوب الفقهاء في الكتب الإستدلالية مثل المسالك والجواهر ومفتاح الكرامة وموسوعة الفقه وغيرها. . . إلاّ أنه حاول أن يجمع بين العمق العلمي والسلاسة الأدبية حسب الإمكان .

٢ ـ الإبداع :

لقد اعتاد العلماء في الحوزات العلمية في بحوثهم أن يطوروا الأبواب والمواضيع المطروحة، فيفصلون فيها، ويذهبون في التعمق في تفريعاتها وأدلتها .

أما كتاب (شورى الفقهاء) فهو الأول في موضوعه، ولم يتناول إلى الآن عالم تحقيق هذا البحث، بهذه الصورة والمستوى الذي طرحه سماحة السيد مرتضى الشيرازي في دراسته، إذ أن كتب الفقهاء تتطرق غالباً إلى بحوث العبادات أو المعاملات أو الإيقاعات أو ما شابهها، أما هذا الكتاب فتح باباً علمياً جديداً على مصراعيه، وسيدخله في المستقبل كل من يهمه معالجة أوضاع المرجعية والحوزات العلمية والأمة بوجه عام .

٣ ـ أهميـة الموضـوع :

إن نظرية (شـورىٰ الفقهاء) تشكـل أساسـاً استراتيجيـاً في حل معضـلات عالمنا الإسلامي الذي يرتطم بأمواج الديكتاتورية، سواءاً على صعيد الحكم حيث سلطة الحاكم الواحـد، والحزب الـواحد، أو عـلى صعيد المـرجعية، حيث تبـذل جهـود مكثفة من بعض المحسـوبين عـلى مرجعيـات معينـة لتضعيف المـرجعيـات الاخـرى المنـافسـة، وأن تـأسيس مجلس لشـورى الفقهـاء، يضمن حقـوق كـل الأطراف المرجعية وتحترم آراء الأمة، وترتفع الكفاءات إلى سدة المرجعيـة، وطرح هكذا مشروع لمجلس فقهاء، لقيـادة الأمة دينيـاً، إنما هـو في غايـة الأهمية كـما هو أوضح من أن يخفى[١] .

وللمؤلف كرّاس جميل حول بطل الإسـلام الأول الإمام أمـير المؤمنين تحت عنـوان (أضواء عـلى حياة أمـير المؤمنين) كتبـه للشباب بـأسلوب جميل ومعلومـات جذابة .

(١) للتفصيل راجع (شـورى الفقهاء المـراجع دراسـة تحليلية حـول القيادة المـرجعية الجـماعية) للشيخ ناصر حسين الأسدي حول أهمية هذا الموضوع .

المصادر

القرآن الكريم
نهج الفصاحة
نهج البلاغة

١ــ التفاسير

تفسيرعلي بن ابراهيم القمي
التبيان
التفسير الكبير
تفسير ابن عباس
تفسير ابن اثير
تفسير ابن كثير
تفسير الخازن
الجواهر في تفسير القرآن الكريم
روح المعاني-الكشاف
الميزان في تفسير القرآن
الفرقان في تفسير القرآن
المنار
مدارك التنزيل وحقائق التأو يل
مجمع البيان

٢ــ كتب الحديث

بحار الانوار
تحف العقول

عوالم العلوم والمعارف والاحوال
غرر الحكم
وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة
مستدرك الوسائل
ميزان الحكمة

٣ــ الكتب الفقهية :

مستند الشيعة في احكام الشريعة
مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة
مسالك الافهام في شرح شرائع الاسلام
جواهر الكلام في شرح شرائع الاسلام
المكاسب
حاشية الايرواني على المكاسب
حاشية الاصفهاني على المكاسب
حاشية المكاسب لليزدي
هداية الطالب الى اسرار المكاسب
العروة الوثقىٰ
مستمسك العروة الوثقىٰ
التنقيح في شرح العروة الوثقىٰ
شرح العروة الوثقى
نهج الفقاهة
الاجتهاد والتقليد (الفقه)
الحكم في الاسلام (الفقه)
الواجبات والمحرمات (الفقه)

البيع (الفقه)

القضاء (الفقه)

مهذب الاحكام

المحاكمة في القضاء

دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الاسلامية

٤ـ الكتب الاصولية

الرسائل

حاشية الاخوند على الرسائل

بحر الفوائد في شرح الفرائد

اوثق الوسائل في شرح الرسائل

كفاية الاصول

حاشية المشكيني على الكفاية

الوصول الى كفاية الاصول

نهاية الدراية

نهاية الافكار

حقائق الاصول

محاضرات في اصول الفقه

مصباح الاصول

دروس في علم الاصول

الاصول

٥ـ الكتب الرجالية واللغوية

رجال علي بن داود

رجال النجاشي
رجال الكشي
الفهرست
تنقيح المقال في علم الرجال
الجامع في الرجال
معجم رجال الحديث
لسان العرب
مجمع البحرين

٦ــ كتب اسلامية مختلفة

ألارشاد
الحكومة الاسلامية
الذريعة الى تصانيف الشيعة
الشورىٰ في الاسلام
شورى در قرآن وحديث
الصحيح من سيرة النبي الاعظم (ص)
مصادر نهج البلاغة
كلمة الامام المهدي (عج)

بالاضافة الى الكتب المنقول عنها بالواسطة مثل:

انوار التنزيل
الاحتجاج
دعائم الاسلام
روضة الكافي

الفقيه
دستور معالم الحكم
البصائر
الذخائر
النهاية في غريب الحديث
تنبيه الخواطر
احكام القرآن
مكارم الاخلاق
قرب الاسناد
الصافي
عيون اخبار الرضا (ع)
اكمال الدين واتمام النعمة
ادب الدنيا والدين
سراج الملوك
مطالب السئول
نهاية الارب
شرح المفاتيح
تفسير النعماني
منية المريد
علل الشرايع
الغيبة
المناقب
الدر المنثور
نوادر الراوندي

مقاتل الطالبيين
الامتاع لابن هشام
السيرة لابن هشام
السيرة للمقريزي
اثبات الهداة
امالي الصدوق
امالي الطوسي
علل الشرائع
روضة الواعظين
الخصال
مغازي الواقدي
غوالي اللئالي
اعلام الورى
الاختصاص
كنز الكراجكي
كتاب سليم بن قيس الهلالي
المحاسن
صحيفة الرضا(ع)
بصائر الدرجات
معاني الأخبار
قرب الاسناد

الفهرس